يوسف زيدان

محال

رواية

دار الشروق

يوسف زيدان

محال

رواية

دار الشروق

محـال

يوسف زيدان

تصميم الغلاف: وليد طاهر

الطبعة الأولى ٢٠١٢

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع ١٩٩٧١/ ٢٠١١
ISBN 978-977-09-3092-2

«.. وأَمَّا الأَخبارُ التى بأيدينا الآن،

فإنما نتَّبعُ فيها غالبَ الظنِّ،

لا العِلْمَ المحقَّق».

ابن النفيس

كَلابْشَه

الحياةُ تُحيِّرنا. تُبهرنا بالبرَّاقِ من ألوانها، كي نرتادَ دروبها فرحًا وغفلةً، ثم تفجؤنا في الحنايا الصوادمُ؟ أَمْ تُراها تحتالُ علينا، بأن تمنحنا أحيانًا ما يُحاذي أحلامنا، وقد يفوق، فنُسرف في الطمأنينة ونختالُ بين الخيالات؟.. مَنْ يدري؟ لعلَّ الحياةَ لا تكترثُ بنا أصلًا، فنُلاحقها نحن بصنوف الحِيَل حتى يغمرنا التعلُّقُ بالتمنِّي، والتقلُّبُ في الترقُّب، والأملُ في اهتبالِ النوال. عسانا أن ننسى مع مَرِّ السنين، أننا في خاتمة التطواف مسلوبون لا محالة،

ومحجوبون.

هذا الشابُّ عشرينيُّ العُمر، الرائقةُ سُمرته، المستكينُ في جلسته على حافَّة البحيرة. محجوبُ اللحظةِ عما ينتظره اليوم، وغدًا، ولا يشغله الآن إلا اصطيادُ بضع سمكاتٍ تكفي للغداء. وقد لا تكفي. الأسماكُ رخيصةٌ في أسوان، لكن صيدها أرخصُ وأروحُ للصيادين الهواة من أمثاله. بعد حينٍ سيأتيه الباصُ الذي ذهب إلى المطار قبل الفجر؛ لتوصيل فوج السائحين الأجانب الذين جاءوا قبل

يومين، وبعد ساعتين، سوف يطيرون إلى القاهرة بطائرةٍ مخصوصة. لا بد أنهم أغدقوا على المندوب السياحي والمرشد الذي صحبهم، ولعلهم أسعدوا السائق ببعض الدولارات. سوف يأخذه سائقُ الباصِّ من هنا إلى محطة القطار، ليبدأ رحلةَ عملٍ جديدةً تضيف إلى رصيده المخبوء، مالًا جديدًا.

هو لا يعرف في غمرة غفلته الهانئة هذه، أنه سوف يستعيد سعادة تلك اللحظة لاحقًا ويحدِّق في أعماق ذاته، بعدما يصل به عمرُه إلى الأربعين. العشرون سنُّ الحجْبِ بالفتوة، والأربعون بدءُ الكَشْفِ والنبوَّة. لو انتُهِك له الحجابُ الآن، لأفاقَ من أوهامه وكَفَّ عن التحليق بأجنحة الأحلام؛ حتى تملَّكه الأملُ المستحيلُ في الزواج بفتاةٍ نوبية من جماعة المتُّوكِّي، تكون ساحرةَ الحضور ومُحبةً مانحةً. تُشبه هذه البحيرةَ، هادئةَ الحنوِّ، المتموِّجةَ صفحتُها بانتظامٍ آسرٍ، مع نسمات النور الرقيق الآتي بصحبة هذا الصباح الشتويِّ البديع.

رُوحُه ترتاحُ عند حوافِّ البحيرة، فيأتي إليها دومًا بعد صلاة الفجر ويرمي بوصة الصيد في الماء، ثم يسكن حتى تطمئن سمكةٌ وتنخدع بالطُّعم، فتعلق في الطرف المغمور وتصير طعامًا.. حتى لو خلت البحيرة من الأسماك، وكفَّتْ عن المنح، فسوف يظل يأتي للجلوس على ضفافها. وسيظل يكتب فيها الأشعار التي لم يخبر بها أحدًا، قَطُّ، ولن يقرأها إلا لهذه البحيرة الحنون، التي يؤلِّف الشعر من أجلها. الظِّلُّ يدلُّ. لا يحتاج النظر في ساعة يده ليدرك أن عقاربها تلامسُ السادسة، ولن يقلق على وصول الباصِّ ليأخذه في

تمام السابعة والنصف، لأن المواعيد مرعيةٌ عند العاملين بالسياحة وغيرُ قابلةٍ للقلق.

هامَ بعينيه من جديدٍ على وجه الماء، فغمرَه الشعورُ الزُّورُ بأن البعيد قريب. البحيرةُ تحرِّضُ الحالمين وتحنُّ على الوحيد المغترب حين تستخفُّ بالمسافات، وتستهينُ بتلك الحدود المرسومة لفصل المتصل بين مصر والسودان. الحدود. فوق الأوراق يرسمها السَّاسةُ بحسب المصالح والأهواء، ثم يزرعون عندها السياج وينثرون حولها المسلَّحين فتُمسي حائلًا لا يحولُ ولا يزولُ، إلا بالإذن أو بالسلاح. الصغارُ يرونها في الرسوم فيصدِّقون بها، وقد يقتتلون من أجلها حين يكبرون، لأن الوهمَ يُمسي بعد حينٍ حقيقا.. فيصير التيهُ للناس طريقا.

العامَ الماضي كتب للبحيرة قصيدةً يسألها فيها عن اسمها، وعما رأته طيلة السنوات الثلاثين الماضية، فلم تجاوبه. الناسُ هنا يسمونها البحيرة من دون إضافة، أو يفصِّلون للأغراب فيقولون «بحيرة السد» وأما الكتبُ المدرسيةُ فهي تحتال على الصِّبيان وتسمِّيها بحيرة ناصر. كانوا يشتهون في مصر النصر بعدما افتقدوه طويلًا في الحروب، فوضعوه عنوةً في التسميات استجلابًا له وتيَمُّنًا باسم رئيسهم ناصر.. «الناصرْ ربنا، وهوَّ المستعان» يزعق الحاجُّ بلال بذلك كلما سمع اسم عبد الناصر، مع أن صوته في العموم خفيضٌ، لكنه لا يحب الرئيس الذي حَرَمه من بيته النوبي المشرفة نوافذه على النيل، من فوق ربوةٍ صارت اليوم قاعًا للبحيرة. الحاجُّ بلال المؤذِّن رجلٌ وديعُ القلب، طيبٌ، لكنه كأهلِ النوبة كلِّهم يَأْسَى لسابق الأيام ولم يستسلم بعدُ للنسيان. وهو كبقية كبارهم سِنًّا يؤكد أن جبلًا من الذهب كان يلمع عند الفجر بناحية الشرق، حتى

طمَّ الماءُ بعد السدِّ فانطمر الذهبُ مع الدفائن، وانطمر الزمانُ النوبيُّ. ويوقن الحاجُّ بلال أن بجوف النيل سكانًا يعيشون حياتهم تحت الماء، كان أهلُ النوبة قديمًا يعدُّون الطعام في المناسبات، ويرسلونه لهم على صفحة النيل.

كان رزقَ الأسماك.

اهتزت الزاويةُ العاليةُ المحصورةُ بين البوصة والخيط، فانتبه الغافلُ وجذب الطرف المغمور بسرعة، فأتت السِّنَّارةُ بسمكةٍ بُلطيَّةٍ في حجم الكَفّ تتراقص ألمًا ويأسًا. استخفَّ به الفرحُ فانفلتتْ منه قَهْقهةُ شابٍّ سودانيِّ الأب، مصريِّ الأم، يعيش بأسوان بعيدًا عن أهله الأوَّلين. أعاد السنارة إلى البحيرة وفيها طُعمٌ جديد، وعاد لحاله السابق مستغرقًا في اللاشيء الغامض السحريّ.

من بعيدٍ رأى الصيادين الصامتين في قاربهم النحيل، يرمون بطول أذرعتهم شِباكَهم الآمِلةَ فيما تمنحه البحيرةُ من أسماكٍ يشتهونها كبارًا، وكذلك يشتهيها تجارُ سوق السمك بأسوان، ويشتهيها من بعدهم الآكلون. الصيدُ رزقٌ حلالٌ، ممنوحٌ، فالبحيرةُ الممتدة بلا اعتبارٍ للحدود لا تشترط شيئًا حتى تمنح وتُخرج خيرها، وهي لا تأخذ كي تعطي. العاطي سوف يأخذُ بعد حينٍ، لا محالة، وأما المانحُ فهو المحبُّ الواهب. والحبُّ المانح صفةُ الأمهات، شبيهات البحيرات، المانحاتِ من دون اشتراط المقابل وبلا ارتباطٍ بأحوال القابل.

هذا سِرُّ الأمومة.

أُمُّه في أُمِّ دُرمان، تعيش بعيدًا عنه مع إخوته السبعة في بيتٍ

واسعٍ، بتلك البلدة الطيبة المرتمية على الضفة الغربية للنيل، قُبالة العاصمة الخرطوم، مثل مسافرٍ أُغمي عليه قبل بلوغ الديار. أبوه اختار «أم درمان» مسكنًا للأسرة لأنه يتاجر في الجلود، يجلبها زهيدةَ الثمن من ناحية «سِنَّار» النائمة في الجنوب الشرقيِّ للسودان، ويأتي بها إلى التجار الكبار في أسوان ليرسلوها إلى المدن الكبيرة، فتغدو غالية الثمن من بعد أسعارها المنخفضة هناك. كُلُّ كثيرٍ في موطنه رخيصٌ زهيد، لكنه يغلو إذا انتقل، حتى الناس. أسكن الأبُّ أسرته في أمِّ درمان ليمرَّ بهم في ذهابه والإياب، فيستقر معهم أيامًا في البيت القريب من الشارع الواسع. حيث الحياةُ أهدأُ من الخرطوم، وأرخصُ، وأنسبُ للأمِّ والأبناء الصغار. أمُّ درمان هي الجانبُ الأفقرُ من الخرطوم، والأطيبُ، مع أن كلا الجانبين طيبٌ وفقير.

* * *

قبل سنواتٍ أربعة، انتهى من سِني مدرسته الثانوية متأهِّلًا للجامعة، وصار عليه أن يعمل إلى جانب الدراسة، ليساعد أباه الكادح ويترقَّى بذلك إلى مرتبة الرجال. الرجلُ لا بد له من عملٍ، لأن البقاءَ بالبيوت شأنُ النساء ولا يليق بالرجل التشبُّه بهنَّ. هذا ما تعلَّمه من أبيه منذ الصِّغَر، ضمن أصولٍ صار مع الوقت يراها تامَّة اليقين، ولا مجال فيها لجدال: إذا تشبَّه الرجالُ بالنساء والنساءُ بالرجال، فسوف تقوم القيامة عن قريب. لا تأكلْ من حرامٍ مهما عذَّبك الجوع، فالموت جوعًا أهونُ من عيش الحرام. إذا فعلْت الزنا فسوف يُفعل في أُمِّك وأختك، فكما تَدينُ تُدان. الموتُ بشرفٍ، أفضلُ لك من العيش مع العار..

ذهب مع أبيه إلى «سِنَّار» مرةً فنفرت روحه من هناك، فهو لا يهوى النواحي الحافلة بأراذل أهل الجنوب، ولم يُطق زهومة الجلود. ومع دخول العام ١٩٩٠ جاء إلى أسوان مع أبيه في إجازة نصف العام، وبتوفيق الرحمن جرى الاتفاق على بقائه هنا للعمل في سوق السياحة الرائج، مع مذاكرة مقررات قسم الاجتماع.. قبل ابتداء الصيف تكسد السياحة ويقلُّ الزُّوارُ، فيذهب إلى الخرطوم ليؤدي الامتحانات ويسكن شهورَ الصيف اللاهب في حِضن الأُسرة.

لولا قريب أُمِّه «حَمَدون أبو غابة» مدير المكتب السياحي، لما تمكَّن من إيجاد فرصةٍ في السياحة التي يتنافس على رزقها الوفيرِ المتنافسون، ولولا الصديق القديم لوالده «الحاج بلال» لما سكن بهذا البيت المنـزوي بالطرف الجنوبي من أسوان، ناحية الخزان، واطمأن فيه. هو حوشٌ فيه حجرتان، ملحقٌ بالزاوية التي يؤذِّن فيها الحاجُّ بلال ويؤمُّ المصلِّين القلائل، ثم يقضي ساعات نهاره في صنع السِّلال التي يأخذها منه تاجرٌ بدينٌ مستديرُ الوجه، يُشبه القِطَّ. يعطيه في مقابلها حفنة جنيهاتٍ، يمنحها الحاجُّ بلال لابنته الوحيدة «محفوظة» أمِّ الأطفال الكثيرين، الغائب أبوهم في العراق منذ عامين. لا يأتيهم منه مالٌ ولا خبرٌ. أناسٌ هنا يهمسون بأنه هجرهم إلى غير رجعةٍ، لأنه مسجونٌ بالعراق في موضعٍ سريٍّ رهيب، داخلُه مفقودٌ. وآخرون يؤكِّدون أنه متنعِّمٌ هناك ولن يعود أبدًا، لأنه تزوَّج من عراقيةٍ باهرة الحسن، بيضاء الحنايا كالحليب الصابح، يُسبي حسنها عقول الناس ويُنسي الرجال عيالهم. بعدما طال انقطاعه وانقطع من عودته الرجاء، صارت «محفوظة» مع مَرِّ الأيام بائسة الحال، تشبه السِّلال القديمة.

الناسُ تُشبه بعضها بعضًا، وبعضهم يُشبه بقية الأشياء. الحاجُّ بلال شبيهٌ بأبيه لكنه أَسَنُّ منه، وأنحفُ وأضعف، وكلاهما يشبه طيورَ الحقل الكادحةَ ناقرةَ الأرضِ دومًا لإيجاد الرزق القليل. السائحون وزوَّارُ الآثار يشبهون المهاجرةَ من الطيور، والملوَّنةَ من العصافير الأنيقة المتنقلة بين جزائر النيل. في الجانب الجنوبي من السودان، يسكر الرجالُ الضِّخامُ ليلًا بأردأ الخمور، ويمرُّون من الطرق المظلمة وهم يترنَّحون، فيشبهون بهيئتهم قِرَدة الغوريللا.

* * *

علت الشمسُ من خلفه، وتعالت على الطريق أصواتُ السيارات. الساعةُ تعدَّت السابعة، وعليه الاستفاقة من سريانه في الآفاق البعيدة، والإسراع بدسِّ البوصة في موضعها السِّريِّ بين الصخور، استعدادًا ليوم عملٍ جديد. لكنه لن يفيق قريبًا من حلمه الجامح الطموح؛ أن يحصل الصيف القادم على شهادة الجامعة، ثم يعود من السودان إلى أسوان ليقيم بقية عمره مع امرأته النوبية التي ستكون بإذن الله مُتوكِّية، ولسوف يُرزق منها بكثير من الأولاد، ويجتهد في العمل حتى يبني بالمال الحلال بيتًا واسعًا، ويجعل حجرةً منه مفتوحةً على الشارع لتكون مكتبًا سياحيًّا، سوف يديره يقدر عليه بكلِّ ما من كدٍّ واجتهادٍ، حتى يدرَّ عليه المال الوفير، فيساعد أسرته في السودان ثم يأتي بإخوته حين يكبرون، كي يعاونوه في العمل ويكونوا مثله مَيْسوري الحال.

ـ صباح الخير.

انتبه لصوت السائق، فالتقط السَّلَّة وقفز إلى الباصِّ برشاقة شابٍّ

متحمسٍ، يُدمن التمنِّي. استوى على الكرسي المخصَّص للمرشدين وهو يُحيِّي السائق بالمعتاد من الكلمات الصباحية، وقبل أن يسأل أخبره الرجلُ الطيب عن الفوج القادم: هي رحلةُ منتصف العام الدراسي، من كلية العلوم بالإسكندرية، عددهم أربعة وثلاثون طالبًا وطالبة وثلاثةٌ من الأساتذة معهم أُسَرُهم، المشرفةُ على الرحلة اسمها الدكتورة «هداية أبو الفتح» سيقضون بأسوان أربع ليالٍ في فندق «أبو سمبل» ثم يسافرون إلى الأقصر بالقطار.

السائقُ يتكلم بسرعةٍ وهو يبتسم، فيبدو مع وجهه النحيل وأسنانه المتكسِّرة النافرة، شبيهًا بالفئران. لا بأس في هذا الشَّبه. فالفأرُ كائنٌ مسكينٌ بائسٌ، يسكن الجحر ويسكنه الذعرُ، وهو لا يعرف الغرور لأنه لا يتميَّز بالألوان. للفئران لونٌ واحد وهمٌّ وحيدٌ، هو اقتناصُ القليل ثم الفرار إلى الجحور. أخبره «سهيل العوَّامي» مرةً بأن فئرانًا بيضاء تشبه الأرانب، تعيش قرب بلدة اسمها «موشا» بمحافظة أسيوط، والناس هناك يأكلونها سِرًّا. وهذا عجيبٌ مثل بقية القصص التي يسمعها من «سهيل» فلا يصدِّق بها، لكنه لا ينكرها عليه.

لهجةُ السائق تدلُّ على أنه نوبيٌّ من جماعة «الفَجِّكِّي» لكن وجهه غيرُ مألوفٍ. لعله مستأجَرٌ موسميًّا للعمل، أو هو وافدٌ جديد. سأله مستفسرًا عن اسم الكريم وعمله السابق، فقال الرجلُ إن اسمه «صابر السوَّاق» ويسكنُ على طريق الأقصر، وهو يعرفه من قبل. قال: رأيتك مراتٍ في المواقع يا زول، فقد كنتُ أعمل مع شركة «ترافكو» لكنني تركتهم قبل أسبوع، هم استبعدوني لأني طلبتُ زيادةَ الأجر إذا زاد العمل.

ـ معرفة خير بإذن الله.

لا يبعد الطريق من موضعه المختار لصيد السمك، عن ميدان «محطة القطار» بأكثر من عشرين دقيقة سيرٍ بالباصّ، خصوصًا في مثل هذا الصباح الباكر.. السائقُ عَبَر من فوق الخزان ثم مال مع ضفة النيل يسارًا، وسار مسرعًا نحو المحطة وهو يترنَّم بأغنيةٍ نوبيةٍ قديمةٍ مُبهمة الكلمات. عندما تكاثرت البيوتُ وكثرتِ الدكاكين، استمهل السائق حتى يعطي ما اصطاده لدكَّان الأسماك، لِشَيِّه عند الظهيرة. وعند الحوض الذي بزاوية الدكَّان غسل وجهه ويديه بصابونٍ معطرٍ، وخرج مسرعًا ليستكملا الذهاب إلى المحطة التي دنت.. قبل وصولهما أدار السائقُ مذياعه، فصدحت الآياتُ بصوت عبد الباسط عبد الصمد: وسِيقَ الذين آمنوا إلى الجنة زُمَرًا..

غاص لوهلةٍ في جوف أفكاره، فقال في نفسه إن الفوجَ سيبقى ثلاثة أيام، وستأتيه مائة وخمسون جنيهًا أخرى. سوف يبلغ مجموعُ جنيهاته المدَّخرة عند الخال حَمَدون، مع المخبوءة في الكيس تحت قائم السرير، أربعة آلاف إلا خمسين. قد تصل معه حصيلةُ هذا الموسم إلى قرابة سبعة آلاف، فالأمورُ هذه السنة رائجةٌ والطلبُ عليه في ازدياد. الحمد لله الوهَّاب. لا يفصله الآن عن هذا المال الحلال، إلا استقبال الفوج القادم بعد قليل واصطحاب الرحلة من الغدِ إلى المزارات، واحتمال صخب الطلاب وميلهم إلى الاستظراف خلال الأيام الثلاثة، مع سكب المعلومات الأثرية المعتادة لآذانٍ تكون في أغلب الأحيان غير منصتةٍ.

الأجانبُ ينصتون أكثر، وأكثرَ يدفعون. لكنه لا يحب العمل معهم،

ولم يستخرج بعدُ رخصةَ الإرشاد السياحي اللازمة لصُحبتهم. الخفراءُ ومشرفو الآثار يعرفونه، ولن يمنعوه أو يحرجوه بطلب الرخصة إذا اصطحب أجانب معدودين. والحصول على هذا الترخيص ليس عسيرًا عليه، فلديه الكثير من المعلومات عن الآثار، ولسانه طلقٌ بالإنجليزية، وهيئته مقبولة، وجامعيّ. لكنه لا يسعى للعمل مع السيَّاح الأجانب، مع أنهم لطفاء وأكثر كرمًا من المصريين الفقراء؛ كيلا يزاحم المرشدين المعتَمدين. ولأنه قد يرى من الأجانب ما لا يحب ويرضى. في عامه الأول بأسوان، خرج إلى فوج أمريكي كمندوب استقبالٍ ومساعد مرشد. بعد أذان العصر أعطته امرأةٌ منهم، يابسةٌ كالغابرين، مائة دولار ملفوفةً في ورقةٍ فيها رقم حجرتها بالفندق. طلبتْ كأنها تُملي عليه، أن يجلب لها قطعةً من الحشيش الجيد ويأتي مساءً إلى غرفتها للمبيت، ولسوف تعطيه مائة دولار أخرى في الصباح. لم يفهم فاستفهم من الشاب المرشد، الخبير، فأجابه:

ـ عادي. هات لها الحشيش من سالم الجعفري، بعشرين دولارًا أو بستين جنيهًا، وخذ الباقي. لو كيَّفتها في الليل، ممكن في الصبح تعطيك أكثر. بسْ خذ معاك كَبُّوت علشان موضوع الإيدز.

ـ أستغفر الله، أستغفر الله.

ـ خلاص يا عم، إنتَ حُرّ. بسْ رجِّعْ لها الفلوس بسرعة، علشان تلحق تلاقي غيرك.

أعاد المال للمرأة، فمطَّت شفتيها اليابستين مستغربةً رفضه. أخذتْ من يده ورقة الدولارات وهي تنظر إليه بقرفٍ شديد، كأنه هو الداعي للفواحش. معاذَ الله. ليلتَها صلَّي في البيت ما فاته طيلة

النهار، ثم فتح مصحفه على قصة النبي يوسف مع امرأة العزيز، والصاحبات الخليعات، وراح يقرأ حتى هدأت روحه ونام حامدًا رَبَّه على نعمة الإسلام.

بعدها بعامين مرض المرشدُ المعتمَدُ، فجأةً، فجاء إليه المندوب يدعوه للخروج إلى معبد فِيلَة مع فوجٍ ممتاز، كلهم إنجليز. كانت فيهم فتاةٌ فاتنةُ الألوان، ممتلئةُ البدن، لا تحتمل الحرَّ ولا الملابس. اسمها كريستين. لم تعرض عليه أيَّ شيءٍ بلسانها، لكنَّ عينيها كانت تعدُ بالكثير إذا تجرَّأ فاقترب. هو ما اقترب وهي ما أفصحت، لكنها سألته في يومها الثالث بعد أن التقطت صورةً له بجوار تمثال رمسيس الثاني، إن كان يودُّ السفر إلى «مانشستر» للعمل هناك، والعيش الأفضل ببلادٍ أفضل. قالت إنهم لن يحتاجوا منه إلا بعض المعلومات البسيطة عن شمال السودان، والقبائل الكثيرة التي تعيش مع المشكلات هناك، وقد يرسلونه إلى تلك النواحي في زياراتٍ قصيرة. اضطرب قلبه ورفض بأدبٍ، وبأسفٍ استقبلت رفضه الذي وصفته بالغريب، ثم تركت معه عنوانها ورقم التليفون وهي ترجو أن يتغيَّر رأيه قريبًا. هو ليس ساذجًا ولن يتغيَّر له رأيٌ، ولن يحيد أبدًا عن رجائه في الجنة، وعن الأمل في التنعُّم بظلِّ الله يوم القيامة. الحاجُّ بلالُ يردِّد دومًا على مسامعه حديثًا نبويًّا يقول: سبعةٌ يظلُّهم الله بظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه، شابٌّ نشأ في طاعة الله.. ولكنِ الحاجُّ بلال لا يكمل الحديث، بذكر بقية المستظَلِّين السبعة.

الموسم الماضي كان مباركًا كثير الخير، فمع ابتداء خريف العام ١٩٩٢ أتت الوفودُ وفيرةً، فصار الرزقُ الحلالُ متاحًا. في الحادي

والعشرين من شهر أكتوبر، اتصل به الخال «حَمَدون» ليخبره، بل ليأمره، بالاستعداد للخروج في الصباح التالي بصحبة سائحٍ وحيدٍ، كبير السن، إلى معبد «أبو سمبل» بجنوب أسوان. هو موعدُ اللحظة المدهشة التي يخترق فيها الشعاعُ الأول بهو المعبد البديع، ثم يقع في نهايته على تمثال رمسيس الثاني فيشرق في الظلام المحيط وجهُ الملك، والآلهةِ الجالسين بجانبه. المشهد يتكرر كل عام مرتين، لكنه يظل دومًا مُدهشًا ومُثيرًا لأسئلة السائحين: كيف حَسَب المصريون القدماء حركة طلوع الشمس ومسار شعاعها بهذه الدقة؟ وكيف نحتوا في ظاهر الجبل هذا البنيان الهائل، وفي جوفه هذا المعبد البديع الذي تجلس بآخره تماثيلُ الآلهة، حول الملك؟ وكيف خابت مصرُ وتدهورت، بعدما بلغت تلك الدرجات العُلا؟ كثيرًا ما سمع هذه الأسئلة، لكنه لم يجد عنده يومًا إجابةً عنها، بل كانت على العكس تولَّد في نفسه أسئلة أخرى: هل من العدل أن نعرف مَن تُبنى له المعابد، ونجهل من بنوها؟ ولماذا أنكر البناءون أنفسهم، وأجلسوا الملك بجوار الإله، وبذلوا الجهد ليجعلوا وجهه منيرًا في الظلام؟ وهل قلوبُ الحكام منيرةٌ مثل وجوههم؟

الله أعلم.

يومَها ركب السيارة التي أتتْ بالرجل من الأقصر، واتخذ بهما السائقُ سبيله الأسفلتيَّ، مسرعًا نحو المعبد الجنوبي البعيد عن أسوان بساعتيْ سيرٍ أو ثلاث. السائحُ هادئ الصوت والملامح، على وجهه النحيل لحيةٌ خفيفة تعطيه هيئة المشايخ الطيبين، وصلعته اللامعة الدالة على الذكاء، تعطيه هيئة المرموقين من الرجال. فورَ

ركوبه إلى جوار السائق أعطى السائح الخرائط المعتادة، فأخذها شاكرًا إياه بلفظٍ عربيٍّ فيه عُجمة الأجانب. بدايةٌ طيبة. بعدما وصلوا إلى هناك عصرًا، ترك السائحَ الأنيق عند الفندق وذهب للمبيت في النُّـزُل المخصَّص للعاملين، على وعدٍ باللقاء قبل الفجر بساعةٍ للعروج إلى المعبد الشهير، قبل الشروق.

وصلوا خلف المعبد في غبشِ الليل الأخير، ومع ضوء الزُّرقةِ التي كَسَتِ السماء عرج مع السائحِ التلَّة التي فيها المعبد، وفي الطريق راح يسردُ ما يعرفه عن المنطقة. وعن نقل المعبد بعد بناء السد، من مكانه المغمور اليوم بالماء إلى مكانه الحالي فوق الربوة. كان السائحُ يسمعُ صامتًا، ويهزُّ رأسه مرةً بعد مرة. بعدما اكتمل صعودهما واستدارا يسارًا، فأطلَّتْ عليهما واجهةُ المعبد الهائلة، لم يشهق الزائرُ من روعة ارتفاع التماثيل مثلما يفعل عادةً السائحون. بدا الرجلُ مبهورَ النظرات، ولكن بغير الاندهاش المتوقَّع من مثله.

شهدا مع الحاضرين اللحظة المدهشة، عند قُدس الأقداس، وبعد خفوت شعاع الشمس وانزوائه من فوق وجه الفرعون، والآلهة المجاورة، عدا إله الظلام الذي لا يقع عليه الشعاعُ. استكملا زيارة المعبد والأروقة الحافلة بالتماثيل، والواجهة المبهرة، ثم هبطا من عندها إلى حيث ينتظر السائق بسيارته. في طريق العودة طلب السائحُ وهو يبتسم بلطفٍ مثل المنهكين، الجلوس حينًا ليرتاح واستقرَّ على حجرٍ كبيرٍ، وهو يُولي نحو البحيرة وجهه. كانت الشمسُ الغاربةُ من خلفهما تملأ الأنحاء بلون الذهب العتيق، وتمدُّ الظِّلَّ طويلًا فوق الرمال والحصى، حتى تلتقي عند حافة المنحدر الظلالُ.

مع نسمات المساء أجال السائحُ عينيه في الأنحاء، ورَنَا نحو البحيرة بأسىً ثم رفع وجهه إلى السماء كمن يبتهل إلى جهة الشرق، وهو مُسبل الجفنين. بعد لحظات التأمُّل، مَدَّ السائحُ يده في حقيبته الجلدية الخفيفة فأخرج علبةً فيها طعامٌ غريبٌ، عرض عليه قطعةً منه وهو يقول بعربية الأعاجم «حلال، حلال» شكره مُمتنعًا، فراح الرجلُ يأكل وحده على مهلٍ، ولما انتهى أخرج من جيبه الجانبي كتابًا أخذ يقرأ فيه، وهو يؤرجح رأسه برفق. وعند موضعٍ يعرفه، رفع الرجلُ صوته بلغةٍ غير معروفة، ثم توقف فجأة عن القراءة والتفت إليه وهو يقول بالإنجليزية الساخرة ما ترجمته: كان رمسيس الثاني ذكيًّا، بنى لنفسه معبدًا في النصف الغربي من النيل؛ النصف الذي كان يملكه، فالتجربة المريرة عَرَّفته حدوده.

- عفوًا يا سيد، لكن رمسيس الثاني كان يملك مصر كلها وليبيا والصومال وفلسطين.

- لا. بل كان بهذه البلاد مجرد عابرٍ، وقد عبر والتهمه الماء. وهذه الأرض الممتدة من ضفة النيل الشرقية، إلى الضفة الغربية من نهر الفرات، مِلكٌ لأناسٍ آخرين. مِلْكٌ لليهود.

- آه، فهمتُ. ولكن عفوًا، أين سند هذه الملكية؟

- ها هو السند في يدي، التوراة. وفي يدك سندٌ آخر، رأيتك تقرأ فيه بالأمس في السيارة. أم أنك لا تؤمن بالقرآن الذي تقرؤه؟

- أستغفر الله. بل أؤمن بكل حرفٍ وكلمة في كتاب الله.

- إذن، ستجد في قرآنك أننا نملك الأرض مرتين، الأولى كانت

في زمن سليمان، والأخرى صارت قريبة المنال.

ـ هل يمكننا الذهاب الآن، فالسائق طال انتظاره وسوف ينزلُ علينا ظلامُ الليل.

عندما التقيا في الصباح التالي، رفض بحسم الدولارات الخمسين التي مَدَّها الرجلُ اليهوديُّ، وعاد معه إلَى أسوان من دون كلام كثير، وكان مصحفه طيلة الطريق مفتوحًا على سورة الإسراء ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.. عند الموضع الذي ركب منه قبل يومين، نزل من السيارة السياحية وانسرب من فوره إلى مسكنه. في المساء قصَّ على الحاجِّ بلال ما جرى، فردَّ عليه: لا تشغل بالك، قُمْ معي لنصلِّي العشاء فقد آن وقت الأذان.

ذكريات.

* * *

وصل به الباصُّ إلى محطة القطار، فوجدها صاخبةً كحالها دومًا في النهار. مدخلها يحوطه الجائلون من الباعة ذوي الجلابيب المتَّسخة، وحولهم المشترون في الأردية البيضاء النظيفة، وفي الأنحاء رجالُ الشرطة بالملابس السوداء. الأبيضُ والأسود هما لونُ الحياة في أسوان، للملابس وللناس، ومنهما يتولَّد الإحساس بأن الفواصل حاسمةٌ. في أسوان وشمال السودان، لا يرحب الناس بالتزاوج بين الجماعات والقبائل، ويحبُّون للولد أن يتزوَّج من بنات عمومته أو من عشيرته الأقربين. لعل نزعتهم للانعزال تعود إلى ميلهم

لهذين اللونين. لكنه قد سمع رَسَّامًا يقول يومًا إن الأبيض والأسود ليسا بلونين، أصلًا، إنما هما سَلْبُ الألوان.

أنزله السائق أمام مدخل المحطة، وذهب ليركن الباصّ وهو يقول بصوتٍ يكسوه الابتسام، إن القطار لن يأتي قبل ساعتين أو ثلاث، ولسوف ينام على المقعد الخلفي حتى تصل الرحلة. الساعة تعدَّت الثامنة ولا تلوح بعدُ دلائل وصول القطار، لا بأس، سوف يتجوَّل في الميدان حتى يأتي القطار.. دار على المحالِّ وبين عربات الباعة الجائلين، واشترى موسين دسَّهما في محفظته لحين الحاجة، وفطيرةً دسَّها في جوفه وهو جالس على المقهى القريب من مدخل المحطة. بعدما شبع طلب شايَه، وأخرج من جيب قميصه المصحف وقرأ من حيث توقَّف بالأمس، عند أول سورة النور ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ.. ﴾، ﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا.. ﴾

سبحان الله، لماذا يأتي ذكرُ الزنا والزناة في ابتداء سورة اسمها النور؟ وكيف يفعل الزناةُ ما هو خليقٌ بالبهائم؟ اللهم لا تأخذنا بما يفعل السفهاء منا، ولا تؤاخذنا بأوزارهم، فأنت اللطيف الخبير. قال ذلك في نفسه وعاد إلى تلاوته الخافتة وهو يرشف شايَه على مهل، حتى أشرقت روحه حين وصل إلى الآيات: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. ﴾

قرأ حتى ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ثم أغلق المصحف ودسَّه ثانيةً في جيبه، على أمل معاودة القراءة من أول سورة الفرقان. التفت بحنينٍ إلى ناحية النيل القريب من المحطة، فحلَّقت به الأماني من

جديد، بأجنحة الجمال والرِّقَّة. النيلُ جميلٌ في أسوان ورقيق. في سنَّار حيث يجري النيلُ الأزرق، وبين الخرطوم وأمِّ درمان حيث يلتقي الرافدان الأزرق والأبيض، لا يبدو النيل جميلًا مثلما هو هنا. نيلُ أسوان أرقُّ وألطفُ وأنظفُ، ولا تفوحُ من حوافِّه رائحةٌ عَطِنة في الشتاء، مثلما هو حاله هناك. كاد يبتسم لحظة اكتشف أنه يشبه النيل، فهو مثله أسمرُ وطيبٌ وطويل.

أفاق من استغراقه حين مرَّت من أمامه فتياتٌ ثلاث، غزلانيات، يمشين بالمرح والخفة المحبَّبة من أمثالهن. كادت عينه تغوص وراء حركة الأرداف والنهود، لولا أدركه إيمانه فغضَّ النظر، بعدما تبيَّن أنهن من النوبيات الفَجِّكِّيات.. وبينما يرشُّ الماء أمام مقهاه؛ لتسكين التراب واستجلاب البارد من الهواء، داعب «مسعود القهوجي» الفتيات عند مرورهن به باسمات، بأبياتٍ من الشِّعر المعروف هنا بمربعات النميم:

يا سِتّ الجمال مَحْلى الجمال فـيكي
مهما أسوِّي، بالوصف ما أَوْفيكي
بالروح والبدنْ والقليب، أَفْديكي
بسْ سيبي عيوني، تعاين فـيكي

لم تسمع العابراتُ إلا ابتداء الأبيات، وابتعدن ضاحكاتٍ غير مكترثاتٍ بمداعبته. اقترب منه «مسعود» الشهير هنا بخفة ظلِّه، وأسند كتفه إلى حَلْق باب المقهى وهو يؤرجح بيده الدلو الفارغ، ثم راح يرنو إلى ناحية السماء مبتسمًا ومترنِّما بأبياتٍ أخرى لا يُداعب بها أحدًا:

يا سِتّ الجمال، إنتي عليَّ نويتي

عايني، كِيفْ في الشباب سَوّيتي
جرَّحتي القلوبْ والعيونْ بكّيتي
حرام عليكي، جَرَّحتي ولَّا دَوّيتي

لأهل أسوان شغف بهذه الأشعار، وهم ينشدون منها في الأعراس البهيجة مئات الأبيات المتتالية. للأعراس في أسوان شأنٌ كبير. أسوانُ يسكنها النوبُ والعرب والريفاوية، وكل قومٍ منهم بما لديهم فرحون، وبأصول جماعتهم يعتدُّون. النوبيون منهم جماعتان كبيرتان، الفَجّكّي والمتُّوكّي، وكلتاهما تقول إنها أصل النوبة والأكثر أصالةً من الأخرى. جماعة الفجّكّي هم الأكثر عددًا وامتدادًا على ضفتي النيل، والذين يعيشون منهم في السودان يسمون أنفسهم المحَسّ، ويستعلون بعزلتهم على العرب. والعربُ بدورهم يستعلون عليهم بأنهم أصل الإسلام، وبأنهم الأكثر والأقدر من النوب، والأقوى. الله تعالى هو القوي المتين، وليس البشر الفانين.

أصوله هو عربيةٌ خالصة؛ فأبوه من جماعة «الجعليين» الساكنة شمال السودان، وأمه «جعفرية» كان أهلها يسكنون مصر مع بقية الجعافرة، ثم تزحزح بعضهم جنوبًا فصاروا بالصدفة تحت حدود السودان، وأصبحوا بعد حينٍ يعتزُّون بأنهم سودانيون ويفتخرون.. الناسُ يعتَّزون دومًا بما يجدون أنفسهم فيه، ويفتخرون بما لا يختارون.

أخبره أبوه يومَ جاء به إلى أسوان، أن العرب هنا قُرشيون وأعراب. من القرشيين الأشراف «الجعافرة» أهل أُمِّه والخال حَمَدون، ومنهم «الأدارسة» وهم أيضًا أشرافٌ ينتمون إلى آل بيت النبوة. أقلُّ العرب هنا

في العدد «العبابدة» أحفاد عبد الله بن الزبير بن العوام، وهم أيضًا قومٌ طيِّبون. أما الأعراب فهم أنواعٌ؛ منهم المهاجرون والأنصار والعليجات. بعدما أمضى هنا شهورًا واكتشف شيئًا فشيئًا أن لهذه الجماعات على اختلافها، صفاتٍ وملامحَ متقاربة كالسُّمرةِ النقية، وميلِ الصغار إلى النحافة والبالغين إلى البدانة، والعيونِ القريب لونها من لون الوجه والشَّعْر. العجيبُ هو ملامحُ جماعة «الكُشَّاف» من نوبة الفجِّكِّي، فكثير منهم شُقْرٌ زُرْقُ العيون. ويقال إنهم أصلًا من المماليك الذين اتجهوا من القاهرة إلى الجنوب في زمنٍ قديم، واستقروا بهذه النواحي وتزاوجوا مع أهلها.. أيامَ كان هذا التزاوج ممكنًا.

الزواجُ أجملُ ما يمكن للشابِّ أن يفعله، بل هو الهدف النهائي له. فهو يعمل ليكسب مالًا يتزوَّج به، ويبني البيت أو يشتريه ليتزوج فيه، ويحبُّ فتاةً بكل جوارحه ليتزوَّج بها، ويكون له أولاد لأنه تزوَّج أُمَّهم. الزواجُ سببُ الحياة وسرُّها، ومنتهى الأمل منها. راقتْ له هذه الخواطرُ حين جالت برأسه، وغسلت قلبه بعطر النعناع. لو شاء، يمكنه الزواج بفتاةٍ جعفريةٍ ممن يسكنون جنوب مصر أو شمال السودان؛ فهم أخواله ولن يرفضوه. لكنه يهوى النوبية المتُّوكيَّة التي لم يرها حتى الآن، ويتمنَّى أن يراها قريبًا ولا يعترض أهلها كثيرًا، فيظفر بها في نهاية المطاف.

الأمنياتُ فَرْحَةُ الوحيدِ،

الوحيدةُ.

لن يتزوَّج بالطبع من «الريفاوية» الوافدين إلى هنا من الصعيد وسائر النواحي المصرية، لأن في نسائهم غلظةً، وفي رجالهم عنفًا واعتقادًا بأنهم أصلُ البلاد، وهم يرون الآخرين دخلاءَ عليهم، مثلما

يرى الآخرون الآخرين. لا يهمُّه الآن ما يعتقده أولئك أو هؤلاء، فالأهمُّ أن فتيات هذه الجماعات كلهنَّ فاتنات. لكن أكثرهن رشاقةً ووقارًا المتُّوكِّيات من النوبيات، اللواتي يحوطهنَّ سحرٌ لا تعرفه بقية البنات. يُقال إنهنَّ لا يشربن الماء إلا مُطيَّبًا بقشر الليمون وأوراق النعناع، ويغتسلن أيضًا بماءٍ مطيَّب بالعطور. ويقال إن الرجل إذا اقترب من امرأةٍ مَتُّوكية، تنسَّم منها الرائحة الطيبة لاهتمامهنَّ بالأدهان العطرية الحافظة لنعومة الأجسام. هُنَّ نصيبُ المحظوظين من الأزواج، وأهلهنَّ أيضًا أناسٌ طيبون. يسمُّون أنفسهم «المتُّوكِّي» والناس تسميهم الكَنْـزي أو الكُنُوز.. متى سيكون لي كنـزٌ؟

أجاب في سرِّه عن سؤاله، مُطمئِنًا نفسه بأن الأمر ما عاد اليوم مستحيلًا، فقد كان النوب المتُّوكِّية لا يتزاوجون مع غيرهم، لأنهم كانوا يتحصَّنون في قُراهم المشرفة على النيل. ولكن، بعدما أُقيم السَّدُّ وغرقت الأرض والمنازل، اضطروا للانتقال إلى بلدة «كلابشه» الجديدة بالشمال الشرقي من أسوان، وإلى غيرها من الجهات التي جعلتها الحكومةُ عوضًا عن قُراهم الغارقة، لكن معظمهم هجرها لأنها بعيدة عن مجرى النيل. وهكذا تفرَّقوا في البلاد وخالطوا الآخرين، فصار من المستطاع الوصول إلى واحدةٍ من بناتهم. ولا بأس إذا كانت الفتاة من مواليد المدن البعيدة كالقاهرة أو الإسكندرية، فلا بد أنهم هناك أقلُّ استمساكًا بالعزلة التي كانت منيعة ومانعة، لكنهم مهما ابتعدوا بنسائهم فلن يفارقهن سحرهنَّ.

هناك أمل.

* * *

دوَّت صفَّاراته العالية أخيرًا، واستعدَّ ميدانُ المحطة لاستقبال القطار القادم بعد موعده بثلاث ساعات، فقام مسرعًا إلى الرصيف وبيده اللافتة المكتوب عليها اسم الدكتورة المشرفة على الرحلة. اعترض نهر الواصلين الفَرِحين، وبعد حينٍ أقبل الطلبةُ تحدوهم الحماسةُ فيتقافزون حوله، وهم يرددون الأغنية الشهيرة «لُقْصُر بلدنا بلد سوَّاح، فيها الأجانب تتفسَّح».. الأقصرُ بعيدةٌ عن هنا، لكنهم لا يميِّزون.

بعد هنيهةٍ من هرجٍ، هدأ الطلاب وانفسحت دائرتهم فدخلت الدكتورة «هداية» شبيهة الكرنب الملفوف، وهي تؤرجح جسمها القصير السمين. سألته بهمَّةٍ وهي تتلفَّت بوجه مليء باللحم اللامع بالعرق، إن كان هو المندوب؟ فقال من فَورِه: المندوب والمرشد، سأكون معكم في الأيام الثلاثة.

ـ أوكِّيه، وفين الباصّ؟

ـ واقف قُدَّام المحطة يا دكتورة، والفندق قريب من هنا.

خرجوا يحملون أكياسًا وحقائب بعضها كالزكائب، وساروا في طابورٍ طويل إلى الباص. عند بابه وقف مستبشرًا ينتظر صعودهم، بعد صَفِّ ما يحملون في بطن الباصِّ المفتوح. الساعة الآن الثانية عشرة والنصف، سيعلو بعد لحظاتٍ أذانُ الظهر. وسط الزحام التفتَ من دون قصدٍ، فرأى فتاةً منهم تعلِّق على كتفها حقيبةَ سفرٍ سوداء، لطيفةَ الحجم، لا تحتاج التركَ مع بقية الحقائب. وفي يدها اليمنى كتابٌ صغير الحجم، يغطي كفُّها عنوانه.

الفتاةُ رشيقةٌ، مكشوفةُ الشَّعْر، نادرةُ الملامح. لا شرقيةٌ ولا غربية. بشرتها الناعمة سمراءُ من غير سوء. لشعرها الغزير الطويل اسودادٌ قوي، ولعينيها الواسعتين لونٌ بديعٌ يتموَّج فيه الرماديُّ والأخضر. حيَّته في طريقها إلى سُلَّم الباصِّ بقولها «هاي» فرَدَّ من دون تردُّدٍ، بما استدعى إلى وجهها الابتسام: هاي ورحمته وبركاته.. ابتسامتُها ساحرة.

في طريقهم إلى الفندق القريب، أمسك الميكروفون وراح يُعيد على مسامعهم ما يحفظه: نحن الآن على الجانب الشرقي من النيل، إلى الشمال قليلًا من خزَّان أسوان، إذا نظرنا يمينًا فسوف نرى الجزر المليئة بالآثار والمحميات الطبيعية، وهذه الشوارع التي عن يسارنا تؤدي إلى سوق المدينة. فندق «أبوسمبل» هو المبنى القائم أمامنا على اليسار. سوف نبدأ برنامج الزيارات غدًا، في السابعة صباحًا، ويمكنكم اليوم الاستراحة من السفر..

ـ هو احنا جايين هنا نرتاح.

صاح بذلك واحدٌ من الطلبة المتحشِّرين بآخر الباصِّ، فأضحك الباقين وأهاج التوثُّبَ فيهم، والمرح. لم يرتبك، لاعتياده على تلك التعليقات، وأكمل كلامه بينما الباصُّ يقترب من الحديقة الفسيحة، الممتدة أمام الفندق ذي الأدوار السبعة المطلة على النيل.. سرت في الطلبة الحماسةُ وهم يستعدون للنزول، بينما أخذ هو يؤكد على الجميع: غدًا سنتحرك في السابعة بالضبط، سوف نزور خَزَّان أسوان والسَّدَّ العالي، وآثار معبد فِيلَة ومعبد كلابشه.. بصوتٍ خافت ولسانٍ طفولي، قالت السمراءُ ملوَّنةُ العينين:

ـ معبد كلابوش!

ارتبك لحظةً من دعابتها، غير المعتادة، ثم هَمَّ بالنـزول أمامهم وهو يعلن أمام الباصّ وسط صخب نزولهم، أنه سيبقى بمدخل الفندق ساعةً لمن أراد الاستفسار عن أي أمر، ولسوف يظل في البهو حتى يطمئن على استقرارهم في الغرف المخصَّصة: المشرفون على الرحلة لهم غرفٌ مفردة، والباقون سوف يسكنون الغرف المزدوجة.. الواسعة.. على مهلكم..

البـرُّ الغربـيُّ

بعد صعودهم إلى الغرف هَمَدَ الهرجُ، فسنحت له فرصة صلاة الظهر في زاوية البهو اليُمنى، حاضرًا، ولَّى وجهه إلى الحائط وظهره إلى جهة النيل، وأطال السجود في الركعة الأخيرة ولسانُ قلبه يلهج بالدعاء الأتم: رَبِّ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين.

قام من صلاته حامدًا ربه، وجلس قُبالة مكتب الاستقبال في موضعٍ ظاهرٍ، ليراه الآتون المستفسرون عن تفاصيل البرنامج والجولات. تمنَّى أن تكون ملوَّنة العينين أول الآتين، لكنَّ ساعةً مرَّت وعلا أذانُ العصر من مكبِّر المسجد القريب، من دون أن ينزل منهم أحدٌ. وهو يتهيَّأ للخروج رأى المشرفة البدينة تأتي مبتهجةً من سُلَّم الدور الأول، كأنها تتدحرجُ، بعدما اطمأنت على المطعم والآكلين. استوقفته، فجلس يُدلي إليها بالأهم من تفاصيل الرحلة، بينما يمرُّ بهما بعض الطالبات والطلاب متسائلين عن أقرب الطرق إلى السوق.

استأذنت منه المشرفةُ وصعدت إلى غرفتها، بعدما أخبرها بأن موظفي الاستقبال يعرفون موضع منـزله، إذا احتاجت إليه لأيِّ

أمر. شكرته مفارقةً ومضت، فبقي لحظةً حائرًا ثم خرج لأنه لم يجد جدوى من جلوسه وحيدًا.. مَرَّ في طريقه بدكان الأسماك فأخذ الورقة الملفوف فيها السمك المشوي، وأسرع السير ليلحق بالحاج بلال قبل دخوله غرفته للقيلولة. لا يكاد هذا الرجل الطيب يأكل إلا اللقيمات التي تأتيه، وهو لا يُعِدُّ أبدًا طعامًا لنفسه، ولا يعرف الجوع. ولا يعلِّل ذلك بأنه صار كبير السن وبأن جسمه نحيلٌ ضئيل، بل يقول إن الطعام ما عاد له طعمٌ في فمه. دخل الحوش من باب الصفيح المفتوح، فكان الحاجُّ بلال في الناحية اليمنى يحتمي بالظِّلِّ القليل للجدار القصير، وينظر بصمتٍ عميق إلى السِّلال المصفوفة تحت الشمس.

ـ السلام عليكم يا حاج، السمك سُخن ولذيذ، بسم الله..

أكل الحاجُّ بلال لقيماته، ولم يقم بعدها لنومه القصير. رآه حائرًا، وصامتًا، فسأله عما به. فأجاب بعبارته المعتادة: لا شيء يا ولدي.. أعاد عليه السؤال وهو يضع أمامه كوب الشاي، فقال الحاجُّ بلال بعد تردُّد إنه متحيرٌ في أحوال البشر. سكت لحظةً ثم أضاف: قضيتُ النهار أفكِّر في أحوال الحيوان، فتحيَّرت أكثر، حتى كدتُ أسهو عن صلاة العصر. الحيوانات كالناس، اختلفت طباعها. كنا نعرف الكلاب تطارد القطط كأنها ستفتك بها، فتفرُّ منها مذعورةً. واليوم أرى القطط تمرُّ بجانب الكلاب آمنةً. وقد كَفَّتْ هي الأخرى عن صيد الفئران، وصارت تنظر إليها من بعيد نظرةَ المندهش الشبعان. وكنت في صباي أرى كلاب النجوع تتجمَّع بهمَّةٍ، وهي تطارد الثعلب «أبو الحصين» لمسافاتٍ تطول، واليوم صارت كلاب النجوع تنظر إلى الثعالب من دون اكتراث. فكيف تغيَّرت الطباع، بعدما دامت مئات السنين؟

ـ يا عمَّ الحاج، ما علينا من القطط والثعالب. ربنا يعطيك الصحة ويطوِّل عمرك.

ـ يطوِّل تاني..

ـ وحِّد الله يا عم بلال، وادخلْ ارتاح لحدّ أذان المغرب.

قام الحاج بلال إلى غرفته وهو يردِّد الشهادة، ومضى بطيء الهمَّة والخطو حتى توارى خلف بابه المفتوح دومًا. ليس في غرفة الحاج بلال شيءٌ يُخشى فقدانه، أو يدعو لإغلاق الباب. الفقرُ قرينُ الأمان، والمسكنة تستجلب السكينة؛ ولذلك دعا النبي: اللهم أَحْيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين.. دار ذلك بخاطره بعدما انفرد في الحوش، فاستراح، واستلقى بملابسه على الدكة المجاورة للجدار ليغفو قليلًا في الهواء الجاري من فوقه؛ كيلا تفوته الصلاة إذا دخل غرفته واستغرق في النوم. انتبه على صوت الأذان، فقام من فوره إلى ميضأة الزاوية وتوضأ على عجل، وأدرك الصلاة مع الجماعة قليلة العدد وهو يسأل نفسه: لماذا تركه الحاجُّ بلال نائمًا، ولم يوقظه قبل الأذان؟ إنه الرفقُ والإشفاق؛ فالأُبوَّةُ في الحاجِّ بلال طبعٌ لن يتغيَّر.

* * *

في طريقه إلى الفندق استقبل نسمات المساء المفرحة، وهو يطالع وجوه المارَّة ولا يراها؛ لشرود خواطره. على غير عادته في الأمسيات، لم يلبس الجلباب الأبيض المريح. فقد يلقى مشرفة الرحلة أو بعض أعضائها، والأليق أن يروه في الملابس التي يتوقعون، مع أن الجلباب لو يعرفون هو الأنسبُ للأمسيات.

لم يصادف أحدًا منهم في حديقة الفندق، المتراصَّة فيها المقاعدُ حول الطاولات استعدادًا لاستقبال الزبائن. لمح ناحية اليمين المرشد العتيد «سهيل العوَّامي» يجلس وحيدًا في جلبابٍ باهرِ البياض، مكويٍّ. بيده مبسم الشيشة المزركش، وعلى طاولته زجاجةُ البيرة والكوبُ العامر، وطبقٌ فيه شرائح الخيار والجزر. ليس من الأدب أن يتجاهله، وليس من الواجب أن يجالس الذين يشربون، فقد أمره أبوه منذ الصِّغر بألا يجالس شاربي الخمور. لكن البيرة ليست خمرًا. وقد قرأ في الكتب أن المصريين القدماء الذين بنوا المعابد، وهم بالقطع أتقياء، كانوا يشربونها.

ـ السلامُ عليكم يا سهيل.

ـ سلام يا زول، اجلسْ.

سُهيل في الثلاثين من عمره، ويعمل في الإرشاد منذ الخامسة عشرة. لم يُتِمَّ تعليمًا لكنه يتكلَّم بأربع لغاتٍ لا يكتب منها حرفًا، ويعرف خبايا الأماكن وخفايا البشر. حسبما يُشيع دومًا عن نفسه. الناسُ هنا يتهامسون بأنه وثيق الصلة ببعض الكبار، ويتاجرُ سرًّا في الآثار؛ ولذلك ينفق دومًا من سَعَة. ومع أنه تزوَّج عدة مرات وعنده الآن زوجتان، لكنه لا يستحرم نكاح الأجنبيات.. لكنها قد تكون كلها محض أقاويل، والتقوُّل سهلٌ لأنه لا يكلِّف الناس شيئًا.. والله في نهاية الأمر غفورٌ ستَّار.

ـ أجيب لك بيرة؟

ـ لا، الكَاكُو لا أحلى.

ـ ماشي يا زول، براحتك.

الناسُ هنا تسمِّيه الزول، وهي لفظةٌ تعني في كلام أهل السودان «الرجل» بعضهم يصغِّرها للتدليل فيجعلها زويل. كأنهم يريدون دومًا أن يذكِّروه بأصله، أو لعلهم وجدوا أن اسمه شديد الشيوع، فأوجدوا له تسميةً تميِّزه.. جاءته زجاجة الكوكا مثلجةً، فأهمل الكوب وراح يعبُّ منها مستمتعًا بالمذاق الساحر، الحلال. سأله سُهيل العوَّامي عن أحواله فحمد الله، وسأله إن كان ينوي الاستقرار بأسوان فأكَّد، وسأله عن نية الزواج فتحيَّر في الإجابة. ضحك سهيل وهو يشير بمبسم الشيشة إلى الصبي ليأتي بحجرٍ آخر مليء بالمعسَّل، ثم التفت إليه وسأله عن عمره فقال: الصيف القادم أتمُّ الأربعة والعشرين.

ـ حلو، ده أحسن وقت للجواز. بس إذا كنت نويت، يبقى سيبك من جماعتك في السودان. منهم لله المفتريين، بيخرَّبوا بناتهم بموضوع الخياطة بعد الختان. حاجة تقرف.

ضايقه الكلامُ وأغرقه بالحرج، فتهيَّأ للقيام وقد غُصَّ قلبه بسبب هذا السُّخف المفاجئ، الصريح. أحسَّ سُهيل بأنه آذاه من حيث لا يريد، فاسترضاه بأن ألحَّ عليه في الجلوس وهو يمسك بمعصمه، ويستسمحه بقوله إنه لا يقصد شيئًا مسيئًا، وإن الناس جميعًا أهلٌ في نهاية الأمر، وإنه يحبه كأخٍ. استجاب متحرِّجًا وعاود الجلوس وعيناه متعلقتان بباب الفندق، عساه يلمح في لحظةٍ عينٍ ما يودُّ رؤيته. واستأنف سُهيل الكلام متكلِّفًا الجدية، فقال إنه صار من كثرة التجارب متسامحًا مع الناس، ثم عبَّ من الكوب الطويل قبل أن يضيف متلطِّفًا: وصرتُ أيضًا خبيرًا بأحوال البشر، خصوصًا النساء.

الخبرة بالمرأة هي أمتعُ الخبرات؛ لأن النساء أبدعُ ما في الكون. وأفظعُ ما فيه. عاود سُهيل العبَّ واستعاد تبسُّمه المعتاد وهو يقول مُتباهيًا، إنه يستطيع بلمحةٍ واحدة لعين أي امرأةٍ، أن يعرف نيَّاتها الخفية.. عندئذٍ تشجَّع وسأله عن النوبيات، فقال سُهيل وقد أشرقتْ ملامحه:

ـ دول تحفة يا زول.

تشجَّع أكثر وسأله متلعثمًا عما تختلف فيه الكنـزيات، المتوكِّيات، عن بقية النوبيات. فأزاح سهيل عن رأسه الطاقية وهو يقول بجديةٍ إنهن الأحسن بالطبع، وبالطبع مِلاح. ولأن المتوكية تستمسك بالخجل أمام الرجل، فهي الأشهى من بين النساء.. بدا سهيل كأنه يريد أن يستدرك، فقد شرد برهةً ثم أضاف: لكن اسمعْ، كل النساء على السرير سواء، وما عليك من الحكايات التي يردِّدها الناس، فهي تخاريف.

ـ برضه الكنـزيات تختلف يا سهيل، في الذوق.. والرقة.. والريحة الحلوة.

عاد سهيل بظهره إلى الوراء وهو ينفث في الهواء دخانًا كثيرًا، ثم مال نحوه كأنه سيبوح بسرٍّ خطيرٍ، لا يعرفه إلا رجلٌ قدير.. قال: أيُّ امرأة يمكن أن ترقَّ حين تحب، وتتطيَّب إذا أرادتْ. وهذه الأدهان والزيوت العطرية، أصلها من السودان، ومعروفة أيضًا عند نساء اليمن والخليج.. ثم هَزَّ سهيل رأسه وأضاف بنبرة الواثقين، أنه يعرف هذه العطور كلها وأسرار صُنعها.

سهيل شخصٌ طيبٌ لطيفُ الصحبة، لكن مشكلته تكمن في ظنِّه بأنه يعرف كل شيء، والذي يعتقد ذلك فهو في الغالب لا يعرف

شيئًا. حدَّث نفسه بذلك وهو ينظر في ساعته، مُظهرًا لسهيل دهشته من كونها الآن تعدَّت العاشرة، ولا بد له من العودة لأنه سوف يبدأ العمل في الغد مبكرًا.. تبادلا الابتسام وهما يتصافحان، ببراءةٍ، مثل طفلين يفترقان بعد يومٍ دراسيٍّ سعيد.

مَرَّ في طريقه بموظف الاستقبال وسأله عن أفراد الرحلة، فأخبره بأن معظمهم خرج إلى السوق من قبل المغرب، والبقية منهم نيامٌ في الغرف استعدادًا ليوم غدٍ. اغتمَّ وعاد مسرعًا إلى البيت، فدخل من فوره غرفته وأغلق خلفه الباب. ألقى نفسه على سريره البائس، واستسلم إلى نومٍ لم ينتبه منه إلا مع أذان الفجر. غيَّر ملابسه وخرج بعد الصلاة قاصدًا الفندق، وعندما وصل في تمام السادسة والنصف رأى المشرفةَ تجلس في البهو، منتفخة العينين، وحولها بعض الطالبات. كان الباصُ قد وصل قبله، ووقف قبالة الفندق ينتظر ابتداء اليوم السياحي الجديد.

* * *

تزايد ضوءُ النهار مع مجيء الطلبة في جماعاتٍ راحت تندسُّ تباعًا في آخر الباصِّ، وتتكدَّس هناك. رأى مع أحدهم طبلةً تُنذر بيومٍ صاخبٍ. ملوَّنة العينين أتت منفردةً وقد عصبت خلف رأسها شعرها، وارتدت بنطلونًا كُحليًّا ضيِّق الساقين، فوقه قميصٌ واسع الأكمام في لون السماء. في يدها قبعةٌ من الخوص الحامي للوجه من الشمس. لمح في وجهها انزعاجًا وآثار سُهد، فظنَّ ساعتها أنه أرقُ السفر أو قلق تغيير الفراش، ثم عرف السبب بعد أيام.

بعد أن تأكَّدت المشرفةُ من وجود الجميع في الباصِّ، أعطت

إشارةَ التحرُّك بثقة المعتاد على الخروج بالجماعات. كان بإمكانه تكرار الكلام المحفوظ، وهو جالسٌ على الكرسي المخصص للمرشدين، لكنه أمسك بالميكروفون وقام من مقعده كالمخلص في خدمة الإرشاد، بعدما حجب عينيه بالنظارة الشمسية كيلا تتحرَّج نظرته حين يتلفَّت. راح يقول بين دقات الطبلة الآتية من آخر الباصِّ، إن الذي يبدو أمامنا هناك هو خَزَّانُ أسوان، وهو السَّدُّ القديم الذي أقيم قبل السدِّ العالي بسنوات كثيرة: كان أول شخصٍ فكَّر في بناء سَدٍّ هنا، هو العلامة المعروف «ابن الهيثم» الذي عاش بمصر في زمان الحاكم بأمر الله، منذ ألف عام، لكنه وقتها لم يستطع تنفيذ الفكرة لضعف المقدرة وكثرة التكلفة. وفي أيام الخديوي عباس حلمي الثاني، بدأ بناء الخزان سنة ١٨٩٨.. وتم بناؤه بعد أربع سنوات.. من جرانيت..

ـ ميَّه ميَّه ميَّه، شباب اسكندرية.

تعالت حناجرهم بالأغنية وأهاجت الطبلةُ الجميع، فانقطع صوته عنهم، فوقف مكتفيًا بالنظر إليهم وأسنانه تلمع بالابتسام. مشرفة الرحلة تضحك وهي تتكلَّف الوقار. طالبٌ نحيفٌ قام يدور راقصًا في الممرِّ الضيق المؤدي إلى آخر الباص، بينما بعض الطالبات يتراقصن بتقليب الأكُفِّ وتحريك الأذرع وهنَّ جالسات، مثلما تفعل الراقصات المرسومات على جدران الآثار القديمة.. مع الصخب، سنحت له فرصة النظر ناحية ملوَّنة العينين فرآها تجلس في الصف الثالث عن يساره، بجوار الشباك، متناسيةً ما حولها باستغراقها في التحديق نحو صفحة النيل، وعلي وجهها الجميل مسحةُ حُزنٍ شفيفٍ.

ـ شِيكايّو شِيكايّو، سوَّاقنا مَفيش زَيُّو.

صار غناؤهم صراخًا صبيانيًا، وزاد الصخب عن الحدِّ المحتمل فعاد إلى كرسيِّه، بينما الباصُ يستدير يمينًا ليعبر بهم من فوق جسم الخزان، إلى الضفة الغربية من النيل حيث يبدأ الطريق القصير، الواصل بين الخزَّان والسَّد.. حين بدا لهم السَّدُّ العالي من بعيد، زعق أحدهم بأُغنيةٍ قديمة: «قُلنا هانِبني، وآدي احنا بنينا السد العالي».. ردَّد الآخرون من خلفه فبلغ الضجيجُ منتهاه، ولم يخفت إلا مع وصول الباصِّ عند حَدِّ السَّدِّ. ترجَّلوا ليروا البناء الهائل القاطع لمجرى النيل، الحابس من خلفه البحيرة، وعند المكان المسمَّى «رمز الصداقة» تفرَّقوا في مجموعاتٍ تناثرت متباعدة، وعلى وجوههم دهشةُ السائحين. المشرفةُ بقيتْ بقرب الباصِّ لأنها حسبما قالت، رأت المكان من قبلُ عدَّة مراتٍ. ملوَّنةُ العينين كانت تتجوَّل منفردةً بين المجموعات، ولما اقتربت منه سألها عن سبب ابتعادها عن بقية الزملاء، فقالت إنهم ليسوا زملاءها؛ فهي طالبة بكلية الآداب التي ألغت الرحلة هذا العام، فجاءت معهم لأنها تعرف الدكتورة المشرفة، فهي أختُ زميلةٍ لها. لما رآها تسترسلُ، تشجَّع فسألها عن سِرِّ حزنها الصباحيِّ، وهي التي كانت مساء الأمس تمزح. لم تصرِّح له بشيءٍ، وردَّت عليه باقتضاب: أبدًا، عادي يعني.

عاد بهم إلى الباصِّ بعدما أشار لهم من فوق السد، إلى معبد كلابشة القائم فوق جزيرة في الجهة الغربية من البحيرة، وأخبرهم بأن زيارته اختياريةٌ ولا تطول لأكثر من ساعة.. انقسمت الرحلة إلى نصفين، فكانت ملوَّنة العينين في النصف الذي أراد زيارة المعبد، لكنها هناك ظلت على انفرادها عن الآخرين والأُخريات. ليس في المعبد الكثير مما يُرى أو يقال عنه. شَرَحَ لهم بقَدْر ما صبروا على

الاستماع، وأشار إلى أن المعبد يسمَّى باسم القرية القديمة النوبية «كلابشه» التي كانت تبعد عن هنا خمسين كيلومترًا، لكنها صارت اليوم تحت البحيرة. ولإنقاذها نقلوا المعبد عام ١٩٧٠ إلى هذه الجزيرة، خشية الغرق.

اقتربت ملوَّنة العينين وقبَّعة الخوص على رأسها، وسألته إن كانوا قد نقلوا الآثار كلها، قبل انغمار الأرض بالماء بعد بناء السد. فقال إنهم نقلوا بقدر ما استطاعوا، وتحت هذا الماء آثارٌ كثيرة بعضها كان معروفًا، وبعضها لم يكن قد اكتُشِف.. اجتمعتِ الرحلةُ ثانيةً عند الباصّ، ليعود بهم من فوق الخزان إلى المرفأ الشرقي، ليركبوا القارب الذي يُقِلُّ الزوَّار إلى معبد فِيلَة البديع، القائم على جزيرة تحوطها مياه النيل المحصورة بين الخزان والسَّدِّ. أجانب كثيرون كانوا يزورون المعبد، برفقة مَهَرة المرشدين وأشهرهم في أسوان، فاجتهد في الشرح بقدر ما سمح به اهتمامُ الطلاب. بعدما اكتمل صعودهم الباصَّ، أخبرهم بأنه لم يبقَ من برنامج اليوم، إلا زيارة المسلَّة الناقصة. وقد أخطأ حين أضاف، بقصد المداعبة: إلا إذا أحببتم العودة للغداء في الفندق، إذا كنتم جوعانين. فما كاد ينطق بذلك، حتى أهاجهم الكلام فانطلقوا صائحين: جعانين.. جعانين..

تدخَّلت المشرفة لفضِّ صخبهم وتهدئة الهياج، بأن قامت بجهدٍ من مقعدها الأمامي واتكأت بكوعها على رأس الكرسي، وهي تقول لهم بنبرةٍ آمرةٍ: اسمعوا، مطعم الفندق لن يضع الغداء قبل الواحدة ظهرًا، وزيارة المسلَّة الناقصة مهمة لأنها توضِّح الطريقة التي كان

الفراعنة يصنعون بها المسلات.. سكت الطلبة على مضضٍ وهمهموا كأطفالٍ عضَّهم الجوع، بينما السائق يأخذ الباصَّ يمينًا إلى جهة المسلة الناقصة. وصلوا إليها بعد بضع دقائق. بقيتِ المشرفةُ على مقعدها بالباصِّ، واختصر هو الشرح بينما الأكثرية منهم لا ينصتون إليه باهتمام. ملونةُ العينين كانت مهتمة، وسألته قبل عودتهم إلى الباص عن مكانٍ تشتري منه الدّوم المجروش الجيد، والفول السوداني المحمَّص في الرمال. فقال من فوره: دكان الحاج «عمران العطار» في وسط السوق، البائع الذي هناك يعرفني جيدًا، ويمكنني الذهاب مع حضرتك..

ـ حضرتي ! أنا اسمي نورا.

ـ اسم جميل. طيب، نتقابل عند الفندق بعد أذان المغرب.

بعد ساعاتٍ ثلاثٍ بطيئات، قام من الصلاة متلهِّفًا فالتقاها عند الرصيف المحاذي للنيل، قبالة الفندق. رآها من بعيد وهو قادمٌ نحوها، وقد بدت مثل الفاتنات من بنات السودان وأسوان، لأنها ارتدت جلبابًا أسود تؤطِّر أطرافه خيوطٌ مذهَّبة، يُذهب العقلَ جمالهُا الوقورُ الهادئ. هي تشبه ميريت آمون. حيَّاها وانطلقا إلى الشوارع الخلفية المؤدية إلى السوق، وهو يشعر بأنه قد صار أطول وأجمل، لأنها صارت أرقَّ وأقرب. حمل الهواءُ إلى أنفه عطرًا ساحرًا كأنه الياسمين معتصَرًا كله، ولما سألها عن اسم عطرها أجابتْ مع نظرةٍ جانبيةٍ لم يفهم فحواها: بَرْفان اسمه أَنَايس.

أنوارُ السوق مبهجةٌ هذا المساء، والناسُ سعداء. عند دكان العطار همس بالمطلوب في أذن البائع النحيل الملتحي، فنصحه بالعودة بعد

ساعة لأن البضاعة الطازجة آتيةٌ في الطريق. أخبرها بما قاله البائع وسارا بين دكاكين السوق، متجاورَيْن، وقد صارت نسماتُ المساء أرقَّ لأنها عاودت ابتسام الأمس وأشرقت عيناها بالمرح من جديد. يناير أجمل الشهور في أسوان.

المحالُّ أمامهما تزهو كُلُّها بامتزاج الألوان والأضواء والناس، خصوصًا والسوق يمتلئ بكثيرٍ من السائحين السعداء. ونورا قريبة. بلغا آخر السوق بعدما توقفا كثيرًا، وتكلَّما أكثر، وقد غمره الفرحُ حين أخبرته بأنها تدرس علم الاجتماع، وأراد أن يعرِّفها بأنه أيضًا يدرسه، فسألها السؤال المعتاد بين الطلاب: مَنْ هو مؤسِّس ومخترع علم الاجتماع، ابن خلدون أم أوجست كونت؟.. قالت من دون أن تفكر: أبو حَبَاجَة.

- مين ده؟

- العلامة أبو حَبَاجَة، مخترع الدومينو والطاولة وعلم الاجتماع وحاجات كتير تانية..

ضَحِكا معًا ثم تحدثا بإفاضةٍ والتذاذ، وهما جالسان عند آخر طاولات المقهى الذي بآخر السوق، عن أوجست كونت وإميل دوركايم وكارل ماركس، وعن اختلاف المناهج المقرَّرة بين جامعتي الإسكندرية والخرطوم.. كأنهما أدركا فجأةً أن خيطًا كان يربط بينهما من قبل أن يلتقيا، والآن ظَهَر.. تكون بين الناس خيوطٌ تربطهم، لكنهم لا يرونها إلا في وقتٍ مخصوص، وقد لا يرونها أبدًا. في طريق العودة مرَّا بالعطَّار فوجداه قد أعدَّ المطلوب، لكنه رفض بحسم أن يأخذ الثمن، فقد اعتقد أنها إحدى قريباته لأنه لم يره قبلًا مع الزوَّار. ليتها تكون قريبته. شَكَرا

الرجل الطيب وعادا نحو الفندق متمهِّلَيْنِ، وعند بابه افترقا وقد قاربت الساعة منتصف الليل.

في غرفته، التصق بوجهه الابتسامُ وهو ينظر في جريد السقف، بفرحة الصغار ليلةَ العيد. راح يستعيد في سرِّه ما سمعه الليلةَ من كلامها، ويسترجع بسمتها المؤنسة، حتى أخذه نومٌ لذيذٌ هبَّ منه في الصباح الباكر. لبس أفضل ما لديه بعدما استحمَّ في الميضأة، وسار إلى الفندق كأن ساقيه قد صارتا جناحين. وصل قبل الباصّ، وقبل نزول أول النازلين، وعندما اجتمعوا كلهم حوله أخبرهم بأنهم سيقضون النهار بين محميَّات النيل، حيث يرون بين الجزر أجمل الطيور والمناظر الطبيعية، ويزورون آثارًا مهمة منها اللوحة المنقوش عليها قصة البقرات السبع العجاف، والسبع الأخرى السِّمان.

كان يومًا بديعًا، مَرَّ سريعًا من صُبحه إلى الغروب. لكنه لم يجد وسط الزحام فرصةً للكلام معها، ولم يستطع مقاومة خجله والاقتراب منها إلا في اللحظات التي سنحت، حين صعدوا لمشاهدة النقش المدهش الغريب. فوق التلة سألته عن اللوحة وزمن نقْشها، فقال إنها نقشت في بدايات العصر البطلمي.

- يعني قبل الإسلام بكتير.

- صحْ يا ست نورا، من أيام النبي يوسف. والقصة جَتْ في القرآن، يعني صحيحة.

- إزاي بس، وهوَّ سيدنا يوسف كان أيام البطالمة !

تزاحم الطلابُ لالتقاط صورهم بجوار اللوحة المرسوم عليها

الملك الجالس على عرشه، وأمامه الحكيم الذي يفسِّر له حُلم البقرات السبع، وحول الصورة كلامٌ كثير مكتوبٌ بحروف الطير القديمة. سألها إن كانت تريد صورةً هنا، فسألته عن سِرِّ الشَّقِّ الطُّوليِّ الحادِّ الذي يقسم اللوحةَ، والصخرةَ الكبيرةَ كلَّها، إلى نصفين؟ فقال يبدو أن مجرمين كانوا ينوون سرقتها ولكن المحاولة فشلت، فقالت: ألم يشبع هؤلاء بعدُ، بعدَ كل ما سرقوه؟

في اليوم الثالث أخذهم إلى معبد «أبو سمبل»، حيث يستعلن عصرُ الرعامسة ويتأكَّد المجدُ المصري القديم. دار بهم هناك على التفاصيل كلها وهم مُنهكون من طلوع التلَّة، ومن إجهاد اليومين السابقين، ومن الغناء الصاخب طيلة طريق الذهاب. في طريق الرجوع كانوا كلُّهم بالباصِّ نائمين. عند باب فندقهم أخبرهم بأن غدًا يومٌ مفتوح حتى الساعة السادسة مساءً، موعد مجيء الباصِّ ليأخذهم إلى المحطة، فالقطار يتحرَّك إلى الأقصر في السابعة. لا مجال لأيِّ تأخير. كانت نورا مُحاطةً بالطالبات والطلبة، فلم يجد مجالًا ليخبرها بأنه متفرِّغٌ طيلة نهار الغد، إذا أحبَّتْ أن يصحبها لأيِّ مكان.

وقف أمام الفندق ساعةً عساها أن تخرج لأيِّ أمر، فلم يرها. وفي العاشرة من صباح اليوم الأخير، عرف من موظف الاستقبال أنهم خرجوا جميعًا منذ الصباح الباكر للتجوال، عدا المشرفة بقيتْ في غرفتها. دار ملهوفًا على الشوارع كلِّها، والمقاهي والسوق وميدان المحطة وكورنيش النيل، وبعدما أعياه الدورانُ عاد إلى الفندق وجلس في البهو وحدَه. دخلت نورا في الرابعة عصرًا، وحدها، وفي يدها كتابٌ قالت إنها كانت جالسة عند الخزان تقرأ فيه.. كيف غفل عن الذهاب إلى هناك؟

اجتمعت الرحلةُ في السادسة استعدادًا للسفر والافتراق. على الرصيف ساعد الجميع على نقل الحقائب، ولم تكن نورا بحاجةٍ إلى مساعدة. كان هو الذي يحتاج مهدِّئًا لخفقان قلبه. لمعت عيناها عندما تَوادَعا بسرعة مستسلمينِ، بلا وعودٍ ولا أملٍ في لقاء.. وكيف يلتقيان، وهي تتجه شمالًا وهو مجذوبٌ للجنوب؟

* * *

كادت نورا تصير ذكري عابرة، تتوارى كالمشاعر المبهمة الغامضة التي تطمرها الأيام، ثم تبدو بعد حين وكأنها لم تحدث أصلًا. وقف ينظر إلى مؤخرة القطار الراحل بينما الحسرةُ تتموَّج فيه مع الحرقة، حتى إذا خلت المحطة من حوله وبدا وقوفه بلا معنى، تنهَّد وخرج من المحطة الخاوية وحيدًا كالتائهين. مضى بلا وجهةٍ يرضاها، حتى اجتذبه من حيرته ارتفاعُ أذان العشاء من مئذنة جامع النهر، القريب من حافة النيل. اصطفَّ مع المصلِّين، وأطال السجود في الركعة الأخيرة بقلب سائلٍ، ثم قام إلى الجانب الأيمن من الجامع ليصلِّي الشفع والوتر. من بعيدٍ رأى «عبد العال الأبنوبي» الشاب الصعيدي الذي كان يعمل معهم بالمكتب السياحي.

في أيامه الأولى بأسوان تعرَّف إلى «عبد العال» الذي كان يواظب على الصلاة بالزاوية الملتصق بها بيت الحاجِّ بلال، ومع الأيام صارا صديقين. وجد في عبد العال رجولةً وشهامةً أصيلة، فكان يميل إلى مجالسته كلما سنحت فرصةٌ بين الصلوات أو التقيا في الأمسيات، ومع الأيام عرف فيه الطيبة والتناقض. في عامه الأول بأسوان قال له عبد العال إنه يريد ادخار ألفيْ جنيه ليشتري بندقيةً

آلية يعود بها إلى أهله، ويعيش بينهم متفاخرًا. ففي قريته القريبة من «أبنوب» يتفاخر الناسُ بامتلاكهم الأسلحة، وفي ليالي الأعراس وأمسيات السهر في الجرون، يطلقون أعيرةً تزغرد في هواء الليل وتبدِّد سكونه.. وفي عامه الثاني بأسوان، حكى له عبد العال عن قريته القريبة من «أَبْنوب» القريبة بدورها من أسيوط، وعن فتاةٍ يحبها هناك. وصفها بأجمل كائنٍ في الكون، وكان يحب الكلام عنها كأنه بذلك يستحضرها في خياله. في الموسم التالي أخبره عبد العال وهو يتألم بأن الفتاة تزوَّجت، وصار جمالها منهلًا لابن عَمٍّ لها تفوح منه دومًا رائحة البصل. هكذا قال عبد العال، فَوَاساه بالكلام المعروف عن القِسمة والنصيب، وبالعبارات المعتادة التي يتأسَّى بها المحرومون والمهزومون. لكن عبد العال راحت أحواله تتبدَّل رويدًا، ويبس جسمه، حتى صار كأنه شخصٌ آخر. في الموسم الماضي كان يرفض الخروج مع السائحين، ويسمِّي التماثيل الأصنام، ويقول كلامًا غريبًا من نوع: لن نخدم الكُفَّار الفاسقين، السياحةُ حرام، لا حكم إلا لله.. طرده الخالُ حَمَدون من العمل، فاختفى من بعدها وانقطعت أخبارُه.

انتهى من صلاة النوافل، وفي طريق خروجه من الجامع لم يجد بأسًا في الجلوس حينًا مع عبد العال، والشاب الملتحي الجالس إلى جواره. حين اقترب منهما وهما يتهامسان، استغرب يبوسة عبد العال واستطالة لحيته، والسروال الأبيض الغريب الذي يلبسه تحت الجلباب القصير. ألقى السلام وجلس إليهما مستفسرًا عن الحال، متمنيًا أن يكون «عبد العال» قد عاد للعمل الذي هجره، فأجابه الشاب الذي معه: لن يعود بإذن الرحمن، فقد عافاه الله من المعاصي.. كانت

نبرته حادة، وكان عبد العال صامتًا يتلفَّت، وكان «إبراهيم المخبر» قادمًا من خلفهم وهو يقول:

ـ حمد الله على السلامة يا سي عبد العال، غيبة طويلة.

ـ وعليكم السلام يا عم إبراهيم.

ـ ابقى عدّي علينا بكرة الصبح في المكتب، عايزين ناخد منك كلمتين.

ـ إن شاء الله يا عم إبراهيم، إن شاء الله.

خرج المخبر من دون أداء الصلاة، فتابعه عبد العال وصاحبه بعيونهما، حتى غاب وراء الباب. ساد الجلسةَ السكونُ، فأحسَّ بأن عليه المغادرة لأنهما يريدان الانفراد، وهو أيضًا يريد أن ينفرد مع الليل والنيل. تهيَّأ للقيام مفارقًا لولا سأله عبد العال عن موعد عودته إلى السودان، فقال إن أمامه شهرين أو ثلاثة لأن امتحانه الجامعي الأخير سيكون في شهر مايو. أطرق عبد العال برهةً وهو مهمومٌ، ثم سأله عن الوقت الذي تستغرقه الباخرة «ساق النعام» من مرساها بقرب الحدود المصرية، حتى تصل إلى حلفا بشمال السودان. فأجابه بأنه نصف يوم. هَزَّ عبد العال رأسه راضيًا، ومسح على لحيته وهو يسأله عن الوقت الذي يستغرقه القطار، من حلفا إلى الخرطوم. فقال: يومان في العادة، لكنه قد يتعطل لساعاتٍ في عطبرة.. أدهشته غرابةُ الأسئلة، فاستفهم من عبد العال: هل تنوي الذهاب إلى السودان؟ وما سرُّ اهتمامك بطرق المواصلات؟ فأجابه بعد تلفُّتٍ بأنه ذاهب إلى الصومال عن طريق السودان،

ولسوف يتحرَّك إلى الحدود بعد قليل، ليلحق بالباخرة فجرًا هو وبعض الإخوة.

ـ الإخوة.. الصومال.. بتقول إيه يا عبد العال؟

ـ اسمع يا أخي، هذا نداءُ الجهاد لكل مسلم حُرّ يتقي الله.

ـ جهاد ضد مين يا عبد العال؟

ـ كلاب الأمريكان دنَّسوا الأرض الطاهرة، والإخوة في الصومال أعلنوا عليهم الجهاد والقتال في سبيل الله. ولو ربنا يوفقك، وتشاركنا الجهاد في سبيله.

ـ يا عبد العال، الجهاد الأكبر جهاد النفس.

ـ النفس. لا إله إلا الله. وإيه قيمة النفوس والأوطانُ مُستباحة؟ سبحان الله في أمرك يا أخي.

بدا عبد العال وصاحبه يثيران الريبة والوجل. جال بعينيه في زوايا الجامع الذي يستعد للإغلاق، ثم قام مسلِّمًا ومفارقًا إلى غير رجعة.. على طريق الكورنيش سار متفكِّرًا في الراحل إلى السودان ثم الصومال، والراحلة إلى الأقصر ثم الإسكندرية. وتنهَّد بحُرقةٍ حين أدرك أن الحياة رحيلٌ.

* * *

مَرَّ من أمام الفندق الذي كان عامرًا قبل ساعات بالبهجة، فلم يجد أحدًا من معارفه جالسًا عند حديقته، ولم يجد سببًا للرجوع إلى البيت فجلس وحيدًا على الكرسي الذي كان جالسًا عليه قبل يومين

مع سهيل العوامي. طلب زجاجة الكوكا، وهيَّم به الوجدُ في ذكريات الأيام الثلاثة الماضية، والأيام الأبعد، فتتالت على ذهنه بعد طلَّات نورا وجوهٌ رآها منذ الصغر، وفي الشباب المبكر. سأل نفسه عما سيفعله بعد التخرج، وتذكر فرصة العمل المتاحة في شركة «وادي العقيق» فطفر برأسه اللقاء الذي جرى في بداية الصيف الماضي.. كان سعيدًا بما جمعه من مالٍ رآه وفيرًا، بعدما انتهى الموسم السياحي الرائج مع نهاية الشهر الرابع من العام ١٩٩٢ أيامها، وَدَّع الحاج بلالًا وخرج من أسوان قاصدًا السودان وهو يشعر في سره بأنه قد صار رجلًا يعتمد على نفسه، ويعتمد الآخرون عليه. كانت المرة الأولى التي يسافر فيها من دون صحبة أبيه، ومن دون خوف. بعد يوميْ سفرٍ بالباخرة والقطار الكسيح، وصل منـزل أسرته ساعة الغروب فأسرع إليه إخوته عند الباب الخارجي. تحلَّقوا حوله وتعلَّقوا بذراعيه، وبالحقيبتين اللتين يعرفون أن بإحداهما الهدايا والملابس الجديدة، المجلوبة لهم من أسوان. كانت أمه تكلِّم أباه بخفوت مثل قدامى الأصدقاء، وهما جالسان في صالة البيت المفتوح عليها الغرفُ الأربعة. لحظة دخوله عليهما رأى أمه في منتصف الدكَّة اليمنى، تجلس في ثوب أخضر اللون كأنها شجرة تحتها عروش الخضروات، وأباه يجلس قبالتها كنخلةٍ مقوَّسة وعليه جلبابه الأبيض الحفيف، وليس على رأسه المكشوف إلا شعره الأشيب. تهلَّلت أمه حين رأته وفتحت ذراعيها فألقى بنفسه في حضنها العميم، ثم مال على وجه أبيه فقبَّل جانبيه ورأسه وعاد إلى الجلوس بجوارها.. الأمُّ أرض خضراء، والأبُ صحراوات شاسعة. أخرج الهدايا تباعًا، فتلقَّفها إخوته فرحين وحلَّق الرضا في سماء الصالة وانسرب إلى الغرف.

يومَها اطمأنت أمُّه عليه بنظراتها ولمسات أصابعها، وفرحتها بالولد البكريِّ الذي صار رجلًا، ثم راحت تحدِّثه بأخبارها بما استجدَّ، وأخبرته متفاخرةً بأن أباه صار يأتي بخرافٍ حيَّة من جهة الشمال، لشيخٍ في الخرطوم يقوم بإطعام المساكين.. استفسر من أبيه عن هذا العَمل الجديد، فقال الأبُ إنه ليس عملًا بل خدمة من دون مقابل، يبذلها لرجلٍ من السعوديين يعمل بالمقاولات، يذبح كل يوم خروفين للفقراء ويوزِّع عليهم لحومها من باب الصدقات. وقد رأى أبوه أن الواجب عليه إعانةُ هذا الرجل الخيِّر فيما يفعله؛ ابتغاء مرضاة الله وثوابه. ما كاد الأبُ ينهي الكلام حتى دعته أمه إلى الذهاب برفقة أبيه لمقابلة المقاول السعودي، لعله يجد عنده عملًا بعد التخرج بدلًا من غربته التي تكوي قلبها، كلما سافر إلى أسوان.

ظهيرة اليوم التالي أخبره أبوه أن الخراف الحية، الخمسين، سوف تأتي بها عرباتُ النقل عصرًا. وإذا شاء، يمكنه الذهاب معه إلى الخرطوم لتسليمها إلى المهندس السعودي، الشيخ، فسأل أباه مُبتسمًا إن كان الرجل مهندسًا أم شيخًا. فقال الأب: الاثنان، فهو يعمل بالمقاولات ويلقي دروسًا بالمسجد، ويقوم بمشروعات تطوعية وأعمال خيرية، وقد تبرع للبلاد بإنشاء طريق سريع يصلُ عطبرة بالخرطوم، طوله ثلاثمائة كيلو متر، ونفَّذه كله من ماله الخاص كأنه أوقف كل ما يملك لخير الناس والدعوة لدين الله، وهو متزوج من أربعةٍ كلُّهن يلقين دروسًا في الفقه على النساء في المساجد.. أضاف الأبُ: إذا أردت، ولم يكن عليك اليوم مذاكرة دروسٍ، فتعالَ معي.

لم يجد بأسًا في صحبة أبيه، فالامتحان بعد أسبوعين وليست لديه

لليوم خططٌ، إلا زيارة الشيخ «نقطة» وهو ما يمكن تأجيله للمساء. في الطريق من أم درمان إلى الخرطوم، توقفت السيارات طويلًا وسط سحابات الغبار الصيفي، والزحام الدائم على الكوبري الواصل بين ضفَّتي النيل الذي غاض ماؤه؛ استعدادًا للامتلاء من جديد مع ابتداء الفيضان. سأل أباه عن المكان الذي يقصدانه، فأجابه: حيّ الرياض بشرق الخرطوم، على طريق المطار. فضحك بأدبٍ وهو يقول لأبيه: طبعًا، السعوديُّ لازم يسكن بالخرطوم في حيِّ الرياض، فهو يحنُّ إلى عاصمة بلاده.. ثم سأل أباه:

ـ شنو اسم الزول؟

ـ أسامة بن لادن.

بعد ساعة سير وصلا إلى المربع التاسع بالضاحية الشرقية، حيث بيوت الناس فيلات ذات حدائق. أوقف أبوه السيارات المحمَّلة بالخراف في ظل أشجارٍ، وأخذه إلى الشارع الواسع المصفوفة على جانبيه سيارات الأغنياء. في منتصف الشارع منزل ذو طوابق ثلاثة، سوره المرتفع مُسَيَّجٌ أعلاه بالسلك الشائك، ومن أمامه رجالٌ مُسلَّحون مُلتحون وجماعةٌ من الرجال في جلابيبَ بيضٍ، يصطخبون وتتعالى بالكلام أصواتهم.. حين وصل عندهم خلف أبيه، رأى رجلًا يخرج للجمع من باب المنزل، يتقدَّمه حارسٌ مسلَّح.

الرجل طويلٌ نحيلٌ، ملتحٍ، على رأسه عقالٌ أسود تنسدل منه الفوطة البيضاء المزخرفة بالمربعات الحمراء، وفوق جلبابه البُنِّي الفاتح عباءة مؤطَّرة الحوافِّ بشريط يلمع ببريق الذهب. كُلُّ ما فيه يدلُّ على أنه سعوديٌّ. حين رآه الجمعُ المتنازعون سكتوا احترامًا،

وتقدَّم إليهم وقد قطَّب حاجبيه المقوَّسين، وراح يشير بأصابعه الطويلة مستنكرًا وهو يقول لهم بلهجةٍ غير معتادة: ليش الهرج، ليش؟

كانوا معاونين يعملون معه، ويختلفون فيما بينهم. تقدَّم إليه ثلاثةٌ منهم وراحوا يشتكون من أن جماعات من أهل الجنوب، غير المسلمين، يأتون مع الفقراء للحصول على نصيب من الخراف المذبوحة، ويُلِحُّون في الطلب كي يشاركوا مساكين المسلمين في رزقهم. استمع السعوديُّ لمعاونيه بإنصاتٍ، ثم قال بعبارة حاسمة سكت بعدها الجميع:

ـ ما يخالف، أعطوا الكل. ربنا قال: كُلًّا نُمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاءُ ربك محظورا.

تقدَّم إليه الأب وحيَّاهُ بسلام الإسلام، وأخبره بأن الخراف وصلت عند أول الشارع، فأرسل المهندسُ الشيخُ أحد معاونيه الكثيرين ليستلمها منه.. كاد يذهب مع أبيه، لولا أن الأب أخذه من يده وقدَّمه مفتخرًا إلى المهندس السعودي وهو يقول: هذا ابني البكري، طالب في الجامعة.

ابتسم له الشيخ أسامة وصافحه وهو ينظر إليه متفرِّسًا، ومرحِّبًا، ودعاه إلى البقاء حتى يعود أبوه إليهما بعد تسليم الخراف. وراء الباب كان رجلان آخران، مسلَّحان بالبنادق، يقفان تحت الشجرة العالية الواقفة بالجانب الأيمن من حديقة المنـزل. دخلا غرفةً واسعة مفروشةً بالوسائد والتكايا، وجلس أسامة بن لادن في مواجهة الباب، وانكمش هو على مقربة منه يتأمل ملامح المهندس السعودي، الشيخ.. وجهه طويل كأصابعه، ولحيته أيضًا طويلة ولم يخطَّ

فيها الشيبُ بعد، وفي قسماته سكينةٌ لا تستقيم مع وجود الرجال المسلَّحين خلف الباب. صوته هادئ خفيض، وفي عينيه حزنٌ دفين ونظراتُ شاعرٍ يتألم. حين انسدلت عن كتفيه العباءة المؤطَّرة بخيوط الذهب، بدا جسمه شديد النحول، وعمره أقل مما كان يبدو عليه. لعله يقارب الأربعين. هو أصغر سنًّا من المشايخ، وأكبر قدرًا من المهندسين والمقاولين، وألطف من غالبية الأغنياء.

سأله أسامة بن لادن عن دراسته بعدما دعا إليهما بمشروبٍ بارد، فأجابه متحفظًا بأنه يدرس السوسيولوجيا، يعني علم الاجتماع. فابتسم برفق وسأله مجددًا إن كان يحفظ القرآن، فأجاب بالإيجاب.. دخل الخادم الطويل بصينية عليها إبريقٌ مملوءٌ وأكواب، وضعها على الأرض أمام صاحب البيت، الذي راح بهدوءٍ يصبُّ لضيفه العصير في الكوب. استحى منه وتزحَّف مقتربًا من الصينية وهو يقول متحرِّجًا: العفو يا شيخنا.. فجاوبه الشيخُ بصوته الرقيق: لا بأس يا أخي، أنت ضيف والواجب شرعًا خدمتك، وأبوك رجلٌ مبارك يخدمنا لله احتسابًا.. أراد أن يشكره، ويؤكد له حفظه للقرآن، فقرأ الآية ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ ثم قال بعدها: كانوا مكرمين يا شيخنا؛ لأنه خدمهم بنفسه.

أثار ردُّه القرآني إعجابًا بدا في عيني الشيخ أسامة، وأكَّدته ابتسامةٌ، فتشجَّع وسأله عن كثرة الحراس المسلَّحين بالمنزل، مع أن هذه الضاحية هادئة آمنة.. بدا السؤال طفوليًّا، ومتطفِّلًا، لكن أسامة بن لادن من دون ضيق أجاب عليه بقوله إنه اعتاد على ذلك، منذ أيام الجهاد في أفغانستان. سكت برهةً، وحسا من زجاجة مائه رشفات

ثم أضاف وهو ينظر إلى البعيد: كنا أيامها نساعد المجاهدين، حتى وفَّقهم الرحمن بفضله، وأخرجوا كُفَّار الروس من بلاد الإسلام.

ـ لكن الأمريكان يا شيخنا، دخلوا بلاد العرب..

ـ سيخرجون منها بإذن الله مذمومين، مدحورين.

دخل أبوه عليهما وجلس على وسادةٍ قريبة، فصبَّ له الشيخُ مشروبًا ثم أعطاه نقودًا ورقيةً كثيرةً نظر فيها الأب وهو يقول: هذا مالٌ كثير! فقال له الشيخ أسامة إنه يريد منه أن يجلب الأسبوع القادم من الخراف، ثلاثة أضعاف؛ ليذبحوا للفقراء منها كل يوم خمسةً، لا اثنين. ثم نظر إلى زاوية الجدار بعينيْ بكَّاءٍ، ورفع إلى فمه الماء قبل أن يقول بلسان الحزن: سوف نُسأل يوم القيامة عن تقصيرنا، ولن يجيرنا من الله أحدٌ.. تعهَّد الأبُ بإحضار المزيد من الخراف، ودعا لأسامة بن لادن بالمثوبة ثم سأله عن سبب توزيع الهبات على الجنوبيين وهم غير مسلمين، ومن ثمَّ فهم غير مستحقين، فردَّ عليه بأن الحديث الشريف قال «الخلقُ عيالُ الله» ولم يقصر الأمر على المسلمين، وعن الشيخ عبد القادر أنه قال: أعطِ مَنْ يستحق ومَنْ لا يستحق، يعطِك الله ما تستحق وما لا تستحق..

جاءهم صوتُ المؤذن فقاموا لصلاة المغرب خلف الشيخ أسامة، ثم استأذن الأبُ في الانصراف بعدما أكَّد أنه سيأتي بالخراف بعد أسبوع، قبل سفره إلى «سنَّار» من أجل تجارته، فدعا له أسامة بن لادن بالتوفيق، وتوادعا.. قام مسلِّمًا وخرج خلف أبيه، وفي طريق العودة سأله عن المزيد من أخبار هذا الشيخ السعودي، ومنزله المحروس بالأسلحة، فقال الأب إن واحدًا من الحراس السابقين الذين جاءوا مع

الشيخ أسامة إلى السودان من بلاد الأفغان، انشقَّ عليه مؤخَّرًا وصار شيخًا لجماعة التفت حوله. وقد أفتى لهم بأن أسامة بن لادن كافرٌ، ودمه حلال شرعًا، لأنه لم يعد ينفق ماله على أهل الجهاد. ولذلك وجب الحذر والحرص وكثرة الحرس. استغرب الكلام، واستزاد أباه بأن سأله عن هذا الرجل المنشقّ، هل هو سعوديٌّ أيضًا؟ فقال الأب: لا، أصله من ليبيا واسمه محمد الخليفي.

لماذا انقطع الصيفَ الماضي عن زيارة الشيخ أسامة مجدَّدًا، وحضور دروسه في المسجد؟ لعل السببِ هو إشارة الشيخ «نقطة» فقد أخبره ليلتها بأمر الزيارة، فنظر الشيخُ في عينيه وتلا عليه بلسان الكشف ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ وراح يكرر الآية طيلة المجلس. ربما كان الشيخ نقطة لا يقصد شيئًا، وربما كان يقصد، لأنه كان يسكتُ ويشيح بوجهه كلما سمع بهيئة «النصيحة والإصلاح» التي يرأسها أسامة بن لادن، ولم يكن يحب سماع شيء عن أتباعه أو معارضيه، كليهما. لا بأس، سوف يسأل الشيخ في الزيارة القادمة سؤالًا صريحًا، إنْ كان من الصواب أن يعمل بعد تخرجه في شركة «وادي العقيق» التي يملكها الشيخ أسامة بن لادن، أم يصرف عن ذلك النظر؟ فقد يجد عند الشيخ «نقطة» جوابًا.. وإذا لم يجد.. المستقبل بيدِ الله.. وقد يكون.. لماذا رحلت نورا قبل الأوان؟

* * *

توقف دوران الذكريات في رأسه، وقد تعدَّت الساعةُ منتصف الليل، وباتت حديقة الفندق شبه خاوية. لم يأتِ «سهيل» الليلة، ولن

تعود التي رحلت إلى الأقصر، ولن يجلس هنا وحده في الصباح.. قام بطيء الخطو ليعود إلى البيت، وبدا له قبل المغادرة أن يدخل إلى بهو الفندق، لإلقاء التحية على العاملين بالنَّوبة المسائية. أمام مكتب الاستقبال أخبره الموظف المناوب «طارق» بأمرٍ يبدو للوهلة الأولى تافهًا، وهو في حقيقة الأمر خطير. قال إن الدكتورة المشرفة على الرحلة نسيتْ ساعةَ يدها في الغرفة، وقد اتصلوا بفندق «حورس» في الأقصر، ليخبروها حين تصلهم، هي ساعةٌ رخيصة على كل حال..

ـ صُدفة غريبة يا أستاذ طارق، أنا رايحُ بكرة الأقصر وممكن أعطيها الساعة هناك.

أعطاه الموظف ساعة اليد فطار بها إلى البيت، وهو ينوي الأمر المهم. هو لم يذهب إلى الأقصر من قبل ولم يشاهد آثارها العظيمة، وهذا لا يجوز. لا يجوز أن يترك أسوان في إجازة منتصف العام الدراسيِّ والرحلاتُ تتوافد، لكنه سيعود بسرعةٍ. بسرعة وصل البيت، وأغلق عليه باب حجرته وأزاح السرير. السرير تحته كيسُ المال المخبوء، وألواحه الخشبية سوف تفرد البنطلون إذا وضعه تحت المرتبة حتى الصباح. الصباح لا تتحرك فيه قطارات إلى الأقصر، ولكن المتعجِّل سيجد سيارات البيجو. البيجو أجمل ما قدمته فرنسا للناس في العالم.. العالم يبتسم له.. وقلبه أيضًا يبتسم.. وشفتاه.

في العاشرة صباحًا وصل الأقصر، وفي فندق «حورس» القائم على النيل خلف معبد الأقصر الشهير، أخبروه بأن الرحلة تحركت مبكرًا إلى البرِّ الغربي لزيارة الدير البحري ومعبد حتشبسوت. عليه الآن إيجاد أسرع السُّبل للعبور إلى البر الغربي، فلا يعقل أن يبقى

هنا منتظرًا عودتهم في المساء. عَبَر النيل بالمعديَّة وركب مع باصٍّ سياحيٍّ كان يقف في الضفة الغربية، بعدما أخبر السائق بأنه مرشد سياحي ولديه أمانة يريد توصيلها.

في الطريق توقف الباصُّ دقائق مرَّت عليه كالساعات، عند تمثاليْ «ممنون» الكبيرين، الوحيدين، الجالسين بين الزروع على يمين الطريق. ليسا وحيدين؛ فكلاهما يؤنسُ الآخر. أخيرًا وصل عند مدخل الدير البحري الذي لم يكن يومًا محلًا لرهبانٍ. سوف يكون محلًا للويل بعد ثلاث سنوات. وجد هناك السياراتِ الكثيرة، والسائحين المتحلِّقين حول دكاكين التذكارات والهدايا، فسار في الطريق الطويل المزدحم المؤدي إلى المعبد العريض الأنيق، ذي الطابقين المنحوتين في حضن الجبل المحيط.. سار مُسرعَ الخطى، وهو يتفحَّص الوجوه من حوله، آملًا أن يرى من فوره ما يريد.

خفق قلبه فرحًا حين رأى على مقعدٍ بالجهة اليسرى، الدكتورة هداية وإلى جوارها نورا. كانتا جالستين وحدهما في الظل تتحدَّثان. أعطى ساعة اليد لصاحبتها فشكرته بلسان الفرح، وبعينين دامعتين قالت إنها لامت نفسها كثيرًا على نسيان هدية المرحوم، وبعينين واعدتين قالت نورا إنها لم تدخل المعبد بعدُ، فذهب معها لزيارته. أصابع قدم الدكتورة متورِّمة، وقد زارت المعبد من قبلُ مرات. عند أعمدة المعبد سألته نورا عن سِرِّ قدومه، وهل جاء لإعادة ساعة اليد فحسب. فردَّ من فوره بأنه جاء كي يراها من جديد.

لم تخفِ عنه ابتسامتها، لكنها سرعان ما استمسكت وهي تسأله إن كان يأتي دومًا إلى الأقصر. فأجاب بأنها المرة الأولى، ولولاها ما كانت.

قالت غيرَ غاضبةٍ إنه جريءٌ، فقال غيرَ عابئ إنه يتجرّأ للمرة الأولى، وربما تكون الأخيرة. أضاف وكأنه محبٌّ خبيرٌ، يعرف دروب العشق ويتقن كلامه المحلّى بعسل القلب: بصراحة، لا أدري كيف تغيَّرتُ منذ رأيتك، وصار كلُّ ما فيكِ يجذبني إليك، كأني قطعةٌ منك كانت منـزوعة. بدلالٍ غير معهودٍ، قالت له إنها تنجذب أيضًا إلى شيءٍ فيه، فسألها من فوره في فورة ابتهاجه عن هذا الشيء، ما هو؟

ـ شعرك المفلفل.

ها هي قد عادت تمزح بمرح، مثلما رآها أولَ مرةٍ. بدايةٌ طيبة. أمضيا اليوم بطوله معًا ودارا في الأنحاء، وزارا مقابر وادي الملوك، وفي آخر اليوم تواعدا على اللقاء في اليوم التالي، عند طريق الكِباش، فالرحلة سوف تزور الكرنك غدًا. لمحتْ في عينيه حيرةً فسألته عن الخبر، فقال إن قميصه تغبَّر مع التنقُّل، وهو لم يحضر معه إلا ما يلبسه الآن، ولسوف يوصلها إلى الفندق ثم يذهب إلى ميدان المحطة ليشتري من أحد المحالِّ هناك قميصين، لغدٍ وبعد غد. فرحت نورا بأنه سيبقى ليومين، ثم قطبتْ حاجبيها وهي تدعوه بمودةٍ لأن يختار ألوانًا فاتحة مفرحة؛ لأنها منذ رأته، رأته في ثياب غامقة اللون. ثم استدركت قائلة إنها ستأتي معه لتختار له.

خفق قلبه فرحًا وراحا يسيران متجاورَيْنِ كأنهما يطيران، وعند أول محلٍّ صادفاه اختارت له قميصًا أصفر اللون فاقعًا، يسرُّ الناظرين، فيه خطوطٌ طوليةٌ سوداء. أعجبه اختيارها فأراد مما اختارته قميصين، لليومين، ساومت نورا البائع حتى استقر الأمر عند ثمنٍ بخسٍ. جنيهات معدودة. فور خروجهما من عند البائع إلى الشارع، هَزَّ

لها رأسه موافقًا حين نبَّهته إلى ارتداء بنطلون أسود مع كل قميص، فيكون شكله أجمل. تفاصح عليها بقوله إن الرجل شكله غير مهم، فردَّت من فورها: لأ.. مهم.

ـ خلاص يا نورا، مهم جدًّا..

ـ أيوه كده، خليك حلو علشان أحبك.

ـ يا سلام، دا يبقى يوم المنى.

* * *

في الصباح التالي صحا من نومه مع شروق الشمس، مبتهجًا من حُلمٍ رآه. هو ونورا في قارب يطفو على صفحة البحيرة، والأفق البعيد مزخَرفٌ بأقمار كثيرة، وشموس وليدة. خرج مبكرًا إلى الكرنك، فوصل هناك قبلهم في قميصه الجديد، ولم يجد مع الزحام صعوبة في الانفراد بها. تجوَّلا بين أعمدة الكرنك الراسخة وهما يتهامسان بالكلام الناعم البديع، وقد بدت لهما الحياةُ مانحةً من الفرح الكثير. وفي المساء التقيا على طريق الكورنيش العامر بالعابرين، ومَشَيا طويلًا ثم جلسا على مقعدٍ يحاذي النيل. مَرَّ بهما أربعةٌ من رفقاء رحلتها، فتاةٌ وشبابٌ ثلاثة. الشابُّ الذي كان يرقص في الباصّ، طوَّح ذراعيه في الهواء حين رآهما، وصاح من خلفهما مازحًا: إيه الإرشاد المسائي الجامد ده..

ضحك الطلابُ ومرّوا، وابتسمتْ هي من غير اضطرابٍ كهذا الذي غطّاه. «إنت خجول جدًّا». قالت ذلك كأنها تمدحه، فجاوبها بأنه لم يجالس فتاةً على انفرادٍ من قبل، ولم يعتقد أنه سيفعل ذلك

يومًا.. سألته عن أسرته وعن أمه، فأجابها أولًا بإيجازٍ، ولمَّا رآها مهتمةً حكى لها عن أم درمان وازدحامها وقت الظهيرة، وسكون أهلها بعد الغروب، وعن الشيخ «نقطة الأكبريّ» الذي علَّمه تلاوة القرآن. استغربت نورًا اسم الشيخ وسألته عن معناه وهي تبتسم بأسلوبها الساحر، فأخبرها بأنه وليٌّ من أولياء الله. كان في أول أمره يسيح في الأرض، حافيًا، ويصيح بين الناس في الأسواق وهو يشقُّ ملابسه، قائلًا: أنا نقطةُ البا. فأسماه الناسُ «نقطة» وكان ذلك يسعده ويرضيه. ثم تزايد مع الأيام انجذابه، وصراخه في الهواء، فاشتكاه بعضهم إلى شيخه «همَّام الأكبريّ» رحمه الله، فأرسل إلى مُريده القديم بورقةٍ مكتوبٍ على وجهها: غلبك الحالُ، فماذا تريد؟ فكتب الشيخ نقطة لشيخه الأكبريِّ، على ظهر الورقة: أُريدُ ألا أُريد.. ليلتَها، نهشه ثعبان فتورَّمت من يومها ساقه اليسرى، ولم يعد قادرًا على المشي الكثير ولا الوقوف، واعتكف في زاويةٍ قريبة، وصار يعلِّم الصبيان القرآن ولا يتكلَّم إلا بآياته أو بعبارات الأولياء، وفي الليالي يقيم الأذكار بالمجلس. وصار يتكلم على خواطر الناس وخفايا نفوسهم، فازداد اعتقادهم في صلاحه وأصبحت له مكانةٌ في نفوس الطيبين، وصاروا يحكون عنه الكرامات.

ـ كده «نقطة» وعرفناها، طيب إيه بَأَه معنى «أكبري»؟

ـ أظن ليها علاقة بواحد من الأولياء، اسمه الشيخ الأكبر ابن عربي.

أدار الكلام إلى وجهةٍ أخرى بأن سألها عنها، فقالت إنها بلغت من عمرها الحادية والعشرين، وتريد بعد التخرج أن تعمل بالصحافة. ملامحها التي اجتذبته تجمع بين سُمرة أبيها وعيون أمها، أسرتها

تسكن في الإسكندرية بحيٍّ شعبيٍّ اسمه «كرموس» والناس هناك ينطقونه كرموز. أبوها من أصول ريفية لكنه مولود في الإسكندرية، كان يعمل ميكانيكي آلات بشركة الغزل بمحرم بك، لكنهم أحالوه إلى المعاش براتبٍ كامل، بعد إصابة عملٍ وقعت له قبل خمس سنين طارت معها أصابع يده اليسرى. هو صديقٌ لها وهي ابنته الوحيدة. يقضي نهاره في لعب الدومينو مع أصحابه، في المقهى المفتوح على ميدان البياصة. سكتتْ لحظةً ثم أضافت: بياصة كلمة إيطالية، أصلها «بياتسا»ومعناها الميدان.. اشترى من البائع المارِّ قطعتين من خبز «السميط» وعبر الشارع مسرعًا ليأتي لهما بزجاجتي الكولا. لا يوجد في الحياة ما هو ألذُّ من شراب الكوكا وشباك السميط، في المساء، خصوصًا على رصيف الأقصر المحصور بين المعبد والنيل. لا سبيل لإدراك ذلك إلا بقُرب نورا. رأى نفسه كطائرٍ أتى مهاجرًا، وحين حَطَّ اكتشف عُشًّا مريحًا كان يتمناه بعد طول معاناة.

هو الطائرُ ونورا عُشُّه الآمن.

اقتربتِ الساعةُ من العاشرة، ولا بد لها من الرجوع الآن إلى الفندق القريب، والمرور قبل صعودها الغرفة على الدكتورة هداية. هي أستاذةٌ طيبةٌ متفهِّمة، لكنه لا يجوز إغضابها بالتأخُّر ليلًا، لا سيما وقد انفصلا طيلة اليوم عن الرحلة، في أثناء زيارة معبد الكرنك. وافق على عودتها، على مَضَض، ورافقها إلى باب الفندق. قبل وصولهما إلى هناك، دهمته فكرةٌ بديعة وافقته عليها: ما دام غَدٌ هو اليوم الأخير المفتوح، فليذهبا في الصباح الباكر إلى البرِّ الغربي، ثانيةً، فيكونا بعيدَيْنِ عن أفراد الرحلة.

في السابعة صباحًا عبرت بهما المعديةُ النيل، مع عدد قليل من الناس والسائحين، وأخذتهما سيارةٌ إلى المعبد المحاط بالجبال. في الطريق التفتَ إلى تمثاليْ ممنون، فأحسَّ أنهما بين الزروع يبتهجان بانفرادهما. وصلا عند المعبد الخالي في هذا الصباح الباكر، مع رحلةٍ من كلية الفنون الجميلة، سارع طلابها والطالبات إلى إخراج الكراسات العريضة وأقلام الرَّصاص، وراح كُلٌّ منهم يرسم جانبًا من الجبال المحيطة والآثار التي في حضنها، ومن ناحية النيل أطلَّت عليهم شمسٌ حنون.

متجاورَيْنِ جلسا على المنحدر العريض، الصاعد للدور الأعلى بالمعبد الحصين بالجبال. استغربت نورا أن إحدى الملكات القديمات قدرت على بناء معبدٍ هائلٍ كهذا، بالحفر في قلب الجبال. فقال لها إن نساء ذاك الزمان البعيد، ملكات وغير ملكات، كُنَّ قادرات على ذلك وعلى غيره الكثير. لأن مصر كانت قديمًا تحترم المرأة وتقدِّس النساء؛ باعتبارهنَّ صورة الإلهة الكبرى إيزيس، رمز الأنوثة والأمومة.

سألها عن صديقتها الأقرب، فقالت إن اسمها «أمل» وهي تناديها «أمُّولة العَسُّولة» لأنها طيبة جدًّا، ومُخلصة. كانت زميلتها لسنواتٍ طوال بالمدرسة، لكنها لم تدخل معها الجامعة بسبب المجموع، وظلَّت منذ ذاك الحين تنتظر العريس الذي لم يأتِ بعدُ. كانت نورا تحكي عن صديقتها وعيناها البديعتان تبتسمان، فلما سألها عن أمها أسرعتْ إلى وجهها مسحةٌ من الحزن، وشردت عنه لحظةً وكادت عيناها تدمعان. تأسَّف في قلبه، وقال لها متحسِّرًا إنه لم يقصد مضايقتها، وليس عليها الإجابة عما سأل. فقالت إنه لا بأس من

السؤال، لكنها فوجئت به فتذكَّرت كثيرًا من الأشياء دفعةً، وهذا ليس ذنبه. ثم قصَّت عليه القصص: المرحومةُ كانت أصلًا من المنصورة، وهناك رآها أبي أيام كان يتدرَّب في شركة المحلة الكبرى، وأحبَّها. تزوَّجها وجاء بها إلى الإسكندرية، فعاشا معًا ثلاث سنوات وعشرة أشهر. بعد غدٍ تحلُّ ذكراها السنوية، ففي اليوم الثامن عشر من يناير سنة ١٩٧٥ ماتت أمي في حادثة قطار.. كنتُ آنذاك في الثالثة من عمري، وذهبتْ أمي إلى دمياط للتعزية في عَمِّها الذي كان مقيمًا هناك. تركتني مع أبي ليلةً واحدةً، صارت العمرَ كلَّه. فقد عادت أمي بالقطار القادم من دمياط إلى القاهرة، لتركب القطار الآتي من هناك إلى الإسكندرية، وعند بلدة اسمها «قليوب» انقلب القطار في العاشرة صباحًا، فماتت مع كثيرٍ من الركاب، وأُصيب منهم كثيرون. بعدها بعامين تزوَّج أبي «طنط توحة» فصارت لي كنصفِ أم، لأنها لم تنجب. هي امرأةٌ حادة الطبع وغير حنون، تعتني بنفسها ولا تهتم كثيرًا بالآخرين، ويعذِّبها اقترابها من الأربعين فتُسرف في صباغة شعرها والتزيُّن بالمساحيق.

عُمر أبيها الآن يقترب من الخامسة والخمسين، لكنه يبدو حزينًا كمن بلغ السبعين. يهمس لها دومًا بأنها تذكِّره بأمها، ولذلك يخاف عليها كثيرًا ويقلق. ولولا أن الدكتورة هداية تعهدت برعايتها، ما كان ليسمح باشتراكها في هذه الرحلة، لأنه يخشى عليها من ركوب القطارات. زوجته تستغل قلقه، وتسعى لتزويجها مبكرًا من رجلٍ ليبيٍّ.

- ليبي.. ليه ؟

ـ لأنه غني، وأمه قريبة أمها، ودايما يجيب هدايا.

اسمه غريب؛ مفتاح مفتاح المبروك، لكنها تسمِّيه «الزفت» لأنه لزجٌ لحوح. هي لا تحبه ولا تقبل هداياه، لأنها لا تريد الزواج من رجل تعدَّى الأربعين. ابتسمت باستخفافٍ وهي تقول إن هذا الزفت، يزعم منذ سنوات أنه في السابعة والثلاثين. كأنه لا يكبر. وهو يؤكِّد دومًا أنه تعيسٌ مع زوجته الليبية ويصفها بالقُبح والشراسة، ويودُّ تطليقها لولا أن لديه منها ولدًا وابنتين. يقول لنورا بكل برودٍ إنه يريدُ زواجها لأنه يحب مصر، وإذا وافقت فسوف يشتري لها شقة واسعة، ويكتبها باسمها يوم كتابة العقد. لكنها لن تتزوجه مهما فعل.. ولن يجبرها أبوها..

ـ بس واضح الراجل ده مُصرّ عليكي؟

ـ مُصرّ جدًّا، أصله عبيط. ده عمَّال يقول إنه بيحبني من عشر سنين، يعني لما كنت لسَّه عَيِّلة بتلعب. وبعدين ده فظيع. هُدُومه عبيطة كلها، مشجَّرة وفاقعة، وبيصبغ شعره بلون ورنيش الجِزَم. والمهم إنه فاكر نفسه وسيم، وماحصلش.

أزعجه الكلام وأراد أن يبعد عنهما شبح الرجل الليبي، المريع، فقال لنورا إن الشمس قد اشتد حَرُّها وعليهما الآن القيام إلى الغداء. وضعتْ على رأسها قُبَّعة الخوص، وقامت معه برشاقة نفرة الغزال. نفضا التراب العالق، وسارا في الطريق الواسع وهو مرتاحٌ لأنها كفَّت عن البوح بالمزعجات. لكنه لم يستطع مقاومة القلق فسألها مجدَّدًا، عن هذا الغريم الليبيّ، وعن وظيفته. فقالت إنه لا يصرِّح لأحدٍ بالكثير، وإذا سُئل عن عمله أجاب بأنه عضو باللجان الشعبية.

هو يأتي إلى الإسكندرية كل شهرين أو ثلاثة، فيقيم أسبوعًا أو اثنين لأداء بعض الأعمال. ولا أحد يعرف بالضبط ما الأعمال التي يأتي إليها؟ في ليلتها الأولى بأسوان اتصلت بالبيت كي تُطمئِن أباها على وصول الرحلة، فأخبرتها زوجة أبيها بأن «مفتاح» يزورهم، ويريد أن يكلِّمها للاطمئنان عليها. ثم أعطته التليفون من فورها، فقال لها ببروده المعهود إنه سيبقى بالإسكندرية منتظرًا حتى تعود، ولن يسافر قبل أن يراها، فأصابها من كلامه الغَمُّ.. قطعتْ كلامها بسؤالها:

- طوِّلتْ عليك؟

- أبدًا. بالعكس، أنا نفسي أعرف عنك كل حاجة.

- كل حاجة كده مرة واحدة!

- نفسي كمان أشوفك كل يوم.. كل يوم.

- يبقى لازم تيجي إسكندرية.

عادا من البرِّ الغربي عند الغروب، كأنهما عاشقان التقيا قبل سنوات طوال. في الدقائق التي عبرا فيها النيل كانا يتكلَّمان بنظرات الاشتياق والوجل، والحب والخجل، والوعود والآمال الحالمة بدوام القرب إلى آخر الأجل.. جلسا قريبًا من فندقها، وراح نهر الكلام يشقُّ بين القلوب مجراه، بينما هو سابحٌ في سحر ألوان عينيها، وفي رقَّة شفتيها حين تبتسمان. أخبرها بأنه كان حتى وقتٍ قريبٍ يحلم بالزواج من فتاةٍ متوكية، وبعدما رآها لم يعد يحلم بغيرها، فقالت مازحةً:

- مفيش مشكلة، بَدَلْ المتَّوكية جتْ لك كتكوتية.

لا بد أن نورا من أصولٍ نوبية، لكنها لا تعرف. فكيف يمكن لفتاةٍ أن تكون بهذه الرقة واللطف والجمال الساحر، من دون أصلٍ نوبيٍّ؟ استطاب هذه الفكرة وهي تجول برأسه، فشرد لحظات حتى مسَّت ظاهر يده بأناملها، لتردَّه إليها وهي تسأله عما يشغل باله، فأخفى عنها ما كان يفكر فيه، وأخذ الكلام إلى ناحيةٍ أخرى بأن أخبرها باعتقاده أن الناس تشبه الأشياء، فلم تفهمه، فأشار إلى رجلٍ سمينٍ أسود يجلس وحيدًا على مقربة منهما، وينقِّل عينيه بين أرداف العابرات: هذا الرجل مثلًا، يُشبه الغراب.

انطلقت ضحكتها عاليةً، بديعة، وقالت إن ذلك قد يكون صحيحًا، فأنفُ الرجل فعلًا يشبه المنقار. سألها وهو يبتسم عما تراه شبيهًا بأبيها، فقالت بعد تفكير: الشمس.. وزوجة أبيها؟ الوزَّة.. والرجل الليبي مفتاح؟ يُشبه الدُّمَّل.

أعجبه الشبه الذي رأته، على فجاجته، وجعله يطمئن إلى أن غريمه الليبي يرغب فيها لكنها ترغب عنه. استراح قلبه وهدأ باله، فليس المهم عنده ما يريد هذا الرجل البارد. نورا هي المهم، بل هي الأهم.. لأنها الحلم الأجمل والأتم.

* * *

اليومُ الأخير لرحلتهم بالأقصر كان مفتوحًا، للتجوال في الأنحاء وزيارة المعبد الكبير القريب من الفندق، وسوف يتحرك قطارهم في العاشرة مساءً. صار أمامه يومٌ كاملٌ سوف يقضيه بقرب نورا، وقد نوى يصارحها حين تسنح الفرصة، بكل ما يتفجر في قلبه من ينابيع العشق، ثم يعرض عليها الزواج للبقاء مقتربينِ طيلة العُمرين في سلامٍ، كالحمامِ.

ساعة الظهيرة دعاها إلى مطعم صغير اسمه «عيش وملح» وجدا للملح والخبز فيه ألذَّ مذاق، ثم ذهبا إلى معبد «الكرنك» لأن الرحلة لن تزوره مرتين. على الأحجار المتناثرة خلف الأعمدة، باح بحبه فسألته بنبرةٍ حائرة: هل يأتي الحبُّ فجأةً ؟ فأجاب واثقًا: هو لا يأتي إلا فجأة، وأجمل ما في الحبِّ المفاجأةُ المدهشة.. علت نورا بعينيها الواسعتين نحو رؤوس الأعمدة العالية، وهي تبوح له بخوفها من المسافات البعيدة، ومن مقبل الأيام، فقال واثقًا: المسافاتُ لن تفرِّق بيننا، وأنا لن أفقدك أبدًا يا نورا، مهما حدث.

صار يتكلم كالمحبين الهائمين، المتوهِّجين، وهو الذي لم يعرف امرأةً يومًا. بل يؤكِّد بحسم، كالواثقين، وهو الذي كان دومًا متردِّدًا وخجولًا. الحبُّ يقلِّبُ الأحوال. ولأنه قال ما قاله صادقًا، فقد صدَّقته نورا ووثقت به، فتدفَّقت في أرضها أنهار الفرح، وشعر هو بأنه لم يعش يومًا أجمل من هذا النهار المفتوح. ووَدَّ لو تنفتح الأيامُ كلها، وتسمح لهما بالبقاء متقاربين في هذا النعيم المقيم.

النعيمُ في الآخرة.

قُرْبَ الغروب صارحها بما يتمناه، فقالت إن الوقت مبكرٌ للكلام في الزواج ويجب تأجيل الأمر إلى حين، لكنها ترتاحُ إليه وتسعد بقربه بل تشعر بأنها تعرفه منذ زمن طويل. رَفَّ قلبه فكاد يطيِّره الفرحُ. ثم قالت إن الوقت تأخَّر، ولا بد لها الآن من العودة لتعدَّ حقيبتها للرحيل، فالساعة بلغت الثامنة. انقبض قلبه فكاد يعصره الألم.

على رصيف القطار، عند باب العربة الأخيرة، بدا بعينيها دمعٌ حبيس وبدتْ على وجهه الحسرة.. تجلَّت له قتامةُ الوقت وقلقُ قلبه إذا فارقته

بعد، فأراد الركوب معها إلى محطة قنا أو سوهاج، أو يذهب معها للمدى الأبعد. قال لها ذلك، فردَّت دامعةً بأنه حتى لو فعل، فلا بد لهما من الافتراق إلى حين. فعليه الآن أن يعود إلى عمله، وإلى امتحانه الأخير بالجامعة، ثم يكون اللقاء من بعد ذلك، من دون مشكلات.

علت صفاراتُ القطار وعيونهما تتعانقان، واليدان تستمهلان لحظة الفَصْمِ والانتزاع. مشى وراء القطار خطوات، ثم وقف عند آخر الرصيف يرنو حسيرًا نحو مؤخرة القطار وهو يتوغَّل بمحبوبته في عتمة الليل، بينما تتباعد صفاراته النائحة على وقع الفراق.. لو يتعطَّل القطار، ويعود الراكبون للمبيت بالأقصر.. لا فائدة من الوقوف وحيدًا، ولن تحدث الليلة معجزات.

سار إلى موقف «البيجو» بخطى القادمين من سفرٍ إلى سفر، وفي السيارة البائسة العائدة إلى أسوان، جلس خلف السائق لحين اكتمال العدد. أخرج من جيب قميصه الأصفر، الورقة المكتوب فيها تليفون منـزلها وأطال النظر، مع أنه حفظ الرقم، حتى عاد قلبه للخفقان حين استعاد نظرتها الحالمة حين قالت له ساعة العصر: اتصلْ بي بعد الظهر أيام الجمعة؛ لأني أكون بالبيت وحدي، لا تفوِّت أسبوعًا واحدًا من دون اتصال.. مال برأسه إلى زجاج السيارة، وغاب في نومٍ كالإغماء لم يستفق منه إلا بأسوان، بعد ساعاتٍ ثلاث.

وحيدًا سار في الشوارع الواصلة بين المحطة والبيت، وعندما أزاح باب الحوش وقد اقترب أذان الفجر، أيقظ الأزيزُ الحاجَّ «بلال» فخرج من غرفته يتوكَّأ على الجدران، وفي عتمة الليل انتهره وهو يرتجف: أين كنت؟ حَمَدون يسأل عنك طيلة اليومين الماضيين،

وإبراهيم المخبر جاءك عدة مرات، أين كنت؟ لم يقنع الحاج بلال بأيِّ رَدٍّ منه، وعاود سؤاله مستنكرًا:

ـ يعني إيه كنت عند جماعة في الأقصر، جماعة مين؟

ـ ناس أصحابي يا عم بلال، مفيش مشكلة.

ـ لأ فيه مشكلة، ولازم تقول لي كنت فين، حرام عليك كده يا ابني.

لم يجد بُدًّا من إخبار الحاجِّ بلال، بكل ما كان من أمر نورا. سمعه بإنصاتٍ وهو يقلِّب عينيه حائرًا في نجوم السماء، من دون أن يقاطعه أو يعلِّق على ما يسمعه.. جاء من بعيد صدى الأذان، فقال الحاجُّ بلال وهو يقوم إلى الزاوية: الله يفعل ما يشاء، قُم الآن للصلاة، ثم نَمْ قليلًا واذهبْ مبكرًا لتطمئن حمدون، وتعرف منه قصة إبراهيم المخبر.

لم يستطع الإغفاء بعد صلاة الفجر، فبدَّل ملابسه وخرج إلى المكتب ليصل قبل الخال حمدون. حين رآه زعق فيه غاضبًا وقد احتدت ملامحه بالغضب وراح يصيح فيه: ما شأنك أنت بعبد العال، وأين كنت غائبًا هذه الأيام، وكيف تغيب من دون إذني، ألا تعرف معنى الاحترام؟

ـ أصل يا خال..

ـ بلا خال بلا نيلة، إنت لا خلِّيت لك خال، ولا عاد لك كبير.

مرةً أخرى، لم يجد بُدًّا من إخبار الخال حمدون بكل ما كان من أمر نورا. أمر الله. لكنه لم يجد عند حمدون، الرفق الذي أبداه الحاجُّ بلال بصمته. واصل حمدون زعيقه، ناعيًا عليه الغياب المفاجئ

ومسامرة عبد العال بالجامع ثم اختفاءهما.. اضطره الخوفُ إلى الكذب، فأنكر معرفة أيّ شيء عن عبد العال، وعن الموضع الذي ذهب إليه. انتفض حمدون بقامته النحيلة من وراء مكتبه، وهو ينظر في ساعته قائلًا بضيقٍ إن عليهما الذهاب لمقابلة ضابط أمن الدولة، الذي أخبره المخبرُ بأشياء، ولا بد من تدارك الأمر.

* * *

نظر الضابط الطويل طويلًا في عينيه، ثم سأله عن صلته بعبد العال، وعمّا كانا يتحدثان فيه بالمسجد، وعن الشابِّ الذي كان ثالثهما. قال إنه كان صديقًا لعبد العال من قبل أن يلتحي ويحرِّم العمل في السياحة، وقد التقاه ليلتها صدفةً في الجامع ولم يجالسه إلا دقائق معدودة، ولا يعرف الشاب الذي كان معه، ولم يتكلَّما في شيءٍ أكثر من الاطمئنان على عموم الأحوال، مثلما يفعل معظم الناس.

ـ آه.. طيب وانتَ كنت فين بالصلاة على النبي كده، الأيام اللي فاتت؟

ـ في الأقصر وكنت ساكن في فندق «أنجلو» اللي جنب مطعم «عيش وملح» وممكن حضرتك تتأكد منهم هناك.

ـ أيوه يعني، كنت بتعمل إيه هناك؟

ـ زرت الآثار..

ـ نعم يا راس العبد، آثار. يا حمدون، شوف حكاية الواد قريبك ده.

همس الخالُ حمدون في أذن الضابط بشيء، ودلَّت هيئة الحال

على أنه يريده في حديثٍ على انفراد، فأشار الضابط إلى «إبراهيم المخبر» الجالس في زاوية الحجرة، فأخذه وخرج. وخلف الباب، نخسه المخبر بعصاه وهو يقول بمزاحٍ فاحشٍ ثقيل: اقعد هنا يا راس العبد؛ حتى يناديك أحمد بك.

وقف خارج المكتب المغلق حينًا مديدًا، حتى استدعاه الضابط مجدَّدًا، فدخل عليه فوجده يفجؤه بالسؤال: ما اسم البنت التي كنت معها؟ نورا. ما عملها؟ طالبة. أين ؟ في كلية الآداب بالإسكندرية قسم الاجتماع، سنة ثالثة، وليس لها في السياسة ولا في الدين، وأنوي الزواج بها العام القادم.. حدَّق الضابطُ فيه بحدَّةٍ، ونظر إلى سماء الغرفة الكئيبة متقلِّقًا قبل أن يقول:

ـ يعني الموضوع كله لعب عيال، عاجبك كده يا حمدون.

ـ يا باشا، قلت لك الواد ده غلبان، وأنا ضامنه برقبتي. ولو تحب سيادتك، نرجَّعه لأمه النهارده.

ـ لأ، سيبه شوية لحدّ ما نشوف حكايته، خلِّيه قاعد معاك في المكتب اليومين الجايين.

ـ حاضر يا أحمد باشا، إنتَ تُؤمر.

في طريق العودة إلى المكتب السياحي، ودَّ لو يسأل عن معنى «راس العبد» لكنه أجَّل ذلك إلى المساء، وعرف من الحاجِّ بلال أنها عصا طويلة بآخرها كرةُ ليف، كانوا قديمًا يزيلون بها بيوت العنكبوت من أسقف المنازل. في طريق رجوعهما من مكتب أمن الدولة، بدا الخالُ حمدون مهمومًا لكنه لم يتكلَّم بشيء، ولم يستمع

باهتمام لتوسلاته الراجية مسامحته على هذه الغلطة الأولى، وسوف تكون بإذن الله الأخيرة.. أمضى أسبوعًا بعدها، مواظبًا على البقاء مع موظفي المكتب كل يوم، من الثامنة صباحًا حتى العاشرة مساءً، ويؤدي صلواته منفردًا خشية الخروج إلى صلاة الجماعة بالمسجد. بعد الأسبوع جاءه الفرج فخرج في جولات إرشادٍ مع مجموعات صغيرة، وهدأ الخالُ حمدون وعادت الأيامُ بالتدريج إلى سيرتها الأولى. صيدُ السمك فجرًا بالسنارة، وفي الصباح صحبةُ الأفواج الفقيرة، والصلاةُ في أوقاتها منفردًا أو في الزاوية. وحبُّ نورا في النهار والليل، في الصحو والنوم.

بعد شهر دعاه الخال حمدون للغداء على غير العادة، فرأى لأول مرة زوجته البدينة الودود «فتحية» أم البنات الخمس والابن الوحيد، الوليد. كانت المائدة عامرةً بالشهيِّ من الطعام المنوَّع، وخبز الخمَّاريد المخمَّر، والإتْر المطبوخ من السبانخ والسَّلْق والشَّبَتْ والكسبرة. قبل أن يمتدح الطعام قالت زوجة حمدون إن ابنتها «زينب» ذات الأعوام العشرين، الشبيهة بمعظم البنات، هي التي طبخته كله، وبعدما امتدح صَنْعَتَه عادت الأم وأكَّدت من جديد أن ابنتها صنعته؛ لأنها علمتها فنون الطبخ والعناية بالبيت، منذ بلغت العاشرة. في اللحظة ذاتها ابتسمت له البطَّةُ الصغيرة السوداء، كالبَلْهاء، فشكرها على إعداد الطعام وابتسم لها، متنبهًا إلى سمنتها الرخوة. المبشِّرة بأن جسمها سرعان ما سوف يترهل، بعد الحَبَل الأول، ليُلحقها على عجلٍ ببدانة أمها.. سهيلُ هو الذي علَّمه النظر إلى الفتيات على هذا النحو.

مرت الأيامُ التاليةُ هادئةً، ساكنةً، إلا من فوران الحبِّ الثائر أيام

الجمعات، عند الكلام مع نورا ظهرًا. المكالماتُ تؤجِّج فيه اللهيبَ وفيها، وتجعل حبهما صريحًا بعدما كان مكتَّمًا، فيغدو زمانهما ظليلًا من بعد طولِ هجيره.. في آخر شهر إبريل من العام السعيد ١٩٩٣ ارتحل إلى الجهة الجنوبية ليؤدي امتحانه الأخير في الخرطوم، بعدما استعدَّ للامتحان بالاستذكار حتى تهرَّأت كتبه الجامعية، ولم يُطِق البقاء هناك بعد انتهائه من الامتحانات.. أمه أشفقت من صمته الطويل، وسأله أبوه وإخوته عن الخبر فلم يصرِّح بشيء. وهل يبوح لهم بأن حَرَّ الصيف في السودان لا يُحتمل، وهو الذي طالما احتمله، أم يصرِّح بإحساسه بالوحشة والغربة، وهو بين الأهل.. حين رآه الشيخ «نقطة» حدَّق فيه طويلًا، ثم قال فجأة: المحبُّ صاحبُ دعوى، فهو صاحبُ بلوى.

ـ ما فهمت قصدك يا مولانا!

ـ يعني، البيِّنةُ على مَنْ ادَّعى..

في أول الصيف نزل مع أبيه إلى أسوان، هربًا من نظرات أمه وهجير أم درمان، لكنه رأى الحرَّ في أسوان أشدَّ من السودان. كلاهما أشدُّ من الآخر حَرًّا، وكلاهما لا يُحتمل. شكا لنورا في مكالمة يوم الجمعة من فراغه هنا، ومن حُرقته، فقالت له باشتياقٍ وترحاب: تعالَ إلى الإسكندرية.

أبوه استغرب الفكرة ثم شجَّعها لأنها السبيل إلى الحصول على رخصة الإرشاد السياحي، حسبما أفتى «سهيل العَوَّامي» الذي أكَّد لهما أن معهدًا خاصًّا بالإسكندرية، بميدان المنشية، يؤهِّل الجامعيين للحصول على رخصة الإرشاد.. يوم الأربعاء الأخير من شهر يونيو،

عاد أبوه إلى أم درمان. ودَّعه في الصباح، وفي الليل كان يجلس سعيدًا في القطار الرقيق اللطيف، رقم ٣٦٤، المتحرك في تمام السابعة مساءً من أسوان إلى الإسكندرية.. إلى الأفق الشمالي المشرق..

إلى نورا.

كرموز

وصل القطارُ مرهقًا بعد ساعات سيرٍ وترقُّبٍ قاربت العشرين، فدخل ظهرًا المحطة الرئيسة التي يسمِّيها الإسكندرانيون محطة مصر. كأن الإسكندرية ليست بمصر. عندما وطأ الرصيف وعلى كتفه حزامُ شنطته، هالَه منظرُ الزحام، وكثرةُ الأبواب، وازدحامُ القطارات والناس على الأرصفة المتوازية. اعتاد في محطة أسوان أن يرى قطارًا وحيدًا يأتي أو يرتحل، فكان يظنُّ ذلك حال المحطات جميعها. ولأن قطاره مَرَّ بالقاهرة من محطة الصعيد الفرعية، فهو لم يَرَ هول القاهرة، وظنَّ أن كثرة القطارات والأرصفة في الإسكندرية أمرٌ فريد. يظلُّ الظنُّ يندفع فينا بظنٍّ جديدٍ، حتى يأتينا اليقينُ بعد حين. أو لا يأتي، فنبقى متقلِّبين بين غَفَلات الظنون.

أدار ناظريه بين جدران المحطة وسقفها العالي، مبهورًا.. أعجبته الحوائطُ الأنيقةُ المحلاةُ بالزخارف، غير الفرعونية، حتى كاد يلحقه من كثرة الزحام دوارٌ، فأسرع إلى الباب الكبير وخرج إلى الميدان الواسع المليء بالشجر والبشر. الناسُ بالآلاف يمشون في كل اتجاه، وليس

فيهم سائحون، حسبما اعتاد أن يرى في الزحام. الضجيجُ هنا عجيبٌ. الإسكندرانيون يصخبون حين ينادون على البضائع أو يشترون، وحين يمرقون بين الشوارع الواسعة المتقاطعة وحولهم السيارات الزاعقة بآلات التنبيه، وحين يتلاصقون في الباصَّات العمومية، يسمونها الأوتوبيسات، وفي قطارهم الصغير المارِّ بين الناس بوسط الشارع. اسمه الترام. ما هذا الزحام؟ كأن قيامة هؤلاء قد قامت، فصار يُداخلهم هوسٌ عجيب. سأل رجلًا من العابرين، أسمر الوجه، عن الطريق المؤدي إلى «المنشية» التي قيل إن فيها الفنادق الكثيرة الرخيصة، والمعهد المؤهِّل، فأشار الرجلُ إلى الناحية المقابلة من ميدان المحطة الفسيح وهو يقول: تمشي على شريط التُّرماي أو تركبها، حتى تصل إلى أول شارع العطارين وتمشي فيه إلى آخره، ستجد نفسك قريبًا من الميدان.

استفهم منه عن معنى التُّرماي والميدان، فقال الرجل وهو يبتسم إن التُّرماي هي هذا الترام، والميدانُ هو المنشية. لماذا يغيِّرون هنا أسماء الأشياء؟.. سار حسبما أشار الرجل، وتوقَّف في طريقه عند مسجد العطارين، فصلَّى مُسرعًا ما فاته وهو يشعر بروحانية المسجد المرتفع عن الأرض بدرجتين. عرف بعد أيام، أن شيخ الإسكندرية الشهير «أبو العباس» كان يلقي دروسه ويصلِّي بالناس في هذا المسجد الفاصل بين الجانبين، الفقير والغني، من الإسكندرية.

بعد صلاته سار نحو الميدان وعيناه معلَّقتان بواجهات المباني الأنيقة، المصفوفة على جانبي الشارع الواسع، اللامع. البيوت كبارٌ. حافلةٌ حوائطها بالنقوش، والشرفات، وتحتها المحال الرحبة المتتالية التي تبيع الأقمشة والملابس والأسلحة والعطور.. دخل المحل

الفسيح وطلب من البائعة زجاجة «بَرْفان اسمه أنايس» فأتت بقنينةٍ صغيرة بيضاء، مرسوم عليها زهرةٌ حالمة.

ابتهج حين رأى الزجاجة، لكن ثمنها صدمه «مائةً وستين جنيهًا» تردَّد لحظة قبل أن يحسم أمره. نورا تستحق أغلى الأشياء. دفع الجنيهات إلى البائعة بيدٍ يرتجف باطنها، وخفَّ عليه الأمرُ بعدما لفَّت له البائعةُ الزجاجة، في ورقٍ برَّاق مربوطٍ بأشرطةٍ مبهجةٍ، مبهرة اللمعان. حياةُ الناس هنا متأنقةٌ، لكنها مكلِّفة، وقد لا تكفيه ألفا جنيه جاء بها، وكان يظنها مالًا وفيرًا.

أمر الله.

ميدان المنشية أوسعُ من سابقه، وأشدُّ ازدحامًا، فشعر فيه كأنه جاء من القيامة الصغرى إلى الكبرى. مسرعًا، ارتقى الدَّرَجَ العريض إلى الفندق الكائن بالدور الأول من البيت الكبير، وعرف من موظف الاستقبال أن المبيت بعشرين جنيهًا في الليلة، بلا إفطار. ترك شنطته على السرير المعدني، وأسرع إلى التليفون الذي رآه عند دخوله، فوق طاولة الاستقبال. أخبر نورا بأنه في الفندق، فتهلَّلت وهي تلومه بلطفٍ لأنه لم يتصل بها من ميدان المحطة. سألها إن كان سيلقاها صباح الغد؟ فباحت بلا تحفظٍ بأنها لن تستطيع الصبر حتى الصباح. قالت:

- إنتَ دلوقتي في المنشية. خلاص، نتقابل بعد ساعة عند الجندي المجهول، علشان إنتَ وحشتني جدًّا.. جدًّا.

مَنِ الجنديُّ المجهولُ هذا؟ وأين مكانه؟ سأل الناس فأرشدوه إلى نُصْبٍ تذكاريٍّ قريبٍ، يقف عاليًا بأعمدته قُبالة شاطئ البحر،

ويمتد من أمامه رصيفٌ عريض. وقف ينقِّل عينيه بين البحر والعابرين والعمائر الأنيقة، وساعة يده.. في لحظة الفرح لمح نورا مقبلةً نحوه في فستانٍ، لا هو بالقصير ولا بالطويل، يصرِّح بعنفوان أنوثتها لأنه ضيقٌ من عند الخصر والنهدين. بدتْ كأنها امتلأت قليلًا، فازدادت جمالًا على جمالها. عينها اللامعة، اتسعت مع ابتسامتها وهي تُقبل نحوه كالحلم الآتي في الصحو، فسعى نحوها يحدوه الاشتياقُ. كادا بين دفعات الحنين، يتحاضنان وسط الزحام المحيط.

أخذته من يده فعبرا الطريق إلى الرصيف المحاذي للبحر. نورا تُشبه البحر. قالت له بلسان البهجة إنها ستكون مرشدته السياحية في الإسكندرية، فقال مداعبًا إنه يريدها مرشدةً في الأماكن كلها، وشريكةً في الحياة حتى المنتهى. كانت النوارس التي يراها للمرة الأولى، تحوِّم فوق الماء ثم تغطس بسرعة في البحر لتلتقط الأسماك. بدت له كأنها تلعب بمرح. سارا نحو القلعة التي ظهرت لهما أولًا من بعيد، ثم اقتربت رويدًا. في الطريق رأى مآذن عالية على الجهة اليسرى من كورنيش البحر، وعرف من نورا أنه جامع أبي العباس المرسي، والمسجد القصير الذي أمامه هو مقام «البوصيري» شاعر البردة، والذي بجواره مسجدُ «ياقوت العرش» ذو المآذن والقباب العالية. نوى في سرِّه المجيء إلى هنا صباحًا للصلاة، ليحظى ببركة هؤلاء الأولياء جميعهم، ويدعو من قلبه بمساجدهم بألا يحرمه الله يومًا من نورا.

رأى عاشقين يمشيان برفق وقد تشابكت بينهما اليدان، فودَّ لو يمسك بيد نورا أو حتى يمسّها، لكنه استحى. تجرَّأ بعد يومين. اقتربا من القلعة وقد اقترب الغروب، ومرَّا بمراكب صغيرة كثيرة يؤرجحها

موج البحر، برفقٍ، ومن ورائها تطفو يخوتٌ خلاَّبة الشكل. قالت نورا إن هذا الحيَّ اسمه «بحري» وهذا الشارع المؤدي إلى القلعة، ردمه الإسكندر الأكبر.

ـ نورا..

ـ نعمين يا نور العين.

ـ إنتي مرشدة مذهلة.

أعجبه كلامها، ودلالها عند النطق به. وراق له قولها المازح «يا نور العين» وأخبرها بذلك، فقالت مُداعبةً وهي تضحك: ولا يهمك يا فندم، ما دامت الكلمة تعجبك، سأقولها لك كل يوم.. وصلا عند القلعة التي بدت قبل قليل، بعيدةً، بينما كانت الشمسُ تستعدُّ لملامسة الماء حيث تغتسل من تعب النهار. الشارع المؤدِّي إلى القلعة مكشوفٌ على البحر من جهته اليسرى، ومسدودٌ من الجهة اليمنى بمبانٍ كثيرةٍ متلاصقة، قالت نورا إنها نوادٍ راقية بناها الأغنياء لأنفسهم وتركوا الجانب المقابل لعموم الناس. «نحن عمومُ الناس».. قالت ذلك وهي تأخذه من أطراف أصابعه بلمسةٍ غير مقصودة، ليرى ما وصفته بأنه البحر الحقيقي. صعدا الدرجات الخمس العارجة إلى الرصيف العالي، الممتد يسارًا من أول الشارع إلى القلعة التي كانت منارة، وجلسا متجاورين على المقهى المفتوح على السماء والبحر. الشمسُ تغيب خلف الماء الهادرة أمواجه، وتُشرق في قلبه، سألها عن سر هياج هذا البحر الواسع بعدما كان هادئًا هناك، فأخبرته بأن الميناء الشرقي كالبحيرة المغلقة، وهذا هو البحر المفتوح. وهياجه الشديد يكون شتاءً، فهو على هياجه هذا، هادئٌ بالنسبة إلى حاله في الشتاء.. شرد لحظةً فردَّته إليها بقولها:

ـ إيه يا نور عيني، سرحان في إيه؟

ـ سرحان في البحر.. شايفه بيشبهك.

ـ أنا حلوة كده؟

ـ إنتي يا نورا أحلى حاجة في الدنيا.

ـ يا سلام، في الدنيا بس! وفي الآخرة لأ.. المهم، إحكي لي عملت إيه الشهور اللي فاتت، إحكي كل حاجة بالتفصيل المِملّ.

باح لها ببعض معاناته من بعد افتراقهما، وقال صادقًا إنها لم تغب لحظةً عن باله ليلًا ولا نهارًا، فابتسمت راضية. حكى ثم شكا أنه لن يحتمل الافتراق عنها مجدَّدًا، فأكَّدت لمسةُ يدها ونظراتها أنهما مهما ابتعدا، فلن يفترقا.. وهي تعصبُ شعرها الوفير الذي هيَّجه الهواء، أشارت إلى القلعة قائلةً إنها ستأخذه صباح الغد لزيارتها، ليرى البحر من فوق أسوارها. أعطاها الهدية فنظرت في العلبة مستغربةً، وحين فتحتها اكتسى وجهها بعكس ما كان يتوقعه ويتمناه. سألها عن سبب العبوس المفاجئ وقد أراد أن يفرحها، فقالت إنه لا يصحُّ أن يأتيها بالهدايا الغالية من محلٍّ كهذا، فهي لا تحب أن يبدِّد في ذلك نقوده. قاطعها قائلًا إنها هديةٌ بسيطةٌ، وهو يعرف أنها تميل إلى هذا العطر، وظنَّ أنها ستفرح به. قاطعته: يا سيدي بَسْ افهمني، هذا البرفان أشتريه حين أحتاجه من تجار الجملة بالمنشية الصغيرة، يبيعون هناك زجاجات العينات الأصلية من دون علبتها التي لا نحتاجها أصلا، بسعرٍ لا يزيد على عشرة جنيهات، فلماذا تدفع فيها أنت مائة؟

ـ خلاص يا نورا، كُنت عاوز أفرحِّك. حصل خير.

ـ ماشي. بس والنبي بلاش تعمل الحاجات دي تاني، مالهاش داعي يعني. وبعدين لازم تعرف إن فرحتي الكبيرة، هي إنت يا نور عيني.

في نهاية الجلسة الهانئة تعاهدا على الصدق والصراحة التامة، فلا يخفي أحدهما عن الآخر أمرًا مهما كان هينًا، فلا شيء عند المحبين هينٌ. والحبُّ حسبما قالت نورا، روحه الصدقُ والصراحةُ، ويبدِّده الإخفاءُ والكذب. الساعةُ مسَّتْ عقاربها العاشرة مساءً، بسرعة، فقاما من فوق الرصيف العالي المحفوف بصخور البحر، ومشيا متباطئينِ نحو ميدان المنشية. سألته في الطريق عن أجرة المبيت في الفندق فأخبرها، فقالت إن هذا كثيرٌ ولسوف تتفّق له في الغد مع مالكة بيتٍ بكرموز؛ لتؤجِّر له غرفةً خالية بسطح منـزلها. لن يزيد الإيجار على خمسين جنيهًا في الشهر، أو ستين.

عصرَ اليوم التالي ترك الفندق وسكن بكرموز في شارعٍ طويلٍ، ضيق، قُرب منـزل نورا. صارا يلتقيان يوميًّا عند القلعة عدا أيام الجمعة؛ يوم تنظيف المنـزل، فيجلسان بقلب جدارها الخلفيِّ على قاعدة الشبابيك العتيقة، المفتوحة على المدى، وأمامهما السماءُ والبحرُ، والصيادون الهواة، والأملُ الفسيح. رأى أن نورا تتوارى من الشمس ساعة العصر؛ لأنها تزيدها سُمرةً، فداعبها بقوله: ألا تقولون هنا إن الاسمرار نصف الجمال؟ فقالت ضاحكةً: صحّ، لكن البياض هو الجمال كله، وكفاية شَعري أسود.. قرأ عليها بيتين من قصيدةٍ قديمة «فالوجهُ مثل الصبح مبيضٌّ، والشَّعْرُ مثل الليل مسودٌّ. ضدَّان لما استجمعا حَسُنا، والضدُّ يظهر حسنه الضدُّ» ثم

أخبرها بأنه يكتب الشعر وله أبياتٌ عن البشرة السمراء، فابتهجت وهي تدعوه لإلقائها. نظر إلى آخر البحر، برهةً، واستجمع ذاته وهو يقول بصوتٍ عميقٍ خفيضٍ:

أردتُ، كما أرادَ القَدَرْ..
حين تركها الأجدادُ داكنةْ
تحت شمس الأمكنةْ،
جاءتْ بشرتي سمراءَ.
فجعلتُ قلبي أبيضًا، وضاءَ
ورفعته عن ظلمة الأزمنةْ
.. فأتتْ أقمارُ الحبِّ لتسكنَهْ
فأنا في الليل دليلُ شمسٍ،
وفي النهار برهانُ قَمَرْ..
أردتُ كما أراد القَدَرْ

«جميلة جدًّا» قالت نورا ذلك، وهي تكافئه بلمسةٍ حانية بباطن كَفِّها، على ظاهر يده. صارا في الأمسيات يقومان من مكانهما المختار خلف القلعة، مع غروب الشمس، فيسيران على شاطئ البحر حتى يصلا إلى أسوار قصر رأس التين، ومن هناك يركبان الترام إلى كرموز. ما كانا يفترقان إلا ليلًا. سألها كيف تخرج كل يوم، من دون اعتراض الأهل؟ فقالت إنها أوهمتهم بأنها تعمل في المكتب الملاحي، كالصيف الماضي، وأخبرت المكتب بأنها لن تعمل معهم بقية هذا الصيف، فصارت بذلك متفرغةً له.. أفرحَه تدبيرُها.

* * *

كرموز حيٌّ كبيرٌ يحيط بأسوار المقابر التي تحيط بالأثر البطلمي المسمَّى «عمود السواري». سأل عنه نورا فقالت إن الناس أقاموه في الزمن المسيحي تخليدًا لأحد الأباطرة. وهذا الحيُّ كان رَبْع المصريين في الإسكندرية القديمة، وكان فيه معبد السيرابيون. الترام تذهب بالركاب إلى آخر كرموز، حيث تجري بين البيوت ترعةٌ، ويعبر الناس من فوقها إلى آخر الأحياء الجنوبية بالإسكندرية. اسمه «غيط العنب» مع أنه ليس به غيطان، ولا عنب. عبر إليه مرةً فوجده عامرًا بالمساكن والناس، وأسماء شوارعه لطيفةٌ لافتة. شارع الكروم، شارع الرند، شارع النرجس، شارع النيل. ليس في تلك الشوارع شجرٌ ولا زهرٌ، ولا نيل، لكن الأسماء كما هي في غالب الأحيان والأحوال، خادعةٌ.

في طرف كرموز مساكن شعبية هادرة. ذهب إليها يومَ جمعةٍ للفرجة وتبديد الوقت، فوجدها تُخيف الزائرين وتتوجَّسُ منهم، فالبيوت هناك كالسجون والعيونُ كالنَّصْل المسنون. نورا انزعجت حين أخبرها بجولته، فوعدها بعدم التكرار. الشارع المزدحم الذي سكنه يسكنه أناسٌ كثيرون يتكدَّسون في الشوارع الضيقة، المؤدية إلى ميدان «البياصة» العامر من الفجر إلى الفجر. في يومه الأول استغرب من مقاومة البيت المتهالك الذي سكن فوق سطحه، فهو متآكلُ الحوائط في أدواره الأربعة، وآيلٌ من زمنٍ طويلٍ للسقوط، لكنه لم يقرر القيام بذلك بعد. تملكه عجوزٌ لها اسمٌ عجيبٌ، الحاجة لُولا، تسكن مع أسرتها الدور الأرضي. وتسكن فوقها أسرةٌ فقيرة وفيرة الأطفال، عائلُهم ضرير، فوقهم مصنعٌ صغيرٌ للشنط والأكياس، فوقه شقة الأستاذ إسحاق الموظف بإدارة الجامعة.. وفوق الجميع غرفته،

ودورة المياه المتداعية، والسطح غير المسوَّر، والسماء البعيدة، ونورا القريبة.

في البيت المجاور تسكن بالدور الأرضي صديقة نورا المسماة «أمُّولة العسُّولة» التي التقى بها مرات، فلم يجد فيها أيَّ أملٍ ولا عسل، لكنها تبدو بالفعل طيبةً ومخلصةً كما وصفتها نورا. وهادئة. قال ذلك لمحبوبته بعد يومين، فضحكت وهي تقول إن «أمولة» خجولة مع الأغراب ولذلك تبدو هادئة، لكن طبيعتها غير ذلك. أضافت بينما عيناها تطيران في الأنحاء، كحالها كلما استدعت إلى ذهنها أمورًا متباعدة:

ـ أمولة اللي إنت شايفها هادية، دي مصيبة سايحة، ودمها زي العسل. وكلامها كمان زَيّ السكر، تقولِّي مثلًا: عارفة إيه هوَّه الحب؟ حاجة كده الرجالة اخترعوها، علشان يناموا مع الستات العبيطة من غير فلوس.. ولما يغيظوها عندها في البيت، تقول وهيَّ بتضحك: اتضح إن العمّ غمّ، والأخ فخّ، والخال وبال، وكل القرايب عقارب.. أمُّولة دي عَسُّولة خالص.

مالكةُ المنزل العجوز عرفت أنه زميلٌ لنورا في الدراسة، وليس لديه مالٌ وفير، فقبلت منه الجنيهات الخمسين إيجارًا شهريًّا للغرفة، وأعفته من مبلغ التأمين. ليس في الغرفة أيُّ شيءٍ يستحق تأمينًا. في أيامه الأولى استغرب ترحيب الناس به وإقباله عليه، من دون أن يسألوه عن قبيلته أو جماعته الأقربين. لا قبائل في الإسكندرية، والناسُ لا يتوجَّسون من الغرباء. صاروا يسمونه «سمارة» على سبيل التدليل، وصار يحبهم لأنهم يتكلمون مثل نورا، ويلقون خلال كلامهم بالنكات الكثيرة والقفشات.

بعد استقراره بكرموز بيومين، نزل مبكرًا من غرفته قاصدًا ذلك المعهد الموصوف، وآملًا في الاشتراك بدورة إعداد المرشدين. لكنها كانت زيارةً وحيدة، لم يعد بعدها إلى المعهد. فور دخوله، طلب منه الموظف اليابس الجالس بعد الباب، أن يصوِّر الإفادة الجامعية وشهادة ميلاده وبطاقته الشخصية، وحين عاد إليه بالأوراق المصوَّرة، نظر الرجل فيها ثم ضحك وهو يقول:

ـ الله! يا بني انتَ جنسيتك سوداني، علشان تاخد رخصة الإرشاد، لازم تبقي مصري.

ـ أنا أمي مصرية، من الجعافرة.

ـ ياسيدي أهلًا وسهلًا، بس المهم أبوك.. والجنسية.

حَطَّ عليه هَمٌّ ثقيلٌ، ومغمومًا خرج فأخذته خُطاه إلى جامع أبي العباس.. دمعت عيناه خِفيةً وهو ساجدٌ، ومسح وجهه بعد القيام وسار بخطى الأسى البطيئة إلى القلعة، وهناك جلس ينتظر نورا. البحر يُسَرِّي عن المحزون كالبحيرة، ويصرِّف النظر عن صروف الأيام ومآسيها. جاءت نورا ومعها طعامٌ فرفض الأكل، وحكى لها ما كان فسكتت قليلًا ثم سألته: هل جاء إلى الإسكندرية من أجل المعهد ورخصة الإرشاد؟ فقال إنه جاء أصلًا من أجلها.

ـ طيب زعلان ليه، أديني جنبك أَهُه.

ـ ماشي. بس شُغلي يا نورا، والمستقبل، والجواز؟

ـ شوف يا نور عيني. طول ما إحنا مع بعض، المشاكل كلها هيكون لها حل. يلَّا اضحك بقى، عايزة أشوف اللُّولي المستخبِّي.

بعد أسبوع من سُكناه الإسكندرية قرأ عند باعة الصحف، أخبارًا محزنةً عن طائرة أمريكية قصفت الناس في الصومال صبيحة اليوم الثاني من شهر يونية، وقتلت منهم خمسين. تذكَّر عبد العال بأسى، ورأى ليلتها في منامه وجوهًا في الجحيم تصطلي، وأطفالًا يصرخون. وقبل أسبوع من عودته لأسوان، نشرت الجرائد يوم الثالث من أكتوبر، أن الصوماليين أحاطوا بالأمريكيين وأسقطوا لهم مروحيةً عسكريةً اسمها «الصقر الأسود» وقتلوا من جنودهم قرابة العشرين، وأصابوا العشرات، فتذكَّر عبد العال بفخر. ثم أدرك بعد يومين أن الأمريكيين قتلوا في ذلك الحادث سبعمائةً من مسلمي الصومال، فاعتصر قلبه الألم وهجمت عليه في الليل الكوابيس الجاثمة.

نورا استغربت اهتمامه بالصومال، فحكى لها ما كان من أمر عبد العال. نظرتْ نورا ناحية البحر وهي تقول إن أمريكا لم تدخل بلدًا إلا دخل إليه الخرابُ والدمارُ، وجنودها ينتصرون فقط في أفلام هوليوود، وعلى الأرض ينهزمون دومًا. في كوبا وفيتنام والصومال. أعجبه كلامها واهتمامها بأحداث العالم، وعبَّر لها عن إعجابه هذا فقالت وهي تبتسم:

ـ طبعًا يا ابني لازم أهتم، أُمَّال إزاي هاكون صحفية كبيرة؟

ـ أنا ابنك. طيب هاتي بوسة يا ماما.

ـ بعينك يا مجرم.

من السنترال الكبير بميدان المنشية اتصل تليفونيًّا بالسودان، وقبل أن يطمئنوه على أحوالهم في البيت زفُّوا إليه أنه نجح في الامتحان، وحصل على شهادته بتقدير «جيد» فطارت نورا فَرَحًا به وأفرحته

بطريقتها. أخذته إلى سقف القلعـة، وفـي موضعٍ يطلّ على كل البحر، ويتوارى عن أنظار الزائرين، جمعهما الحضنُ الأول والقُبلة الطويلة. كاد الدوارُ يسقطهما على الأرض، لولا استندا إلى الجدار. قُبلة الحب الافتتاحية، تُذهل القلب، وتدير رؤوس المحرومين. في اليوم التالي طلب منها الصعود إلى سقف القلعة من جديد، فقالت إن عليه الصبر لأربع سنوات حتى يحصل على شهادة جامعية أخرى؛ فيستحق على ذلك القبلة، وتستحقها معه.

- يا نورا بلاش كده، تعالي نطلع فوق.

- بطَّل زَنّ. لما تيجي السنة الجاية، ممكن.

ضَمَّها إليه من كتفها فسكنت إلى جانب صدره، ولسانُ حالها يفصح عن اشتياق لا يقل عن اشتياقه.. في اليوم التالي عاد من الإسكندرية مُفعمًا بالعشق العميم، فكان يكلِّم نورا من أسوان كل يومين ليعرف أخبارها ويبثَّها بعضًا من تباريح الهوى. هي لم تحجب عنه أمرًا من بعد عهدهما، حتى حين هبط «مفتاح المبروك» بأجنحة الكآبة في ابتداء شهر ديسمبر، أخبرته، وأحاطته بأن أباها وزوجته اقترحا عليها الجلوس معه والاستماع إليه، ثم تقرِّر من بعد ذلك ما تشاء، وقد وافقت مع أن قرارها من قبلُ معروفٌ ومن بعدُ.. متى تلتقيان يا نورا، وأين؟ بعد غد سآخذه إلى المقهى المفتوح الذي جلسنا فيه يوم وصولك الإسكندرية؛ لأفكِّر فيك أنتَ وأنا جالسة معه. ومتى ستخبرين أباكِ بموضوع زواجنا؟ عندما تعود الصيف القادم، وأكون قد حصلت على الليسانس. لا تُطيلي الجلوس مع الرجل الليبـي بعد غد، أتسمعين؟ حاضر يا حبيبي.

مساءَ يوم الخميس اتصل بنورا، وأغلق الخط حين ردَّت عليه زوجة أبيها. بات ليلته مسهَّدًا، وقبل ظهر الجمعة عاود الاتصال ليعرف ما جرى في لقاء الأمس، فأخبرته نورا بأن «الزفت» لم يعجبه الجلوس عند القلعة، وأخذها إلى محلٍّ بميدان محطة الرمل، وظل هناك يرجوها الموافقة على الزواج، حتى دمعت عيناه كالنسوة وهو يؤكِّد أنه سيعطيها كل ما تحلم به، ولن يضايقها أبدًا أو يضيِّق عليها. اعتذرت له بأنها لا تحبه ولا تعرف عنه إلا القليل، فقال لها إن الحب سيأتي مع المعاشرة، وإنه كي يثبت لها ثقته وحبه، سوف يبوح لها بسرٍّ خطيرٍ يُطير الرقاب؛ حتى تتأكد من استعداده للتضحية بأي شيء من أجلها.

ـ سر إيه يا نورا ؟

ـ كلام غريب قال إيه، هوَّه جاي لمصر المرة دي، علشان يخطف راجل بيضايق القذافي المجنون بتاعهم، والموضوع هايتم بعد يومين بالاتفاق مع الأمن المصري، ومع الراجل الكبير.

ـ راجل مين يا نورا ؟

ـ مش عارفة، أهو كلام. سيبك منه دلوقتي، وطمنِّي عليك اِنتَ.

ـ أنا شغال كويس بس زهقان من غيرك، وعاوز الصيف ييجي بسرعة، علشان أشوفك.

ـ وأنا كمان هاموت وأشوفك.

لاحقًا أخبرته نورا بأن «الزفت» رحل عن الإسكندرية يوم التاسع من ديسمبر، فهدأ خاطره وشعر بأن الخطر قد ابتعد. لم ينتبه ولا

انتبه معظم الناس إلى الأخبار التي ذاعت بعد أيامٍ، حول اختفاء المعارض الليبـي «منصور الكيخيا» خلال زيارته لمصر المحروسة، غير الحارسة، وهو في طريقه من القاهرة إلى الإسكندرية ليرى أهله المقيمين بها منذ زمن.. كانت أحوال السياحة رائجة كالسنة السابقة، فاستطاع ادخار عشرة آلاف جنيه، ترك سبعة منها مع الخال حمدون وسافر بالباقي إلى نورا ليقضي بقربها شهور الصيف؛ لأنه لن يحتمل حَرَّ السودان.. أمه كتمت عنه لوعتها، لكنها كانت في ليل أم درمان تبكي.

سأله الحاجُّ بلال ساعة العصر، إن كان سيخبر أباه بأمر الفتاة الإسكندرانية التي يريد زواجها، فأكَّد وطلب من الحاج بلال أن يساعده على إقناع أبيه بالأمر، فإقناعه بذلك أيسرُ من إقناع أمه الراغبة في عودته إلى أم درمان ليبقى تحت جناحيها، حسبما تكرر دومًا على مسامعه. هَزَّ الحاج بلال رأسه موافقًا، من دون تحمسٍ، فتهيَّأ لعرض الأمر على أبيه عند أول زيارة له.

في أول شهر مارس من العام ١٩٩٤ كادُ يخبر أباه يومَ جاء إلى أسوان، بأمر نورا. لكن هيئة الأب كانت تدلُّ على هَمٍّ ثقيلٍ، فاستمهل حتى يستعلم منه. بعدما سمع الأخبار، سكت عن البوح بمكنونِ قلبه. فقد أخبره أبوه بلسان الأسى، بأن الشيخ الليبـي المختلّ، محمد الخليفي، قام قبل أسبوعين مع مجموعة من أتباعه المسلَّحين بالبنادق الآلية، بتفجير مسجد في حي «الثورة» بأم درمان، وأطلقوا النار على المصلِّين آملين في قتل الشيخ عبد الغفار إمام المسجد، والشيخ السعودي أسامة بن لادن. مات أكثر من عشرين رجلًا كانوا

يصلون في المسجد، ولما أدرك القَتَلة أن إمام المسجد والشيخ أسامة ليسا بين المصلِّين، ولا المقتولين، أسرعوا إلى شركة «وادي العقيق» لعلهم يجدون ابن لادن هناك فيقتلونه، لكنه كان في بيته. هرولوا إلى هناك فانبرى لهم الحراسُ وتقاتل الجمعان طيلة ست ساعات، حتى وصل رجال الأمن فساعدوا حراس أسامة بن لادن، واستطاعوا الدوران من خلف المهاجمين، وقتلوا «الخليفي» ومن معه.. صاح الحاج بلال غاضبًا، ومتسائلًا عن سبب قتل الناس في المساجد والبيوت، فقال الأب إنها فتنة نرجو الله أن يحفظنا منها.. بلسان يضطرب سأل أباه إن كان الشيخ أسامة بن لادن قد أُصيب، فنفى الأب وأضاف أنه نجا من الاغتيال، لكنه يعاني فيما يقولون من مرض السكر وأوجاع الكُلى، ولم يعد يخرج من بيته إلا نادرًا، وقد توقَّف عن ذبح الخراف للفقراء.. من يوم وقوع الحادثة، تغيَّرت الأحوال وصار الناسُ في الخرطوم وأم درمان، يعيشون في فزع عظيم.

الشيخ «نقطة» كان مُحقًّا، حين نطق بلسان الكشف.

المنتزه

ما العشقُ؟ هو عطيةٌ ربانيةٌ يهبها الله لمن يصطفيه من العباد، ويجتبيه، فيعطيه من أنواره مَدَدًا ودَهْشات لمعانه على مرآة قلب العاشق، المجلوَّة، البراقة. كان المحبوب مكسوًّا بالبهاء الإلهي، فيهيمُ برؤياه. وأبدعُ ما في العشق ابتداؤه، يرى به، وأحلى ما بالحبِّ أولُه الفوَّاح بأنفاس المحبوب، المطلوب أبدًا لإطفاء لهيب الهوى وإشعال روح المحب، أو لإتمام احتراقه.. في طريقه إلي نورا، ودَّ لو يكتب لها قصيدةً يهمس لها بحروفها حين يلتقيان. لكن الأبجدية جالدته، وهرَّبت منه الكلمات لوفرة هيمانه. كان كلما اقترب قطاره من الإسكندرية، وتكاثرت البيوت المبثوثة في الخضرة، هيَّمت روحه وأحسَّ بنورا تملأ الكون من حوله وتحوطه تحنانًا وحبًّا.

كانت نورا تنتظره هذه المرة في «محطة مصر» ولما نزل من قطاره، لم تجد حَرجًا في احتضانه وتقبيل خدَّيه، والناسُ حولهما، ولا هو وجد الأمر محرجًا. جلسا ساعتين سعيدتين في مقهى المحطة، الفقير، ثم قاما إلى الترام القريب وتجاورا على كرسيه الحنون، حتى

وصل بهما إلى أول كرموز.. ومع ابتداء اليوم التالي ابتدأتْ لقاءات الصيف، كأنها لم تنقطع مع الشتاء.

ظهرت نتيجةُ امتحان نورا بعد مجيئه بشهر، فطارا فرحًا بحصولها على الليسانس ودنوِّ الأجل المأمول، والفرح. فاتحت أباها في الأمر فقال إن الوقت الآن مبكر، وعليها إيجاد وظيفةٍ تؤمِّن مستقبلها لأن الحال صار صعبًا على عموم الناس، بسبب الغلاء، ثم من بعد ذلك تفكر في الزواج. طلب منها أبوها كتمان الأمر عن «طنط توحة» حتى يأتي الأوان المناسب، فسألته بلسان الرجاء إن كان يريد رؤية العريس، فسألها بنبرة الأب الحائر إن كانت تحبه، فأجابت من دون إفصاحٍ صريح بقولها: يعني، فيه استلطاف.

على المقهى المفتوح على ميدان البياصة، التقى بوالدها فلم يجد عنده صدًّا ولا قبولًا. الرجلُ طيبٌ. رحَّب به وراح يسأله عن عمله وعن أهله، وعما إذا كانت لديه شقة. أجابه بحسب ما سمح الحالُ به، وأكَّد أنه سوف يشتري شقة بأسوان، الشتاء القادم، فقال الأبُ وهو يمتعضُ: أسوان..

- أيوه يا عمي. وبعد سنة نشتري شقة هنا، إن شاء الله، ونقضِّي الصيف في إسكندرية والشتاء في أسوان.

- ربنا يا ابني يقدِّم ما فيه الخير.

- طيب ممكن أجيب أبويا ونقرا الفاتحة؟

- الفاتحة مفتوحة يا ابني، روَّح إنت بالسلامة والسنة الجاية نشوف الموضوع ده..

تصافحا عند انتهاء كلامهما كأن كليهما مهزومٌ، مستسلمٌ للانهزام، وكانت نورا تنتظر عند القلعة لتعرف نتيجة اللقاء. قصَّ عليها كل كلمة دارت مع أبيها فاستبشرتْ، ودعته إلى الاحتفال بشراء الآيس كريم وهما يمشيان على الكورنيش نحو ميدان المنشية. ومن الصَّاغة اشتريا «دبلة» فضيةً لكل منهما، ثم استكملا السير البطيء وهي تؤكد أن لقاءه بأبيها ليس سلبيًا ولا محبطًا، كما يظن، بل هو خطوة أولى نحو الزواج الذي لا يمكن أن يتم، من دون هذه التمهيدات: لا تستعجل، دي مجرد بداية.

وصلا إلى محطة الرمل حيث النُّصْب العالي المحاط بأجمل العمارات، فتولَّت نورا الإرشاد السياحي وراحت تقول كأنها تردِّد كلامًا تحفظه عن ظهر قلب: هذا الميدان، هو المكان الأشهر والأقدم في الإسكندرية.. كان اسمه في الزمن البطلمي القديم «بوكاليا» وهي كلمة يونانية تعني مرعى البقر، ولكن لم يكن فيه بقر، بل معبد جميل أقامته كليوباترا وجعلته باسم ابنها «قيصرون» يعني قيصر الصغير، ثم صار المعبد بعد تخريبه في الزمن المسيحي كنيسةً أُزيلت في الزمن الإسلامي. وفي الزمن الحديث، أصبح المكانُ حديقةً فيها هذا النُّصْب المرتفع، نسمِّيه ميدان «محطة الرمل» لأن هذا الترام يأخذ الناس من هنا إلى الجزء الشرقي من الإسكندرية، الذي كان سابقًا منطقةً رملية. وتمثال الرجل الواقف فوق النصب يشير بذراعه إلى البحر، هو سعد زغلول الذي قال قبل موته «مفيش فايدة» وهذه المرأة النحاسية مجنحة الذراعين، الجالسة تحته، تمثِّل مصر.. سألها عن سرِّ تصوير المصريين لبلادهم، دومًا، على هيئة امرأة.

ـ أصلها محتاجة راجل.

لمح المحل المكتوب عليه «تريانون» فأراد أخذها إليه للجلوس حيث جلست مع غريمه الليبـي اللدود، فرفضت نورا بلطفٍ وهي تقول «كبَّر دماغك» وأخذته إلى محلٍّ مجاورٍ فجلسا على الرصيف العريض فجاء إليهما عصيرُ الليمون المثلَّج مع نسمات البحر المسائية، وموجات البهجة الغامرة. نظر حوله قبل أن يسألها عن الجانب الآخر من الإسكندرية، فقالت إن كرموز والمنشية ومحطة الرمل ومحطة القطار والأحياء المحيطة بها، هي المدينة القديمة، أما الجانب الشرقي فهو جديدٌ. ويمتد بحذاء البحر كالمسطرة، حتى ينتهي بحدائق قصر المنتزه. طلب منها الذهاب إلى هناك، فاستمهلته إلى الغد واعدةً أن تضع بإصبعه «الدبلة» وسط حدائق المنتزه.

خرجا مبكرًا من كرموز إلى المنشية، وركبا من هناك إلى المنتزه. بعد دقائق من تحرُّك الأوتوبيس العالي، رأى عن يساره أرضًا واسعة يحفر فيها العُمَّال حفرةً هائلة، سأل نورا عنها فقالت إنهم سيقيمون هنا «جبلاية للقرود» عقد حاجبيه ونظر إليها مستغربًا، فقالت وهي تلكزه برفقٍ بكوعها، إنها تمازحه، ثم جاوبته جادةً بأن هذه الأرض قامت عليها قديمًا «مكتبة الإسكندرية» التي اندثرت، وسوف يُعاد بناؤها في الموضع ذاته من جديد.

بعد ساعة سيرٍ بحذاء البحر، نزلا عند سور غير مرتفعٍ فيه مدخلٌ مزخرفٌ، فوقه برجٌ عالٍ أنيق. بدا له المكان من خارجه مثل قلعةٍ. لكن القلاع تحميها الجدران العالية والجلال، وهذا المكان مصونٌ بالأناقة والجمال. عند المدخل شباك صغير أخذا منه تذكرتين بأربعة

جنيهات، فتوهَّم أنه سيجد بالداخل آثارًا قديمة لكنه رأى بعد البوابة الورود الكثيرة، والشجر، والخضرة الممتدة إلى مرمى النظر. كأنه دخل الجنة. سارا يمينًا بجوار السور فوجدا طاحونةً قديمة تنام بين الأشجار والزهور، خلفها مرعى للغزلان. دارا حول مبنى الطاحونة القصير، المستدير، ثم جلسا على عتبة بابها الصغير المغلق، المقوَّس من أعلاه. المكان خالٍ وليس أمامهما إلا حظيرةُ غزلانٍ، وزروعُ زينةٍ، وأملٌ فسيح. عتبةُ الباب درجتان، تكفيان بالكاد لجلوسهما متلاصقَيْنِ في هدأة هذا السكون السماويِّ الهانئ. أمسكت نورا بكفِّه وأدخلت «الدبلة» في إصبع المتزوِّجين، الأيسر، ثم مدَّت إليه يدها اليسرى الرقيقة وهي مستسلمةٌ، فأدخل في إصبعها الدبلة الأخرى، فقبَّلتها من فورها ومالت برأسها إلى كتفه، ثم أحاطت ذراعه اليسرى بذراعيها كأنها تحتمي به. لما لمس بطنها وصدرها المهتاج، بزنده، غمرته نَشْوةٌ وصَبْوةٌ، وارتجافاتٌ لم يعرفها من قبل. دار رأسه وأسكره المآل، حتى ظنّ أن هذا الحال لم يمر قبله بإنسٍ ولا جنّ.. المحبون أبدًا حالمون، وبأحلامهم محجوبون.

مال على رأسها بجانب وجهه، فغرق وهو معصوب العينين، في شعرها غير المعصوب. لو رآهما الآن إنسانٌ لظنَّ أنهما لوحةٌ مرسومةٌ، ساكنةُ الظاهر، مع أنهما في الباطن يلتهبان بوهج الوجد وفَوْرة الاشتياق. بعد لحظاتٍ هَبَّ بصدريهما الإعصارُ وتعالت دقَّاتُ القلبين الخفَّاقين، فتماست الأنحاءُ وتلامست الشفاهُ وانفرجت من بعد العصر، فانفلتت الزفرات وحُرقات الآه. ردَّته نورا عن حضنها بباطن كفيها، وأطرقت بوجهها المتوَّج بالشَّعر الوفير المتهدِّلة خصلاته، فقام يتلفَّت خشيةَ مرور أحد العابرين. دار حول الطاحونة

وعاد ليجلس ثانيةً بجوارها، عساه أن يمسَّ حَرَّها من جديدٍ بعدما اطمأنَّ لكمال الخَلْوة وسكون المكان. لكنها قامت فأخذته من يده من دون كلام، وسارا كالسكارى في قلب الجنة التي كانت دومًا دانيةً، لكنهما كانا عنها يغفلان. بين الأنحاء المجاورة للجدار، وتحت الأشجار، رأى من بعيدٍ عناقَ المحبين، والعُشَّاقَ المحرومين، والكافرين بالحرمان.

المتنزهُ محلُّ النوال.

بدت لهما أبراجُ قصورٍ ترتفع فوق قمم الشجر وتلامس السماء، أخبرته نورا بأنها مبانٍ مَلَكية كان يعيش فيها ملك مصر المخلوع بثورة الضباط الأحرار، جدًّا. جلسا بجوار القصر الكبير المشرف من فوق ربوةٍ خضراء، على البحر القريب الحاني. المحيط بالمكان كالحارس. عند حواف الشطآن والخلجان رأى موجَ الماء يضرب الصخور الراسخة، برقَّةٍ ومحبة، فكأنه يدعوها لعناقٍ مستحيل. وبين الصخور الشاطئية يُزهر بالوردِ الأحمرِ نباتٌ ملتفُّ القضبان، أخضر، يرتمي فوق الصخور ويفترش ما حولها كأنه يحتضن الأرض ويتستَّرُ بالسماء. سوف يعرف بعد سنين أن اسم هذا النبات «حيّ العالم» لأنه حسبما قال القدماءُ، يظل حيًّا تحت أي ظروف، ما دام العالم حيًّا.. دارت برأسه أفكارٌ ناعمةٌ، رقيقة، كان آخرها السؤالُ: هل خلق اللهُ أجمل مِنْ هذا المكان؟

ـ نورا، نفسي نسكن هنا على طول.

ـ ياريت كان ينفع يا نور العين، بسْ ده شِبه مستحيل.

ـ ليه ؟ كل شيء ممكن..

أفهمته وهي تضحك، أن الأحلام ممكنةٌ لأنها لا تكلف الحالم إلا التخيُّل والأمل، أما الأمكنة والمحالُّ فتحتاج مع الحلم اقتدارًا وكُلفة. وسُكناهما هذا المكان أشبه بالمستحيل، لأن الذين طردوا الملك وأسرته أخذوا قصورهم وجعلوها لهم بيوتًا ومصايف. وهذه المنازل الصغيرة التي تلامس حواف البحر، اسمها الكباين، وهي للوزراء والضباط الكبار وفاحشي الثراء.. نورا رأت الأسى يسرع إلى ملامحه، فترفَّقتْ وأضافت متلطِّفةً أن بإمكانهما السكن في حيٍّ قريبٍ جدًّا من هنا، اسمه المندرة، ويأتيان إلى المنتزه كل نهار.

ـ وندفع كل مرةٍ تذكرة؟

ـ نشتري يا حبيب قلبي كارنيه، وندخل وقت ما نحب.

ـ فكرة حلوة، والكارنيه ده غالي ؟

ـ ممكن نسأل عند البوابة واحنا خارجين.

دارا في الجنة الفسيحة متشابكي الذراعين، كمتزوجينِ، وقد بدا لهما أنهما اقتربا اليوم واقترنا، وكان البحرُ والسماءُ على ذلك يشهدان. سألها هل في حياتها لحظةٌ أجمل مما يعيشانه الآن، فنفتْ. وسألته إن كان قد أقام من قبل علاقةً، فنفى.. قالت وهي تنظر إليه بطرف عينيها الضاحكتين، الساحرتين:

ـ يا سلام، وكنت بتتصرف إزاي مع الأجنبيات؟

ـ أنا لا كنت بتصرَّف مع أجنبيات، ولا غير أجنبيات.

أكَّد لها صدق كلامه بذِكْر الحديث النبوي الذي طالما ردَّده عليه الحاجُّ بلال، وأورده لها كاملًا: سبعة يظلهم الله بظلِّه يوم لا ظل إلا ظله، الإمام العادل، وشابٌّ نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلقٌ بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجلٌ دعته امرأة ذات منصبٍ وجمالٍ فقال إني أخاف الله، ورجلٌ تصدَّق فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه.. نظرت نورا إليه مستغربةً، ثم أبدت له دهشتها من أن هؤلاء السبعة، جميعهم رجال، فقال:

- يا نورا وأنا مالي، هو الحديث كده.

- أيوه يعني، طيب البنات والسِّتات الغلابة دول، مالهومش يومها أي ظلّ.

لم يعرف كيف جاوبها، فصرف نظرها عن الموضوع بتغييره، وهيَّم قلبها بكلمات المحبة، فهامت.. قبل قيامهما وقت نزول الشمس لتنطفئ في البحر، كانا قد اتفقا على سكناه بغرفةٍ قريبة من المنتزه، بدلًا من كرموز؛ حتى لا يتحرَّج أبوها إذا رآه هناك أو رآهما أحد من الجيران فأخبره، فقد صار الآن يعرف ما بينهما. عزما على أنهما سيبحثان من الغد عن السكن الجديد، وقد فعلا. وأكَّدا أنهما سيطرحان ما بينهما من الحُجُب، وقد هتكا. وتعاهدا على التوحُّد حتى آخر العمر، وقد سعيا.

بعد يومين ترك كرموز وسكن غرفةً ضيقةً بعشوائيةٍ تقع خلف سور المنتزه. وبعد أيامٍ اشترى بطاقتي الدخول بمائتيْ جنيه، فصار قصر المنتزه قبلة اللقاء اليومي ومنتهى المنى. كانت نورا تأتي معها

بالجرائد والمجلات كي تتابع الأحداث وتستعد حسبما قالت، للعمل في الصحافة. فصارا يتندَّران على تشابه الموضوعات في الجرائد اليومية، يوميًّا، ويضحكان من تفاهة أخبارها المتكرِّرة عن «البقرة الضاحكة» ورجال الحكومة ولاعبي الكرة وتوافه الفنانين. صفحة الوفيات هي الوحيدة الصادقة، التي تتغير بالضرورة كل يوم. قالت نورا إنها حين تجد الوظيفة، سوف تقدم للناس صحافةً حقَّةً تهتم بالمحكومين لا الحاكمين، ولن تكتب إلا بقلمٍ عامرٍ بحبر الحب. هكذا قالت، غير أن الأمر الذي كانت تظنه سهلًا ميسورًا، ظهر لها لاحقًا أنه بخلاف ذلك.. بعد شهرٍ، قالت له ساعة العصر وقد ضاقت أمامها سُبل العمل:

ـ تخيَّلْ. مدينة فيها خمسة مليون بني آدم، وملهاش جرنان واحد.

ـ ممكن يا نورا تشتغلي في مكتب فرعي لأي جرنان.

ـ سألتهم كلهم، قالوا: مش محتاجين صحفيين.

ـ طيب وبعدين؟

ـ هاحاول أنزل مصر، وأشوف.. يمكن.. واللهِ شكلي كده في الآخر، هاعمل جرنان لوحدي.

الفكرةُ العفوية قالتها نورا مازحةً، لكنها ما لبثت أن شرعت فيها بعد أيامٍ، فكانا يضحكان كالصغار وهي تقرأ عليه موضوعات جريدتها المتخيَّلة التي أسمتها «نور الحقيقة» وجعلت صفحتها الأولى لأصدق الأنباء وأبعدها عن التزييف: الوفيات.. عند حوافِّ البحر الهادئ، كانت نورا تجلس قبالته، وقد طوت تحتها قدميها وهي تقرأ عليه بعينينِ تبتسمان وذراعينِ تتحركان في الهواء مع

الكلام، ما أعدته للنشر في صفحة الوفيات وفي بقية الصفحات، فكان مما تقرؤه عليه:

«البقاء لله، وللبشر الفناء» بحمد الله توفيت إلى رحمته السيدة «سيدة» حرم زين العين عياش، الموظف بالمعاش، الراجي من جيرانه أن يختشوا على دمهم ويملأوا السرادق الليلة. والست «سيدة» أخت حسنين ومحمدين وعوضين ولطيفة وخفيفة، الموظفين الأبديين بالهيئة العامة للمصالح المرسلة. وعديلة «اعتدال» أخت «ابتهال» زوجة حسن الأصلع، التاجر بوكالة الليمون والكتالوب..

ـ يعني إيه كتالوب؟

ـ حاجه اخترعوها كده، زي الشمام. اسمع بَأَه.

وأبناء المرحومة «سيدة» ثلاثة، البكري «سمسم» الطالب الأزلي بالمعهد العالي لإدارة الأزمات المفتعلة، وأخته «سوسن» بالمعهد المتوسط للاستشارات المجانية. وآخر العنقود «حمُّو» بالمعهد الواطي للتشييد والبناء بسواعد الأبناء. والعزاء الليلة في منزل الأسرة. لا أراكم الله مكروهًا في عزيز لديكم. يعني يعيش الأعزاء عليكم إلى الأبد، وتموتوا قبلهم.

* * *

قبل عودته إلى أسوان بأسبوعين عاد «مفتاح المبروك» إلى الإسكندرية، بعدما استراحا منه وكادا ينسيانه. لكن زوجة أبيها لا تنسى ولا ترحم. جاء بهدايا كثيرة، مع وعدٍ بشراء شقة لنورا على البحر بمائتي ألف جنيه، تكون مهر زواجها. أبوها لم يعلِّق، وزوجته

أفاضت في التعليقات، ونورا التزمت الصمت، والعاشق أغرقه القلق:

ـ وبعدين في الموضوع ده يا نورا، ارفضي وخلاص.

ـ الحكاية أصعب من كده.. وياريت نقفل الموضوع دلوقتي.

ـ الموضوع هايفضل مفتوح لحد ما ترفضي، ونرتاح.

ـ خلاص والنبي. كفاية كلام، تعالي نقعد عند البحر..

قاما من جوار قصر المنتزه إلى اللسان الصخري الممدود في الماء، ومن فوقه تقوم أعمدة تشبه الآثار القديمة. النوارسُ المحلِّقة تحوِّم فوق صفحة البحر بأجنحة القلق، وقلبه المحاصر يرفُّ في حبسه بأجنحة الضيق. جلسا صامتينِ وفي رأسيهما يدور الاضطرابُ والوجلُ من المجهول، الآتي، حتى طفرت فجأةً في أفق العشق فكرةٌ جامحة. أخرج من محفظته الموس المدسوس لحين الحاجة، فاندهشت. شقَّ في باطن كفِّه اليمني جرحًا صغيرًا، فاندهشت أكثر. أمسك باطن يدها اليسرى وأفهمها أنهما الآن سيتزوَّجان، مثلما كان البشر يتزوجون في الماضي السحيق، فضحكت وهي تصفه بالجنون.

ارتضت نورا بالطقس البدائي ومدَّت يدها إليه فشقَّ فيها برفقٍ، جرحًا صغيرًا، ثم أطبقا الكفين حتى تختلط في العروق دماؤهما، وتجري في جسمين سوف يصيران من الآن جسمًا واحدًا. طيورُ البحر شاهدةٌ على زواجهما السحري، والسماءُ، والأعمدةُ العالية، وقلبان يخفقان. لحظتها شعرت نورا بأن فتاها الأسمر يغوص في باطنها فيملؤها بعشقٍ عامرٍ، غامر، وشعر هو بدمها يهمس إلى قلبه بأنها قد صارت له، ومهما حدث فلن ينفصلا.

أخرجت نورا من حقيبتها زجاجة الماء الصغيرة، وغسلت عن كَفِّه نقطة الدم التي سالت، وقبَّلت جرحه، فضمَّها برفقٍ إليه. أمالت رأسها إلى كتفه وبكفَّيها احتضنت راحته، وسكنت مثل حمامةٍ حنون حطَّت في العُشِّ الآمن.. طال سكونها فاشتاق لرؤية وجهها، فرفعته إليه وأشرقت عيناها، فرأى فيها بين الألوان البهيجة فراشاتٍ تطيرُ،

وسحاباتٍ بعيدةً
وشجيراتِ وردٍ يحوطها حريرٌ،
وأحلامًا ناصعةً
غسلها بالحب صحوٌ مطيرٌ،
وفرحٌ غافلٌ وفيرُ

ظهيرة اليوم التالي أقبلت نورا عليه تزفُّها نسماتٌ رقيقة، تؤرجح مع مشيها الغزلاني خصلات شعرها الساحر الفتَّان. جاءته لامعةَ العينين مشرقةَ البسمة، مملوءةً بالأمل كحال كلِّ عروس. سألها إن كانت قد رأته بالأمس في الحلم، مثلما رآها، فابتسمت وهي تقول إنه لا يغيب عن القلب والبال، ليلًا ولا نهارًا، لكنها لم تحلم بشيءٍ لأنها لم تنم منذ الأمس إلا ساعتين.. لماذا؟ لأنها عادت بالأمس بعد افتراقهما المؤقَّت مملوءةً بفرحة القِران السحري، فمرَّت على «أمل» وأخذتها معها إلى البيت وبقيتا ساهرتينِ تبتهجان حتى اقترب الفجر. أمل كلامها عسل. ظلت طيلة الليل تستزيد وتستخبر عما جرى بالأمس، وهي تنفض الهواء عن قميص صدرها، وتقول لنورا كلمات من مثل: أيوه، قولي كمان، اشجيني، يارب إبعت.. حتى أعادت عليها حكاية جُرح الزواج البدائي، مراتٍ، ولما انتهت نورا

من إلهاب فؤادها بتفاصيل التفاصيل، قالت أمل مازحةً: بدل كل ده، كنتم تضربوا ورقة عُرفي..

ـ كان قصدها إيه يا نورا؟

أطلقت ضحكتها التي تُسعد الكون كله، ثم طوت على رصيف البحر ساقها تحتها، حسبما تحب الجلوس أمام أمواج المنتزه وصخوره، وراحت تشرح له مقصود صديقتها: شوف يا نور عيني، لو رجعنا للمعاجم هانلاقي كلام العلماء واضح جدًّا، قال لك إيه «إضربوا» يعني اكتبوا بسرعة، والورقة يعني عقد الجواز، والعرفي يعني من غير مأذون..

ـ طيب وماله يا نورا، يللا نضرب ورقة.

تمايل رأسها مع الضحك حتى استراحت على صدره، فأحاطها بذراعه وقد خايله الشعور بأنه يمتلك الآن الكونين، ويمسك بالأمس والغد. الوهمُ أبهى من الحقيقة، وأحلى. بعد حينٍ سألها إن كانت قد قررت زيارة القاهرة للبحث عن فرصة بجرائدها، فقالت إنها أجّلت الأمر لحين عودته إلى أسوان، كيلا تنشغل عنه بأيِّ شاغل. احتضن راحتها اليسرى، ثم سألها إن كانت ستقرأ عليه جديدًا من جريدتها، فعاودت الابتسام وهي تقول متردِّدةً إنها كتبت صباح اليوم الأخبار المحلية والعالمية، ونشرة الكتب الصادرة مؤخرًا. أراد الاستماع فتمنَّعت وهي تقول «بعدين» لكنه أصرَّ فاستجابت له مع ضحكاتٍ بريئةٍ، ومتمهِّلةً أخرجت من حقيبتها الأوراق لتقرأ عليه أخبارها الساخرة:

* * *

ن.ح.ن.ح. وكل الوكالات: دعا الرئيسُ الأمريكيُّ على الإرهاب

دعوة وليّة في ساعة مغربية، وكنس السيدة تيريزا على المتطرفين والإرهابيين، ببركة كل الأولياء والمشايخ والقديسين وكبار الفنانين. حتى يخلو العالم من جميع المعارضين وتستطيع أمريكا، ست الكل، سحب خيرات البلاد الفقيرة والنامية، والحابية، والماشية تاتا تاتا.

أنباء محلية: صرَّح المصرِّح المعروف سمين المستوي، أن الملامح الغامضة لخطَّة الحكومة في المرحلة القادمة تتلخَّص، وتتخلَّص من الآخر، في الأهداف التالية: زيادة المرتبات ورفع الضرائب، الاهتمام بالفقراء وإهمال الأغنياء، ضغط إنفاق الدكاكين للوصول بها إلى حدِّ الكفاف، مراجعة ميزانية التعليم المفتوح على البحري، تشجيع صادرات مصر من الكنافة والحلاوة العسلية، استصلاح أسطح بيوت الناس لزراعة الأناناس، بيع الآثار بدل الحوجة للمعونات، تطوير تقاوي القطن معدوم التيلة، زيادة محصول العنب باقتلاع البناتي وزراعة الأولادي.

* * *

..كانا يضحكان بملءِ القلب والفم، وكان موجُ البحر يضحك معهما، والكون كله، وقد نسيهما الزمانُ حينًا فمرّ الوقتُ رحيمًا هانئًا، وسارت بهما أيامُ الصيف الأخيرة على منوالٍ مريح. في الصباح الباكر يركب الأوتوبيس من الميدان الصغير المواجه لبوابة المنتزه، ويجلس بالجهة اليمنى ليرى البحر بطول الطريق حتى يصل إلى ميدان المنشية، ويلقى نورا هناك ويعود معها إلى المنتزه. جنة العاشقين. ويركب معها في آخر اليوم ثانيةً إلى المنشية، ثم يعود في الليل وحده، ليعاود الكرَّة من جديد في اليوم التالي.

كانا يجلبان معهما زادهما اليوميَّ الزهيد، لقيماتٍ محلاةً بقبلاتٍ

خاطفة أو عاصفة، مع أملٍ مديدٍ لاحت بشاراته. لا يفصلهما الآن عن الزواج إلا عشرة آلاف جنيه لشراء شقة في أسوان العام القادم، ومثلها في العام التالي لشقة الإسكندرية، وبذلك يفي بوعده لأبيها ويعيشان هنا صيفًا، وشتاءً بأسوان. لم يعكر صفو الأيام الرائقة، إلا بعضُ الشوارد وأشباه المشكلات، لكنه على يقينٍ من أنها سوف تُحلّ بيُسرٍ في الوقت المناسب. فمن ذلك أن أمه حزينة في أم درمان؛ لجفوته، لكنه سوف يسترضيها بزيارةٍ سريعة بعد عودته من الإسكندرية، ولسوف يقنعها برفقٍ بزواجه من نورا.. أبوها لم يعد يكلمها كثيرًا مثلما كان، لكنها سوف تحايله حتى يؤمن مثلها بأن الحب أغلى ما في الوجود، فيتحمَّس لزواجهما. زوجةُ أبيها حانقةٌ، تحتالُ عليها بالكلام المعسول لتعرف السرَّ البادية شواهده، لكن نورا لن تخبرها بأي شيءٍ إلا في الوقت المناسب. الإسكندرية ليس فيها فرصة واحدة للعمل بالصحافة، لكنها سوف تواصل البحث حتى تصل إلى ما تتمناه..

في الصيف التالي وجد نورا قد ازدادت سُمرةً وشحوبًا، وأدهشه أنها صارت تغطي شعرها بالسِّتْر المسمَّى في مصر «حجاب». بدا له أن بعضًا من فواكه أرضها ضمرت، وكثيرًا من الألق قد احتجب. سألها مستغربًا سبب إخفائها خبر تحجُّبها، وهما يتكلمان طيلة الأيام الماضية بالتليفون. فقالت إنها أرادت أن تفاجئه، وهي لم تغطِّ شعرها بهذا القماش، وتتركه من تحته يغلي، إلا الأسبوع الماضي. هكذا قالت، ثم سألته: المهم، إيه رأيك في شكلي كده؟

ـ حلو يا نورا، حلو، بس المهم يكون عن اقتناع.

ـ اقتناع.. آه، يظهر إني لازم أقتنع اليومين دول بحاجات كتير.

بعد أيام، وبينما هما جالسان في الموضع المعتاد بالمنتزه، باحت له نورا باعتقادها بأن هناك مَنْ يراقبها، فاستغرب كلامها. أخبرته بأن زوجة أبيها ظلت تلحُّ طيلة الشهور الماضية لتعرف مكنون السِّرِّ، ثم راحت تُلمح إلى أنها اكتشفت سبب غيابها اليومي أيام الصيف. صارت أجواءُ بيتها غريبة، وكلما صخبت عليها «الوزَّة» التزم أبوها الصمت ودخل غرفته، بينما زوجته تذيقها مُرَّ الكلام.. سكتتْ نورا حينًا ثم تلفَّتت إلى الخلف، حيث شجر المنتزه وزروعه الكثيرة، وتنهَّدت قبل أن تقول: لا بد أنه «الزفت» فقد ذكر لها الشهر الماضي، صراحةً، أنه يعمل مع المخابرات الليبية.

ـ إحنا مالنا يا نورا بالمخابرات، إخلصي من الموضوع وقولي للراجل إننا بنحب بعض، والسنة الجاية ميعاد جوازنا.

ـ من هنا للسنة الجاية ربنا يفرجها، خلاص غيَّر الموضوع.

لم يتغير شيء في الشهور التاليات، لا بالإسكندرية ولا بأسوان، سوى أنه أخذ يعمل أكثر ولا يتوانى عن الخروج مع أيِّ فوج، ويقتصد حتى يجمع المال اللازم لتحقيق الأمنيات. كما أمسى صديقًا لسهيل العوَّامي، يجالسه في الأمسيات ويأنس فيحكي له كالحالمين عن حبه لنورا، فيسمعه سهيل باهتمام، ومتفهِّمًا يجاريه بالكلام عن مسالك العشق. للعُشَّاق وَلَعٌ بالاستماع. سأله حمدون عن سرِّ صداقته الجديدة مع سهيل، وجلوسهما المسائي الدائم بالمقهى، فقال له: أبدًا، الملل يا خال، ما في شيء غيره.. تقبَّل حمدون تلك الإجابة وأوصاه بالانتباه لعمله، ورعاية أمه المسكينة، ولم يعد يكلِّمه في هذا الأمر. حمدون عمومًا، لا يتكلَّم كثيرًا في أيِّ أمرٍ.

في منتصف الشهر الأول من العام ١٩٩٦ كانت الأفواجُ والرحلاتُ حاشدةً بأسوان، فكان يعمل بلا انقطاع مرشدًا أو مندوبًا. ويلتقي بسُهيل مساءً في الليلات الرائقة، مستمتعًا بقصصه الكثيرة وبالشيشة التي أمسى يشربها معه. لكنه لم يشاركه شُرب البيرة. في أمسيةٍ سعيدةٍ، كانا يتسامران كالمعتاد حين أتى نحوهما «إبراهيم المخبر» يهزُّ عصاه. حيَّاه سُهيل بحرارةٍ ودعاه للجلوس معهما، وشُرب شيء، فتمنَّع المخبر وهو يقول لسهيل بلسانٍ ساقعٍ لاذع:

ـ إنت عارف، أنا بحب حقِّي ناشف.

استدعاه المخبرُ بإشارةٍ من طرف عصاه، ثم استدار، فقام خلفه مضطرب البال ولم ينتبه للاستئذان من سهيل. كان مرتبكًا. سار وراء المخبر متباطئ الخطو حتى وقفا عند الرصيف، وعلى حافته الأخيرة راح الرجلُ البارد يضرب بطرف عصاه، طرف جلبابه، ثم أخبره بأن الضابط «أحمد بيه» يريده في المكتب غدًا: بقولك إيه، تيجي الصبح بدري، إوعى تتأخَّر يا راس العبد.. عاد إلى كرسيه مهمومًا، مقطِّب الحاجبين، وحكى ما كان فظهر على وجه سهيل القلقُ قبل أن يقول:

ـ اسمع يا زول. المخبر ده والضابط بتاعه، فلاحين ولاد ستين في سبعين. وناس مؤذيين. إنت لازم تقول لحمدون علشان يتصرَّف، قُوم كَلِّمه بالتليفون دلوقتي.

كأن حمدون كان يعرف؛ لأنه لم يندهش، وأكَّد عليه بصوته الصارم ونبرته الآمرة المعتادة، أن يذهب إلى الضابط في التاسعة صباحًا، ويسمع منه جيدًا ولا يتكلم كثيرًا؛ لأن الكلام يجلب المشكلات. وبعد لقائه بالضابط، يمرّ عليه في المكتب ليخبره بما جرى في اللقاء..

ـ بس أنا قلقان يا خال، وعندي بكره شغل.

ـ أنا هاتصرَّف في موضوع الشغل، وانت بلاش قلق لحد ما نعرف الحكاية إيه.

كان عند الضابط في الموعد، فوجده في أول اللقاء ودودًا.. حين رآه «أحمد بيه» دعاه للجلوس على الكرسيِّ القريب، وقدم له سيجارةً اعتذر عنها فأشعلها هو، ثم أخذ يسأله بلطفٍ عن الأحوال وعن بعض الناس الذين يعرفهم، فكان يجاوبه بأقل الكلمات المبهمات. بدأ الضابطُ ينظر نحوه كالمستريب، ونفث عاليًا دخان سيجارته وهو يخبره بأنه يحتاج إليه في مهمة: سيأتي من القاهرة يوم الأربعاء فرد مخابرات و ضابطان، يريدان الذهاب إلى دارفور آخر الشهر، وأريدك أن تذهب معهم لترشدهم هناك.

ـ بس دارفور في الغرب، وأنا معرفش النواحي دي. وبعدين دي كلها مشاكل، وأنا ما أقدرش أروح هناك.

ـ بقولك إيه، هوَّه انت يعني عاوز تقعد عندنا وتستفيد وبس. خُد بالك، أنا لسَّه من يومين ماضي لك على تجديد الإقامة، إنما ممكن ألغي الإمضا.

ـ والله يا أحمد بيه أنا ما عرف أي حاجة هناك، حتى كلامهم ماعرفوش.

ـ يعني إيه. هوَّ انت مش سوداني زَيُّهم ولا إيه؟

ـ يا أحمد بيه أنا أصلًا من الخرطوم، وعايش هنا من سنين زي ما حضرتك عارف. ومعنديش علم خالص بدارفور، وعمري

ما رُحت ناحيتهم، ولا اعرف هناك أي حد.

ـ وبعدين معاك.. طَبْ امشي إنت دلوقتي، وهانشوف. على فكرة، الواد عبد العال صاحبك باين عليه راح أفغانستان، وشكله كده هايموت هناك فطيس.

ـ ربنا يا بيه يهدي الجميع.

* * *

على غير عادته، استمع حمدون إليه باهتمامٍ حتى انتهى من حكاية الكلام الذي دار مع الضابط، ثم هَمْهَم باقتضابٍ قائلًا: دارفور، يعني اللعب ها يبدأ هناك.. سهيل استمع له في المساء باهتمامه المعتاد، وطمأنه بأن حمدون سوف يتصرَّف في الأمر:

ـ هايتصرَّف إزاي بس يا سهيل؟

ـ واحنا مالنا يا زول، يتصرَّف وخلاص. المهم كلِّمت نورا النهارده؟

ـ آه، ولقيتها زعلانة علشان موضوع الشغل.

ـ شغل إيه، ياعمّ خلِّيها تركِّز في موضوع جوازكم، أهمّ.

في الأيام التالية اقترح عليه سُهيل الإسراع بإيجاد الشقة، لتفرح نورا بذلك وتطمئن، فقد طال الأجل وخفت الأمل. وراح في الأيام التالية يثير حماسته ويساعده في البحث، حتى وجدا منـزلًا لا يزال تحت الإنشاء، فاتفقا مع صاحبه على شراء شقته الأرضية ذات الحجرات الثلاث. البيتُ بأطراف أسوان، حيث البيوت الهادئة

الفوَّاحةُ ظهرًا برائحة الطعام الشهيِّ الذي سيكون إذا أعدَّته نورا، أشهى. الشقة مرتفعةٌ عن الشارع بخمس درجات، وفي غرفها اتساعٌ ورحابة تشرح القلب، وتعدُ الساكن بالسعادة. دفع عشرة آلاف ليشتريها بالنظام المسمَّى نصف تمليك. نورا فرحت بالخبر بأقل مما توقَّع، وكان خط التليفون مشوَّشًا فلم يفهم كل كلامها. اتصل بها في اليوم التالي فأكَّدت له أنها سعيدة بخبر الشقة، لكنها مغتمَّةٌ لأن أباها منعها من السفر إلى القاهرة مجدَّدًا لإيجاد الوظيفة التي تريد، وهي أيضًا زهدت في السفر ويئست من تحقيق الأمنية التي طالما راودتها.

بعد دخول الصيف وانتهاء الموسم السياحي، سافر إلى السودان لزيارة الأهل وبقي معهم شهرًا، مع أنه أخبر نورا تليفونيًّا بأنه سيقضي هناك عشرة أيام فقط، لكن العلائقَ صارت عوائق. كان قد ادَّخر الجنيهات الألفين اللازمة لرحلة الإسكندرية القادمة، علاوة على المبلغ الذي دفعه في الشقة والمبلغ الذي أعطاه لأمه، وثمن الهدايا والملابس التي اشتراها لإخوته والأخوات. الحمد لله. بعد أيامٍ من وصوله منـزل أسرته، وفي ليلةٍ بدت أول الأمر رائقةً، عرض على أبيه وأمه أمر زواجه، وأفاض في بيان محاسن نورا بكل ما أوتي من قدرةٍ على التبيان. سكت الأبُ والأمُّ بكت. لماذا تبكي الأمهات كثيرًا، ويسكت الآباء؟ الوحيد الذي تفهَّم وشاركه الأمر، هو أخوه الأصغر «سفيان» الطالب بكلية الحقوق، الحالم بزيارة القاهرة والإسكندرية.

مرَّت الأيامُ السودانية عليه ثقالًا، حتى أيقن بأن الوقت لم يحن بعدُ للحصول على موافقة أمه البكَّاءة، وأبيه الصموت. الأمر يحتاج

وقتًا كافيًا لإقناع الجميع بزواجه من نورا، لكنهما في النهاية سوف ينتصران. في طريقه الطويلة من أم درمان إلى الإسكندرية، توقَّف بأسوان يومين ليطمئن على العمل الجاري في شقته، ويجالس «سُهيل» ويستشيره في المستجدَّات، ويشتري لنورا الحليَّ التي تحبها. نصحه سُهيل أن يكون في الإسكندرية حَذِرًا من الرجل الليبي «مفتاح» لأن ما حكاه عنه، يدل على أنه رجلٌ خطير. ونصحه بأنه ما دام قد شرع في موضوع الزواج، فعليه أن يخبر حمدون بذلك مبكرًا، ليكسبه في صَفِّه.. ذهب في الصباح التالي إلى المكتب السياحي، الخالي، وأخبر الخال حمدون بالأمر فلم ينصت له باهتمام، ولم يكلِّف لسانه إلا بعبارة:

ـ بلاش كلام فاضي.

ـ ليه بس يا خال. البنت كويسة ومن توبنا، اسمها نورا وأبوها..

ـ سيبك من الحكاية دي، وماتزعَّلش أمك.

في طريقه إلى المحطة اشتري الحليَّ الفضية المحلاة بالفيروز، وجعرانًا يرمز إلى الأبدية التي ترمز إلى حُبِّه لنورا. عندما تحرَّك به القطار الذاهب إليها، عَزَمَ على أن يخبرها بأنه في الأيام القادمة سوف يأتي إليها كل شهر، بالطائرة، فيقضي معها يومين ويعود كي يعود إليها، حتى يتم الزواج.. كانت تنتظره على محطة «سيدي جابر» بوسط الإسكندرية، وذهبا من فورهما إلى حي «المندرة» ليستأجر مسكنًا، فوجدا هذه الشقة القريبة نسبيًّا من البحر. بأربعمائة جنيه. بإمكانه استئجارها في الشتاء بمائة جنيه فقط، لكنه الموسم، حسبما قال البوَّاب.

دخلا الشقة خلف البواب الأعرج، وفي الإصبع الأيسر «دبلة» المتزوجين، فوجدا المكان مريحًا ويستحق الإيجار المرتفع، فدفع. خرج الرجل فخلا لهما المدى. أيُّ عطشٍ ذاك الذي كان يشوي في الشتاء قلبيهما، وأيُّ ارتواءٍ تمَّ صيفًا من بعد طول الظمأ!

بعدما أغلقا الباب عليهما لأول مرة، دعته نورا وهي تزيح عن شعرها الحجاب، إلى الاستحمام بسرعة كي يلحقا الشمس بالمنتزه قبل غروبها، وقامت هي لترتيب البيت وتغيير ملاءات السرير وإخراج حاجياته وصفِّها في خزانة الملابس.. خرج من تحت الدُّشِّ منتعشًا، فوجدها تنهمك فيما تقوم به. جسمها جميل. وقف حينًا يتأملها وهي تضفي على الأشياء رونقها، فهامَ، ولما اقترب استدارت عنه باسمةً فاحتضنها من خلفها. ذابت بين ذراعيه. جلس على طرف السرير وبقيتْ أمامه واقفةً، مثل ميريت آمون، وهي تُبيح لنظراته الطائشة التهامها. الاشتياقُ غلبه فأحاط خصرها بذراعيه، فذابت ثانيةً ثم راحتْ تمنح. أفلتت أزرار قميصها فانفسحت أمامه البحيرات، وحار. نزعت عنها القميص، فرأى النهد الثائر يمورُ تحت حمَّالة الصدر كقطعة نارٍ، فارتجف. أحاطت رأسه بذراعيها وشدَّته إلى صدرها العاري، فارتدَّ رضيعًا. مشبوبًا بالشهوة، محمومًا بالتأوُّه.

نورا هي الشهدُ المصفَّى.

بعدما دار الدَّوَارُ برأسه، وبرأسها، رفعت عنها القيد الفوقيَّ فانفلت نهداها يتمردان. تاهت أنظارُه في النافِرَين، وصبرُه انهار. ألقتْ عنها الستور التحتية، وعنه، فاتَّقدتْ أنحاؤها بلسعات ألْسنةِ اللهب وتكسَّرت تحتهما ألواحُ السرير. هبطا إلى الأرض فصارت

لهما موئلًا وحصيرًا، وبحرًا يُنذر بالغرق فيُطلق من قَلْبها الشَّهَقَات عند اشتداد العناق.. متى تعلَّما هذي الفنون؟ لكلِّ فاكهةٍ وقتُ قطفٍ وأوانُ جَنيٍ، وجنةُ نورا سنح الآن قطافها وآتت أرضُها أُكُلَها، فأقبل عليها بكل ما فيه من جوع السنين. أمام السجين اتسع المدى، وآن للمحروم النوالُ فأطفأ في بئرها الفوّارة ظمأ أيامه، وغسل بالعسل مُرَّ أيامه وظُلم الدهور.

جري المقدور،
وتهتّكت ستور،

ولم يعرف وهو المحبُّ الحائر، أن إفلات الأسير من حبسه كان قرارَ قلبها المحزون، اليائس.. كانت نورا من قبل مجيئه هذه المرَّة، تنوي احتدام البوح. وقد قررت المنح بلا اشتراطٍ، وبلا شعورٍ بإثم؛ لأنها رأت الآثام محدقةً بأيامها المقبلة، ولسوف تحوطها لا محالة.

لم يخرجا من الغرفة حتى توغلا في المساء، ولم يخرجا في الغد العاري من مبتداه إلى منتهاه.. ساعة الغروب صَدَم قلبه السؤالُ: لماذا استسلمتْ نورا بهذا اليُسر؟ سألها بألطف الكلمات وأرقِّها، فباحت له بأن أرضها موهوبةٌ له؛ لأنها تحبه، وهو الأحقُّ بقضم تفاحتها المخبوءة. لم يفهم كلامها، فأضافت أنها لن تكون من بعده إلا حطامًا، فلم يُدرك. أجهشت وهي تقول إن «الزفت» يحاصرها، ويوصي زوجة أبيها بحصارها في أيام غيابه، وقد عزمت على التمرُّد حين رأت أباها مهزومًا ولا حيلة بيده، بعدما أهداه «الزفت» يدًا صناعية تعوِّض ما قطع قديمًا من أصابعه وقد فكَّرت طويلًا ثم قرَّرت أن تعلن للجميع أنها موهوبةٌ لمن تُحبه، وغير صالحة لغيره.. لكن نورا لم تخبره،

رفقًا به، بكل ما فيها من عذاباتٍ تفجَّرت بقلبها حين رأت صدفةً، أمرًا مريعًا يجري بين زوجة أبيها ومفتاح المبروك.

* * *

أمضيا أسبوعين في الشقة المستأجَرة لا يتجنبان إلا الحبل، لأن وقته المأمول لم يأتِ بعد، حسبما كانت نورا تقول. في هدأةٍ بين بدء الفوران وتمام العنفوان، لمح في زوايا عينيها ما يشبه الأسى الحبيس فاستخبر منها ليطمئن، فلم تصرِّح بشيء. ذكَّرها بما تعاهدا عليه قبل سنين، حين قالت إن البوح يُحيي الحب والكتمان يُميته. هزَّت رأسها الجميل وهي آسفة الملامح، وقالت إنها لا تريد مضايقته بما قد يقبضه، فألحَّ، فأفصحت عن بعض ما جرى معها خلال شهور غيابه. قصَّت عليه تفاصيل ما وقع معها خلال الشتاء الماضي، والذي قبله، بينما تسعى جاهدةً بلا جدوى من أجل العمل بالصحافة، وكيف عانت حين كانت تذهب إلى القاهرة، عبثًا. كان مديرُ التحريرِ الأشيبُ ذو الأنف الكبير يحدِّق في جسمها بأكثر مما يهتم بالموضوعات التي تأتيه بها. وفي يوم كئيب أمسك عنوةً بصدرها فانتفضت، وحاول تقبيلها فرفضتْ. أهانته، فطردها. لم تعد بعدها إلى جريدته الحقيرة، ولا إلى غيرها، وهجرت حلمها فأضحت بلا روح. ويومًا من بعد يومٍ، يأست تمامًا عن نوال أمانيها. وغلبها الغثيانُ بعدما رأت، وسمعت، بأمورٍ تثير الخجل وتُبدِّد الأمل.

نورا أفصحت له عن كثير، وهذا أمرٌ مع الرجال خطير.. وحين رأت بعينيه الحيرة من كلامها، والحسرة، أخذها بكاءٌ حارٌّ فاحتضنها حتى هدأت رويدًا، وبعدما عاد إليها الهدوءُ شيئًا فشيئًا، اعتدل من

استلقائه وهو يدعوها بنبرات العشقِ الصادقة، أن توافقه على إبرام عقد الزواج اليوم عند مأذون، ويعودا معًا غدًا إلى أسوان: وبذلك نضع الجميع أمام أمرٍ واقعٍ سوف يتقبَّلونه بعد حين، وصديقي سهيل سوف يساعدنا حتى تستقرّ أحوالنا.

- طيب، وبابا ؟

- ناخده يعيش معانا هناك، ونسكن كلنا في مطرح مفروش، لحدّ ما الشقة بتاعتنا تخلص.

- خلينا نُصبر للصيف، ونشوف.

- وليه يا نورا نصبر، خير البرّ عاجله.

- برّ إيه بس، وعاجل إيه. أنا كده بقيت زي مجرم بيهرب من حاجة خايف منها.

- بلاش تفكري بالطريقة دي يا نورا.

- بلاش انت تضغط عليّا، خلّينا نصبر شوية.

- حاضر يا نورا، نُصبر. المهم في الآخر نكون مع بعض. ولازم تعرفي إني مُش ممكن اتخلّى عنك، أبدًا.

- أكيد يا نور عيني، أكيد.

ظل يخرج معها مساءً لتوصيلها إلى ميدان المنشية، ثم يتأخَّر في العودة حتى ينام البواب، كيلا يلحظ الرجل أو عياله غياب نورا عن البيت ليلًا فتهيج الشكوك. لم يكن البواب ولا عياله يكترثون بالأمر أصلًا. وصارا يقضيان وقتًا قليلًا على شاطئ البحر بالمنتزه صباحًا،

ثم يعودان مسرعَيْنِ إلى بيت الحب بحيٍّ المندرة، فينعمان بإطفاء الاشتياق بالاحتضان. لكن نورا لم تعد قادرة على الخروج اليومي من منـزلها، مثلما كانت تفعل في الأعوام السابقة وما عاد أبوها ينصرها أمام زوجته العميلة للعميل الليبـي، وقد اجتمع الاثنان عليها بعدما افتضحا أمامها وانكشف ما كان من أمرهما مستور الفجور. نورا لا تستطيع المواجهة ولا تقدر على الإفصاح عما رأت؛ رفقًا بأبيها المسكين المستسلم لانهزامه أمام زوجته الرخيصة، وصديق الأسرة غير الصدوق.

الخليج

عاد مع آخر العام ليرى نورا ويبقي بقربها ثلاثةَ أيام فقط، فاستبقته بعدها أسبوعًا أشعره بشتاء الإسكندرية وشدة هوائها، والهوى. وأحسَّ بالعسل السيَّال عند الدفء. ما كانا يخرجان من شقة المندرة طيلة الأيام الحافلة باهتبال النوال، إلا قليلًا، وكثيرًا ما يسكنان السرير لساعاتٍ يتجلَّى فيها من جمال نورا المزيد. وقد راق له إقبالها، وقلة اكترائها بالرجوع مبكرًا إلى بيتها، كأنها لم تعد مباليةً بما قد تلقاه ليلًا من أبيها ومن الإوزة الخائنة. أحبَّ منها الإقبالَ، ولكن حيَّره الإهمالُ وعدم حيطتها من الحمل، كأنها ما عادت تتقيه بل تستجلبه. سألها فقالت باقتضابٍ إنها أيامُ الأمان، وعلَّلت طول بقائها معه بأنها موَّهتْ على الأهل والجيران، بإبلاغهم أنها تعمل بمكتب المحاماة إلى ساعةٍ في الليل متأخرة.

طيب..

بعد أسبوع الجَنْي من الجنَّات سافر إلى أسوان، وانهمك في العمل لعشرة أيامٍ جرت بين يديه على ما يروم ويرضى، اللهم إلا في

المرتين اللتيـن سعـى فيهما للاتصال بنـورا فلم يفلح بسبب عطل تليفون بيتها. هكذا ظنَّ. ثمَّ دخلت عليه السنةُ المشؤومةُ المشار إليها بالرقم سبعة وتسعين وتسعمائة وألف، للميلاد، وسوف يسميها في نفسه لاحقًا: عام الكوارث.

مَرَّ اليومُ الأول من السنة سعيدًا، مع أنه لم يقابل في الليل «سهيل». وفي الليلة التالية كانت الأنحاءُ مزدحمةً بالسائحين القادمين لقضاء إجازات الكريسماس وبداية العام، ومرةً أخرى، لم يأتِ فيها «سهيل» إلى مجلسهما المعتاد بحديقة الفندق، ولم يخبره عن سبب الغياب. هذا عجيب. ليلتها جلس وحيدًا حتى تعدَّت الساعة العاشرة مساءً، ومتمهِّلًا قام وهو يفكر في المرور على منـزل سهيل للاستفسار عن غيابه المفاجئ، ثم صرف النظر وأجَّل الأمر إلى الصباح. عاد إلى بيت الحاج بلال؛ ليرتاح سواد الليل استعدادًا لوهج النهار وصخب الإرشاد، لكنه سمع بعد ساعة من استلقائه دقاتٍ عاليةً على صفيح باب الحوش، فانتبه منـزعجًا ومضطربًا خرج من غرفته، فرأى «الحاجَّ بلال» يفتح الباب لسهيل.. خير، ما الذي جاء به بعد انتصاف الليل؟

رفض سُهيل الدخول معه، فعاد إلى غرفته ودخل على عجلٍ في الجلباب الأبيض وخرج إليه فوجد وجه سهيل كظيمًا، منتفخًا باحمرارٍ قانٍ، يحيط بعينين زائغتين يحتقن فيهما دمعٌ كثير. خير يا سهيل؟ لم يردّ. سار إلى جواره صامتًا حتى خرجا في هدأة الليل إلى ناحية الخزان، حيث يخلو المكان من البيوت والعابرين. وهناك أنزل عليه سُهيل الأخبار الصواعق. زوجته الأولى ذات الأعوام الثلاثين، ظلت تُلمح طيلة الأيام الماضية بأشياء شائنةٍ تشير إلى زوجته الثانية، الأصغر

منها ببضع سنين. سهيل اغتاظ من تلميحها وكلامها المبهم، فضربها، فجهرت في وجهه بأن زوجته الأخرى فَجَرت. بهت من جرأتها، فاستقصى منها الخبر وهو يكيل لها ثقيل الصفعات، فقالت إن الزوجة الصغرى تلتقي بابن عَمِّها «عطية الفرَّان» خفيةً، في الحجرة التي يعيش فيها منفردًا بأطراف أسوان.

توقف سهيل لحظاتٍ عن حكاية الواقعة الهاصرة، وقد اعتصر باطنه الألمُ حتى هبط إلى الأرض متكوِّرًا. دسَّ رأسه بين ركبتيه وذراعيه، وراح يموءُ متألمًا بقوله: آه يا بوي، الذِّل واعر، واعر يا بوي.. بدا سُهيل كمن يشرف على الهلاك، قهرًا، فهبط إليه وضمَّه إلى صدره وهو يربت على كتفه مواسيًا، فانفلت من سهيل بكاؤه. بل راح ينوح كأرملةٍ صارت فجأةً ثكلى. مع أن رجالَ الصعيد يفضلون موتهم، على نزول دمعهم أمام الآخرين.

أراد التخفيف عن سهيل، فهَمْهم بكلامٍ مفاده أنها قد تكون محضَ شكوك، أو هي تهاويم صدرت من باب كيد النساء للنساء، أو لعل الزوجة الأولى تكره الثانية لأنها أجمل منها وأصغر. لكنه ارتبك فقطع كلامه غير المسموع، مكتفيًا بترديد العبارتين: أستغفر الله العظيم، لا إله إلا الله.. بعد ساعةٍ هدأ سهيل، قليلًا، وتنهَّد مراتٍ بحرقةٍ ثم أخذ يقصُّ تفاصيل الفاجعة بلفظٍ مضطربٍ، مُبلَّلٍ بدمع الخزي. قال إنه الأسبوع الماضي أخذ زوجته الكبرى إلى أهلها، كي يتفرَّغ لمراقبة الصغرى من بعيدٍ، عساه يقطع باليقين الوهم. أخبرها بأنه ذاهبٌ إلى الأقصر وربما يبيت ليلته هناك، ثم خرج من أمامها بحقيبةٍ تُوهم بأنه قد يقضي أيامًا بعيدًا عنها. بعدما فارقها مموِّهًا، عاد وكَمَنَ قربَ البيت في

موضع مستور، حتى رآها تخرج ساعة الظهيرة. تتبعها من بعيدٍ فرآها تدخل لدقائق قليلة عند صديقةٍ لها اسمها «زهرة» ثم تخرج من عندها متنقِّبةً، لكنها لم تنجح في التمويه عليه، لأنه يعرف جسمها وطريقة مشيها. سار وراءها متواريًا فرآها تدور حول السوق متلفِّتةً، ثمَّ تهمُّ بخطوها حتى تصل إلى الناحية البعيدة وتدخل عند الفرَّان، فاقتحم عليهما الغرفة بعد لحظاتٍ فوجدها مكشوفة الشعر، ملوَّنة الشفتين.

قفز الفرَّانُ الرقيعُ بملابسه الداخلية من الشباك، وهرب كالفئران، وسقطت الزانيةُ على الأرض كالميتين فأحياها سهيل بركلاته حتى تأوَّهت. التهب جنونه وفتَّش عن سكين ليذبحها، حسبما تقضي الأصول، لكن الجيران كانوا قد تجمعوا بعدما رأوا الحقير يجري بهيئته المزرية. حالَ الناسُ بينه وبين امرأته التي تعالى عويلها. كان يريد أن يخنق الخائنة بيديه العاريتين، غير أن الرجال منعوه عنوةً، والنسوة صخبن بالصرخات. بعد حينٍ دخل عليه الحاج «محمود» كبير العبابدة، وخلفه الشيخ إبراهيم المأذون، وأمام الناس انتهره قائلًا: استهدِ بالله يا وِلِدي، طَبْ هيَّ ضيعتْ نَفْسها وخلاص، ليه تضيع إنت كمان؟ بدا المأذون الحلَّ الأمثل، فوافق سهيل أن يفتح دفتره وأصرَّ على تطليق زوجتيه:

ـ سبحان الله يا سهيل، وهيَّ أم ولادك كان ذنبها إيه؟

ـ وانا يعني بعد كِده هاعمل بيها إيه يا ولد عمي، وكِيفْ هَا طُلْ في وَشْها واكون راجلها؟ هوَّه أنا عُدت راجل خلاص.

ـ يا سهيل صلِّ على النبي..

ـ النبي ماله ومال اللي حصل.

طلعت عليهما الشمسُ مُطفأة البريق، وتأرجحت رأسُ سهيل تحت ضربات الكَرَى، فأخذه إلى بيت الحاجِّ بلال وأرقده على السرير الذي ينام عليه أبوه كلما جاء لأسوان. بعد زفرات مريرة، سكن سهيل فوق السرير وغلبه الوسنُ، فتركه في الغرفة وخرج إلى إرشادٍ مبكرٍ، مثقلًا بهموم الليلة الليلاء.. عاد عند الظهيرة فوجد «سهيل» متكوِّمًا في زاوية الغرفة، وفي عينيه تتراقص نظرةُ المذهول. كان الحاج بلال بالحوش بين أكوام السِّلال، يجلس صامتًا كالجِرار القديمة، لكن الناس خارج البيت كانوا يتساءلون مستغربين ما جرى بالأمس، ومستنكرين. أتى معه بطعامٍ قدَّمه إلى سهيل، فرفض الأكل وظل ساعةً صامتًا، ثم تكلم أخيرًا فقالَ إنه لم يعد له بأسوان عيشٌ بعد افتضاحه، ولن يستطيع العودة إلى بلدته بعد استعلان خِزيه بين الناس.. سكت سُهيل حينًا ثم عضَّ راحته اليسرى فأدماها، وقال مشوَّشًا إنه قد يهرب إلى القاهرة ليدفن عاره بين زحام بَشَرٍ لا يعرفونه، ويواري الخزي.

ـ عار إيه يا سهيل وخِزي إيه. وعلى رأي الحاج محمود: اللي عملتْ العَمْلة دي كانت مداس، وانت رميته وخلاص. فين بس العار يا عم استهدي بالله.

بعد يومين تهامس هنا الناسُ بأن طليقة سهيل الخائنة، اختفت. قال بعضهم إنها هربت إلى القاهرة مع الفرَّان، وأكَّد آخرون أنها ركبت سيارة بيجو إلى الأقصر ومن هناك سافرت وحدها بالقطار، ولا يعلم إلا اللهُ أين ذهبت، وابن عمها الزاني محجوزٌ في مستشفى أسوان بعدما هشَّم بعضهم أضلاعه بعصيٍّ ثقال. لكن الأكثرية يرجِّحون

أن أهل الزانية قتلوها، ودفنوها خلف التلال الشرقية البعيدة. وهم يستعدون لمفارقة أسوان، تلافيًا للاحتقار المحدق بهم وهربًا من التهامس والاستهجان. مساكين. دفعوا ثمنًا فادحًا لذنبٍ ما اقترفوه ولا خطر على ذهنهم اقترافه، لكنه سوف يلاحقهم دومًا.. الخيانةُ فاضحةٌ، والفاحشةُ فادحة.

وهذا المسكين سهيل، كان يلتقي بالأجنبيات الراغبات في تذوُّق الرجال المصريين، أحفاد الفراعنة، ولديه لهذا الغرض قاربٌ نيليٌّ يُرسيه بين الجزر، ويأخذ إليه ليلًا الفاتنات من الزائرات. هو الذي باح بذلك مفتخرًا بما كان يفعل. فلماذا جازت له خيانةُ زوجتيه ولم تُقبل من امرأةٍ كان لها نصف زوجٍ ؟ الرجلُ في هذا الأمر غير المرأة، لأنه يترك منه شيئًا في بدن التي يزني بها، وقد يصير هذا الشيء من بعد ذلك ذريةً، بينما الزانية لا تترك في الرجل شيئًا منها. لا، لا يصحُّ هذا القياس. فالصحيحُ أن كليهما يترك في الآخر الذنب والمعصية، وقد قال الله ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي ﴾ ولم يخصّ اقتراف الزنا بواحدٍ منهما. فالعصاةُ عند الخالق سواءٌ، لكنَّ المخلوقين يخفُّ عندهم الأثر إذا ارتكب الرجل الفعل، ويعظم الجرم إذا فعلته المرأةُ. مع أن هذه الشناعة لا بد فيها من الاشتراك.

* * *

سكن سهيل بفندقٍ فقير بأطراف أسوان، ولم يعد يخرج للإرشاد، فقد تفرَّغ للعبِّ من الخمور القوية ثم الاستلقاء على سريره البائس، كالمحمومين. لم يعد يخرج من بين الجدران إلا بعد انتصاف الليل، فيجوس في الطرقات الخالية حتى الفجر، ثم يعود إلى غرفة الفندق

ليتوارى نهارًا عن الأنظار. بات حال سهيل مزريًا، فوجب عليه وهو صديقه الأقرب، أن يبقى بقربه مواسيًا ويدور معه حيث دار، فلا يفارقه إلا وقتًا قليلًا في الصباح للقيام بجولات إرشادٍ قريبةٍ يعود منها مسرعًا، غير عابئ بتحذيرات الخال حمدون من عاقبة التقصير في العمل.. صارت الأيامُ قاتمةً.

رأى أن «سهيل» فيه ما يكفيه، فلم يجد داعيًا لإخباره بغضب الخال حمدون، ولم يكاشفه بقلقه وحيرته من أمر نورا. ما عادت ترد على اتصاله ولا غيرها يردّ، مع أنه يتصل مرارًا فلا يسمع إلا جرس التليفون. قد يكون معطلًا. لكنها المرة الأولى التي يمضي عليهما أسبوعان من دون أي مكالمة، وإن كان تليفون منـزلها معطَّلًا فلماذا لم تتصل به في المكتب السياحي، مثلما كانت تفعل أحيانًا؟ قلبه يشعر بأن أمرًا مريعًا قد جرى عندها. هل مرض أبوها أو ماتت زوجته، أو أن نورا وقعت في حفرةٍ من حُفر الحياة، وهما الآن من حولها حائران؟ ألطافك يا أرحم الراحمين. لا أحد يردّ على الجرس إلا صداه، ولا شخص ليستمع إلى لوعته وشكواه.

في الشهر الثاني من العام، وصل زوجُ «محفوظة» من العراق، في تابوتٍ هبط بالطائرة مع عشرات التوابيت، مع توصيةٍ بسرعة الدفن وعدم تشريح الجثث. أمسى بيتُ الحاجِّ بلال محلًّا للعويل الدائم، فاضطره الحالُ الجديدُ إلى السكنى بغرفةٍ تجاور «سهيل» في الفندق الحقير الذي لا تخلو أخشابُ حجراته من البقِّ والبراغيث، وتفوح أنحاؤه كلها برائحةٍ لا تحبها الأنفُ، ولا تقدر على اعتيادها.

أمر الله.

قالوا قديمًا إن المصائب لا تأتي فُرادى، وقد صدقوا، فقد نزلت عليه بداياتُ الدواهي تباعًا، ثم تتالت زَرَافاتٍ، وزخَّاتٍ، وفي النهاية انهمرت عميمةً كالسيل. فما كاد سهيل يستفيق، ويترفَّق في شُرب الخمور، ويشير عليه بالسفر إلى الإسكندرية كي يستوضح حقيقة ما جرى في بيت نورا. حتى استدعاه الخالُ حمدون في المساء على عجل، ليخبره بأن «أحمد بيه» ألغى له تصريح العمل، وبالتالي فإن عليه المغادرة فورًا إلى السودان كيلا يتفاقم الأمر، ويحدث ما لا يُحمد عُقباه. قال له الأحسن تسافر بكرة.

ـ ليه كده يا خال، هوَّه أنا كنت عملت إيه علشان اهرب زيّ المجرمين؟

ـ لازم بكرة تمشي. مفيش فايدة مع بتوع أمن الدولة، أنا حاولت معاهم كتير.

ـ طيب وبعدين يا خال؟

ـ بعد شهر ولاَّ شهرين كده، ها اكلِّمهم تاني. ولو خلَّصت المشكلة معاهم، ها اتصل بيك.

في اليوم التالي ترحَّل مُرغمًا، كالمقهورين، إلى جهة الجنوب. ترك خلفه صديقه «سهيل» الآيل للانهيار، ومحبوبته نورا المنـزوية وراء مجهول الحُجب، وبيت الحاج بلال الغارق في الحزن مع المحال الحنون. في طريقه إلى أم درمان، رأى بقلبه أن الصحراوات المحيطة بالبحيرة تبكي، مع الكون كله، والنيلُ خيطُ دمعها المحزون. الشِّعرُ قرينُ الألم. فوق السفينة المبحرة إلى عطبرة، وجد علبة سجائر

فارغة ملقاة فاستخرج الورقة المفضَّضة من قلبها، وكتب على وجهها الأبيض قصيدةً ثم طواها في آخر مصحفه. قال في أولها:

أهذا العذابُ لذنبٍ،
عن غير قصدٍ صار
أم هو يا ربُّ اختبارُ؟
قد توَّهتني دروبٌ بدت كأنها اختيارُ
لكنها كالحياة كلها جبرٌ واضطرارُ
يا ربُّ، قد ساء واسودَّ كالليلِ النهارُ
وانهزم الصبرُ مني،
وانهار الجدارُ

عند غياب الشمس، وصل إلى أُمه فارتمى في حضنها متهدِّم الأركان، وبكى ثم حكى بعضًا مما وقع معه، وعذَّبه، من حيث لم يتوقع. بعدما اشتكى لها بحرقةٍ من ظلم زمانه، وفَاهَ أمامها بما كان يتمناه حتى احتدمت بالنشيج شكواه. بقلبٍ متبِّلٍ بالألم، نصحته أمه بالصبر وأكَّدت أن من المحال دوام الحال ومهما الغمَّةُ اشتدَّت فإنها تنكشف في آخر المطاف، وتنـزاح.. كانت تكلِّمه بلسانها وقد انخلع قلبها حُزنًا عليه، وصار فؤادها فارغًا، فأراحت ابنها البكريَّ بإبلاغه أنها سترضى بالزواج الذي يرضاه، بل ستدعو الله في صلواتها أن يقرِّب له البعيد ويكشف أمامه المستور، ولن تخيب أبدًا دعواتها لأنه تعالى يستجيب لدعاء الأمهات. نظر إليها مثلما ينظر المذهولون، فردَّت إليه بعض عقله بوعدها بأن تتصل غدًا بابن عمها حمدون، لينهي له الأمر المأمول، ولسوف تسافر معه إلى الإسكندرية لخطبة نورا حين يأتي الأوان. وفي الصباح التالي وحتى

الظهيرة، راحت برفق الوالدات تهدِّئ خواطره بإخباره أن محبوبته لو كانت قد انصرفت عنه وتحرَّجت من إبلاغه، لتركت أهلها يعلمونه بالأمر حتى لا يلاحقها. وذلك لم يحدث. فلا يفرط في ملاحقة الهواجس والظنون، فربما انقطع الاتصال طيلة الشهرين بغير إرادةٍ منها، أو لعلها تريد إلهاب شوقه ليسرع بإتمام الأمور. وهذا أمر تعرفه النساء في النساء. عليه الآن مداومة الاتصال حتى يأتيه منها يقينٌ، أو يكلِّف شخصًا بالذهاب إلى بيتها فيتقصَّى له الخبر ويقصَّ الأثر.

أراحه الكلام الأموميُّ فنام هامدًا بعد سهد اليومين، لكنه هبَّ فَزِعًا في أول الليل حين سمع نورا تصرخ في جُبٍّ قديم، حالكٍ، وهو عاجزٌ عن الوصول إلى القعر البعيد، شديد المِحال. قام من فوق سريره يرتجف، فخرج من فوره إلى ساحة الشيخ «نقطة» آملًا أن يجد لروحه هناك ارتياحًا. سار في دروب صباه مضطرب الخطى، كغريبٍ في بلادٍ غريبةٍ. سار وجلبابه يرفُّ حول قدميه بأجنحة الحيرة، وعيناه مشدوهتان عن المحَالِّ جميعها بعدما تجلَّى عليه العزيزُ المنتقمُ الجبارُ بصفته الإلهية، القرآنية ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

حين رآه الشيخُ، بدا عليه اهتمامٌ وهمٌّ. هَزَّ عمامته الكبيرة الملفوفة حول رأسه الصغير، مرتين، ثم قال له وهو ينظر في قلب عينيه: «وما تشاءون» فأكمل للشيخ الآية مستسلمًا، ومسلِّمًا بالمكتوب: إلا أن يشاء الله، يا مولانا.

لم يكن في الساحة إلا ثلاثةُ مريدين، انصرفوا عند منتصف الليل أو صرفهم الشيخُ بخواطره الخفية التي لا يعرف أسرارها وآثارها إلا علاَّمُ الغيوب. ظل جالسًا في الركن كالمنتظر، حتى قال الشيخُ وهو

يلتفت إليه: و﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ كأنه بذلك يدعوه للإفصاح، فباح، بينما الشيخُ ساكنٌ إلا من أصابعه اليمني، المديرة حَبَّات المسبحة. حتى إذا انتهى من حكاية بعض ما وقع معه، في الإسكندرية وأسوان، قال له الشيخُ بلسان الكشف شعرًا يعرفه الأولياء:

والنفسُ كالطفلِ إن تهمله شبَّ على   حبِّ الرِّضَاع وإن تفطمه ينفطم

بعد أسبوع عاد أبوه من سنَّار فجلس إليه في المساء، وحدَّثه بما جرى معه في أسوان، ودعاه إلى حَثِّ الخال حمدون للإسراع في استعادة تصريح العمل، حتى وإن اقترب الصيفُ. ثم سأل أباه مستفسرًا عن حال الشيخ أسامة وآخر أخباره، فقال الأبُ كلامًا كثيرًا يثير العجب، والحسرة. لم يعد أسامة بن لادن موجودًا في بلاد السودان، التي جلب إليها ماله الكثير، فطمع فيه الطامعون الذين لا يتقون الله مع أنهم باسمه تعالى يتكلمون. لكن أمرهم افتضح. قبل قرابة عامين عرضوا سرًّا على الأمريكان أن يسلِّموهم الشيخ أسامة، غدرًا، كي يمكنهم نهب أمواله إذا تخلَّصوا منه. لكن الأمريكان قالوا إن الرجل غير مطلوب عندهم. وقبل شهور جاءوا على عجلٍ إليه، وأخبروه بضرورة أن يرحل فورًا من السودان، وإلا صار أمنه مهدَّدًا وأمن البلاد. ولما طلب منهم التريث حتى يلملم أمواله المبعثرة في السودان، قالوا له: ارحلِ الآن وسنعطيك بدلًا منها لاحقًا، صمغًا، وفي ليلِ ستَّار أخذوه مع أهله في طائرةٍ تتخفَّى، وألقوهم في «قندهار» عرضةً لويلات الليل، آملين أن تتناهشهم هناك أنيابُ الكلاب ومناقيرُ النسور.. قال لأبيه:

ـ صمغ إيه؟ وفين قندهار دي؟ طيب ما كان يرجع للسعودية.

ـ ما ينفع هسَّه، سحبوا منه الجنسية.

أخبره أبوه بأن أسامة بن لادن حين عاد إلى بلاده من أفغانستان، بعدما انتصر مجاهدوها وأخرجوا الروس، استقبلوه في السعودية رسميًّا وأسموه «أسد الإسلام» فعاش حينًا بينهم مكرَّمًا، لكنه بعد فترةٍ صرَّح لهم بأنه لا يصح تمكين الأمريكيين من البلاد، بل يجب إخراجهم منها لأن النبي في آخر أحاديثه الشريفة، قال للصحابة آمرًا : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب.. تضايقوا هناك من كلامه، ثم انقلبوا عليه ونسوا ما كان منه ومنهم. ويُقال إنهم سحبوا منه الجنسية فخرج كالمطرود من السعودية إلى السودان، ويُقال: بل حذَّروه من التدخل فيما لا يفهمه، فطلب الخروج من البلاد كي يتفرَّغ لأعمال الخير في مكانٍ يُحكم بشريعة الإسلام، فوافقوا، وترفَّقوا. ولولا ثراء أسرته وسُمعة أبيه وإخوته الكثيرين، لكان مصيره أيامها قد ادلهمَّ بأكثر مما تمَّ. المهم أنه جاء إلى السودان وهو أغنى من البنوك المحلية التي أودع فيها أمواله الكثيرة، فأخرجوه بعد سنواتٍ خالي اليدين كأفقر الناس.

* * *

الصيفُ يتزحَّف كل يوم على النواحي، فيلهب نهار أم درمان ويحرق قلبه. ما عادت هنا الحياةُ تُطاق. تليفون نورا لا يرد، ولا تأتيه أخبارٌ طيبة من الخال حمدون، ولا من غيره. لا أحد يجاوبه عند الاتصال إلا «سهيل» الذي تبدَّلت عوالمه، وباع بيته بأسوان ليشتري ثلاثة أفدنة سوف يزرعها بالخضروات وأشجار الفاكهة، عند ناحية «كوم أمبو» لأنه لا يريد البقاء بين قوم كانوا يعرفونه في زمن رجولته، حسبما قال بلسان الأسى وهو يهاتفه. في آخر الشهر الخامس من

العام، عرض عليه سهيل أن يأخذ منه عنوان نورا ويسافر من أجله إلى الإسكندرية؛ عساه يأتيه من هناك بخبرٍ، أو يجد عند الجيران هدىً. تحرَّج من تكليفه بهذه الرحلة الطويلة، واستمهله حتى تستقر أموره التي اضطربت، أو ربما يظهر قبل ذلك من عند نورا بيانٌ، أو يُنهي له حمدون الإشكال كما وعد.. أو يرفع اللهُ الهمَّ برحمته الواسعة، حين يشاء.

نحن يا ربُّ لا نعلم ما تشاء. لكنك عليمٌ بما يظهر من أمرنا وما يخفى عن الأنظار، فلا تُطِلْ يا رحيم عذابنا والانتظار. وقد قلت سبحانك في حديثك القدسي، إن قلب العبد بين أصابعك تقلِّبه كما تريـد، فهل قلَّبت ياربُّ قلب هذا المسكين في روضات الجنات، ثم قذفته بغتةً في النار، ثم صببت عليه لعنة المسافات؟ أم هي خفايا أسرار رحمتك وبطشك بالعباد، وقد اقتضت القهر لحكمةٍ لا يعلمها إلا أنت. سبحانك. المحبوبةُ التي أباحت أرضها فلم تعد صالحة لحرث رجلٍ آخر، لا تعرف أنه الآن مُبعدٌ إلى السودان بقلبٍ حائرٍ، لا يطمئن، ولو بخبرٍ وحيدٍ يحييه أو يُميت. الموتُ إحدى الراحتين. ها هي الشهور تمرُّ مُرَّةً مثل حلوق الثكالى، والصيف ينقضي بطوله حارقًا، وما ثَمَّ إلا الحيرةُ والانتظارُ الحارُّ من غير سلوان. مجلس الشيخ «نقطة» لم يعد مؤنسًا مثلما كان، وتحنانُ أُمِّه الفيَّاض ودمعُها السيَّال ما عادا يجديان. يا ربُّ، أما كان يكفيه ذلك، حتى تنـزل عليه وعلى الناس، بالفاجعة التي جرت قبيل انتهاء عام الشؤم والويلات؟

* * *

عند غياب شمس يوم الاثنين الموافق للسابع عشر من الشهر

الحادي عشر، نوفمبر ١٩٩٧، كان جالسًا بملابسه المنـزلية على الكنبة العتيقة في صالة البيت، يحدِّق حسبما اعتاد في شاشة القناة المصرية «الفضائية» بينما أمه على مقربةٍ تفترش الأرض، وأمامها كومةٌ من أوراق السبانخ تعدُّها لغداء الغد. انخطف قلبها وسقطت من يُمناها السكين، حين سمعته يشهق مرعوبًا لحظة أذيع خبرٌ عاجلٌ عن أمرٍ وقع، وليته ما وقع، ملخَّصه أن مذبحةً مروعةً جرت صباحًا بالأقصر في ساحة معبد الدير البحري، ذُبح فيها عشرات السائحين..

تنقَّل بين القنوات علَّه يصادف ما يشفي الغليل، فما سمع إلا متضارب الأخبار. خرج على عجلٍ إلى السنترال، عساه يعرف من سهيل حقيقة الأمور، لكن الجرس لم يجد مجيبًا. اتصل بنورا مثلما يفعل كل يوم، عبثًا، فلم يجاوبه من الإسكندرية أيضًا إلا صدى الرَّنَّات. التليفون ما عاد يصله بأحدٍ من الأحبة. جرَّب مراتٍ أن يكلِّم الخال حمدون، وعندما ظفر أخيرًا بصوته لم يظفر منه إلا بعبارةٍ مفادها: لا أعرف ما جرى، اتركني لأشاهد الأخبار.. ذهب إلى مجلس الشيخ «نقطة» عسى أن يسمع من الإخوان هناك أيَّ خبرٍ جديد، أو يجد عند الشيخ كشفًا لغوامض الأمور، لكن الشيخ لم ينطق في تلك الليلة إلا بعبارة غامضة المعاني: ولولا الصيدُ ما نَفَر الغزالُ..

مع تكرار المحاولات نجح بعد يومين في الاتصال بسهيل، وسمع منه ما يُشيِّب رأس الصغار. فقد أخبره بأن جماعةً من اليهود، أو من أهل الإرهاب، أحاطوا في التاسعة صباحًا بالسائحين القادمين إلى البر الغربي لزيارة الدير البحري، فقتلوهم جميعًا ورصُّوا جثثهم صفًّا، ثم قلعوا من وجوه قتلاهم العيون، وقطَّعوا منهم الآذان وأثداء النساء

وبقية الأطراف، وجعلوا هذه القطع على هيئة خطوط فوق الرمال، بجوار صَفِّ الجثث مبقورة البطون، إمعانًا في الإعلان عن البشاعة.. ولماذا فعلوا هذا الشر يا سهيل؟ لا أحد يعرف يا زول.. وما حال الناس عندك؟ حالهم لا يسرّ العدو، ولا الحبيب.. يعني يا سهيل..

انقطع الخطُّ.

في مجلس الشيخ «نقطة» وجد الوجوم يلفُّ وجوه الحاضرين. ولم ينطق الشيخ طيلة ليلته بكلمة واحدة، وما صدرت من إشاراته إلا تأوُّهات مهدودةٌ عبر عمره السبعين. سفيان أخوه جاء إلى المجلس عند انتصاف الليل، يدعوه للرجوع إلى البيت، لأن أمه قلقةٌ عليه وعينها تسحُّ. سار صامتًا بجوار أخيه، وقلبه يتمنَّى على الله أن يعجِّل له بانقضاء الأجل؛ لأنه ما عاد قادرًا على احتمال الحياة. ولن يقدر على الانتحار، وخسران آخرته، بعدما فَقَدَ دنياه التي صارت محلًّا للأهوال. قال في سرِّه مخاطبًا مولاه: يا ألله، يا أرحم الراحمين، نبيُّك الكريم أوصانا بالرحمة حتى في الذبح، وقال لكل مؤمن «أَرِحْ ذبيحتك» لكيلا يطول على الذبيحة عذابُ موتها. وأنا يا ربُّ ذبيحتك. فلماذا تُطيل أيامي القاتمة، ولا تأخذني إليك؟ لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنتُ من الظالمين ومن الزاهدين في دنياك، فاقبضني إليك فقد ضاقت بي الأرض..

بعد أيام جاءت الأخبارُ مؤكِّدةً أن إسلاميين من المهووسين، هم الذين ذبحوا السائحين الثمانية والخمسين. معظمهم من سويسرا. وقالت الأخبارُ إن السفاحين الستة، قتلوا بعضهم بعضًا بعد ما فعلوه. وفي روايةٍ أخرى قتلهم ضابطٌ وحيدٌ حصرهم في مغارةٍ جبلية، ورواية

ثالثة تقول: بل الشرطةُ قتلتهم دفعةً.. حين سمع الشيخُ «نقطة» هذه الروايات من مريديه في المساء، همهم بلسانٍ ثقيل: وإذا جاءكم فاسقٌ بنبأ.. ولم يُكمل كعادته بقية الآية.

قبل انقضاء العام المريع بأيام، دخلت عليه أمه في الصباح مثقلةً بالهموم. وبرفق الوالدات قالت إن حاله أمسى كل يوم يسوء أكثر، وهي تشعر بأنها سوف تموت قريبًا أسفًا عليه. راحت ترجوه؛ رحمةً بها، أن ينسى ما كان ويبدأ من جديد، بإيجاد وظيفة هنا، أو بالبحث عن فرصة عمل بالخليج.. في الليل دارت برأسه الأفكارُ الكئيباتُ: ما الحلُّ، بعدما انعدم الأمل في حصوله على تصريح العمل، ولن يقدر على دخول أسوان، وماذا سيفعل بالشقة التي اشتراها هناك من أجل نورا؟ ومن أجل أمه وإخوته الصغار، يجب أن يجد عملًا. ولكن كيف، وأحوال السودان بالغة البؤس؟

في الصباح التالي، سأل «سهيل» تليفونيًّا عن إمكان التنازل عن العقد، أو بيع الشقة. فأخبره بأن بيعها الآن صعبٌ؛ لأن الناس في خطبٍ مهول، لكنه سيفعل ما بوسعه عساه يستطيع معاونته في الأمر. وفي مكالمة تالية، قال سُهيل إنه يفكِّر في زيارته قريبًا ليقضي أيامًا معه في السودان، بعيدًا عن أحوال مصر التي ما عادت تُطاق، ولن تعود أبدًا إلى سابق عهدها.

في نهاية الشهر الثالث من العام ثمانية وتسعين وتسعمائة وألف. أتي سُهيل لزيارته في أم درمان، ببدنٍ مهزول، وجاء إليه بالجنيهات كاملةً، ومعها إيصال تنازل عن الشقة لصاحب البيت الأسواني. بأسى، نظر سهيلُ نحوه وهو يوقِّع دامعًا، إقرار إقلاعه عن الأحلام والأماني.

لم يخبره سهيل بأنه فاوض الرجل طويلًا، واضطر في النهاية إلى ترضيته بمبلغٍ من ماله الخاص، خصمه صاحبُ البيت مقابل قبوله استعادة الشقةِ في تلك الأوقات العَسِرَة، والأيام الشحيحة التي لا بيع فيها ولا شراء. أخذ منه الآلاف العشرة، ووقَّع على التنازل وهو يشعر بأنه يستعيد ماله، ينسلُّ في اللحظة ذاتها من حلمه المديد، الوحيد.

أسكن «سهيل» في بيتٍ قريبٍ من الجسرِ الواصل بين الخرطوم وأم درمان، أصحابه يستضيفون الزائرين ويعدُّون لهم الطعام، مقابل مالٍ قليل. ارتاح سُهيل للغرفة وللبيت، لكنه تذمَّر قليلًا بطريقته الناقدة المعتادة، من بؤس أحوال الناس وفقر بيوتهم، ومن قذارة الطرق والأسواق في الخرطوم وأم درمان. ثم عاد بعد يومين وامتدح المكان والسكان، وأعجبه هنا حسبما قال: طيبة النظرات في العيون، واحتشام النساء وانكسارهن. ردَّ عليه ممازحًا بأنه سيبحث له عن امرأةٍ سودانيةٍ مليحة، يتزوجها، فتنهَّد سهيل وكفَّ عن الكلام.

سارت أيامُ الزيارة على منوالٍ هادئ. في الصباح يمرُّ على سهيل ليأخذه من البيت الفندقي، إلى حديقة النادي المحاذي لمجرى النيل، ويتكلمان كثيرًا. وبعد الظهر والغداء يعودان للقيلولة، وفي المساء الساكن يجلسان في الغرفة، ويتكلمان كثيرًا، بينما سهيل يلفُّ الحشيش بسجائره التي يسمِّيها بَخور الصالحين، ويحتسي كؤوسًا كثيرة من الشراب الذي جاء بزجاجات ثلاث منه، كان يخبئها عند مجيئه بين ملابسه. الخمر ممنوع هنا. في الليلة الأولى استخبر من سهيل عن مشروبه، فأجابه هازلًا بأن اسمه «حنَّا المشَّاء الأسود» وأضاف أنه اعتاد الشرب منه كل ليلةٍ، حتى صار لا يستطيع النوم إلا بعد احتساء الكثير منه

مخلوطًا بالماء وقطع الثلج، مع تدخين بعض السجائر الملفوفة، وإلا غلبه الأرقُ. استغرب تسمية الشراب ولم يفهم مقصود سهيل، فأمسك بالزجاجة المربَّعة ليقرأ المكتوب على بطاقتها السوداء مذهَّبة الأطراف، وابتسم بأسى حين أدرك أنه نوع من الويسكي الأُسكتلندي، اسمه الأصلي «بلاك جون ووكر» ورفض بطبيعة الحال أن يشارك «سُهيل» شرابه، فالقرآن يدعو لاجتناب المسكرات. والحديث الشريف يقول صراحةً إن الذي يشرب الخمر، يظل الأيام الأربعين التالية خارجًا عن الدين، وإذا مات خلالها يموت على غير الإسلام. فمَن الذي يضمن عمره أربعين يومًا؟ دعا لسهيل أن يتوب عليه الله من شُرب الخمر، فجادله بأن الويسكي ليس خمرًا لأنه شرابٌ مقطَّرٌ، وشرط الخمر أن يُغلى ويعلو منه الزبد ثم يُترك ليتخمَّر، وهذا لا ينطبق على الويسكي ولا على النبيذ. وأكَّد فتواه العجيبة بأن القرآنَ ينصح باجتناب الخمر، ولا يصرِّح بتحريمها مثلما هو الحال مع الدم والميتة ولحم الخنـزير. ثم أضاف وهو يبتسم كالساخرين، وينفث من صدره الدخان الكثير: والحشيش معروف أنه حلال، بالإجماع.

أراد الابتعاد بسهيل عن هذا الجدل الذي لا طائل تحته، ولا فوقه، فسأله عن أحواله فردَّ بأنها صارت مزرية، والشهور الماضية كانت قاسيةً عليه وعلى الناس كلهم، ولسوف تكون الفترة القادمة أشد قسوة. فقد توقفت السياحةُ وكسدت معها جميع المعايش والمصالح، وصار الناسُ في هَمٍّ مقيم بسبب انقطاع أرزاقهم. هوَّن على سهيل الأمر، أو أراد ذلك، بقوله: إن الله حليمٌ رحيمٌ، وقد لطف به قبيل وقوع الكارثة، حين هداه لشراء الأرض المزروعة بالخضروات والفاكهة. فقال سهيل متبرِّمًا وهو يرفع ثمالة كأسه: إن الزرع لن يجدي كثيرًا

ما دامت المعايش معطلة، وكيف سيأتي المشترون بعدما أُغلقت الفنادق وانهارت الأسعار؟

اعتدل سهيل عن اتكائه إلى جانب الكنبة، وقال وهو شارد الذهن كمن يفكر بصوتٍ مسموع، إن العجيب المحيِّر في تلك الأيام هو ما يفعله «حمدون» الذي اشترى بأرخص الأسعار أرضًا في الأقصر وأسوان، وينوي بناء فندقين، مع أن الفنادق مغلقٌ معظمها. وكذلك شركة «ترافكو» التي تبني الآن عدة فنادق بنواحٍ متفرقة، كأن الكارثة لم تقع. لعلهم يريدون الاستفادة من الإعفاءات الهائلة التي صارت الحكومة تمنحها بسخاءٍ غير مسبوقٍ، للراغبين في الاستثمار السياحي. لكن السياحة ذاتها متوقفة ولا يُنتظر أن تعود، فهل تراهم مخبولون، أم أنهم يعرفون شيئًا لا نعلمه؟ حتى المذبحة التي جرت غيرُ مفهومةٍ، فالحكومةُ تقول كلامًا يختلف عما يتهامس به سكانُ الأقصر وأسوان، ففي البدء قالت الصحفُ الحكومية والنشراتُ إن الفاعلين يهودٌ، ثم عادوا عن ذلك بقولهم: بل هم إرهابيون مسلمون. ونشروا صورًا قالوا إنها للقَتَلة المقتولين. ولكنْ لسهيل ابنُ عَمٍّ اسمه «مسعود» يعمل ممرِّضًا بمستشفى الأقصر، يقول وهو متيَّقنٌ إن هؤلاء الإرهابيين ليسوا يهودًا ولا مسلمين؛ لأن جثثهم التي جاءت إليهم في المشرحة ورآها بنفسه، كان منها أربعةٌ منها لرجالٍ غير مختونين. وأهلُ الأقصر يقولون إن القتلة كانوا يسكنون بفندق موفنبيك الذي يملكه رجلٌ ثري اسمه «حسين سالم» وليس معقولًا أن يسكن الإسلاميون بفنادق الخمس نجوم، ما داموا قد اعتزموا القيام بعملٍ إرهابيٍّ. وفي الصباح المشؤوم خرج القَتَلة من الفندق مبكرين وهم يرتدون الملابس الرياضية، وعبروا إلى البر الغربي ثم دخلوا غيط

قصبٍ كثيفًا وبدَّلوا ملابسهم كلها، وارتدوا ملابس سوداء مثل ضباط الأمن المركزي، ولفُّوا على رؤوسهم شارات مكتوبًا عليها «فرقة الموت» كأنهم يعلنون عن أنفسهم من قبل قيامهم بأي فعل. وهذا عجيبٌ وصعب القبول. وقد ترك القتلة خلفهم في حقل القصب ملابسهم، فعثر عليها المزارعون ورآها من بعدهم كثيرون ممن استغربوا أن القطع الداخلية من ماركات عالمية غالية. وهذا أعجبُ وأصعب قبولًا، لأن المتشدِّدين من الإسلاميين وغير الإسلاميين، لا يرتدون مثل هذه الملابس الداخلية: حاجة عجيبة جدًّا يا زول.

ـ ها يا سهيل، وبعدين حصل إيه ؟

عند مدخل الدير البحري، قتلوا على مهلٍ من السائحين ثمانيةً وخمسين، معظمهم من اليابان وسويسرا، وهما بلدان ناعمان لن يثأرا لقتلاهم. كان السفَّاحون يعبثون بالجثث، بينما جماعةٌ مجهولون يراقبون ما يجري من فوق الجبل المشرف على المعبد، وقد رآهم الناسُ الذين كانوا حول المعبد، بعدما صدمهم صوتُ الطلقات في هذا الموضع الآمن منذ ألوف السنين. ثم اختفى هؤلاء المراقبون المجهولون من فوق، بعد إتمام القَتَلة أفعالهم المهولة بجثث السائحين المقتولين، على مَهَلٍ. وهو أمرٌ غير مفهوم. فالإرهابيون لا يمكثون في المكان الذي يروِّعون، بل يسعون للهرب عقب أفعالهم. لكن هؤلاء قتلوا السائحين غير متسرِّعين، وغير متسِّرعين تفنَّنوا في التمثيل بجثثهم كأنهم بها يلعبون في وقت الفراغ.

ـ أستغفر الله العظيم، وبعدين يا سهيل؟

خرج القتلةُ يقصدون مقابر وادي الملوك، ليلقوا على السائحين

المتحشّرين في الدهاليز المليئة بالرسوم الفرعونية، تلك القنابلَ اليدوية التي كانت معهم، ولم يستعملوها قَطُّ. لأن «حجّاج نحّاس» السائق الذي التقطوه من عند مدخل الدير، وهدّدوه، هداه عقله إلى ترك الطريق المعتاد، والالتفاف بهم عبر الطريق الدائر حول الأقصر حيث تترامى معسكرات الجيش التي رصدت مرور الباص، فأبلغ عنهم الضابط المناوب ويقال إنه تعقّبهم بنفسه بعد ذلك، وهو الذي قتلهم. اسمه سامي عنان. وكان السائق «حجّاج» يقود الباص بهم نحو كمينٍ للشرطة، فلما اقترب من الكمين ضربه القَتَلة بمؤخرات بنادقهم، وأمروه بالرجوع. ورأى أفراد الشرطة المشهد الغريب فأطلقوا نحوهم النار، فنـزل أحدُ القتلة واشتبك مع الشرطة فقتلته، فنـزل بقيتهم لأَخْذ جثته وتركوا الباص، فهرب به «حجّاج» السائق في شركة إيزيس للسياحة، وأفلت من الموت صدفةً. وقد كان نزولهم جميعًا لالتقاط جثة قتيلهم، عملًا غير مفهوم.

وفي اليوم التالي للمذبحة، ترقّى رئيس جهاز أمن الدولة إلى مرتبة وزير. اسمه حبيب العادلي. وصار ضباطه من يومها كالمؤلّهين المتصرّفين في البلاد والعباد، وقالت جريدة الأهرام بوضوحٍ إن هذا الوزير الجديد سوف يتبع سياسة التعتيم الكامل على الموضوع، ليعلن على الناس بعد أيام نتائج التحقيقات. ومضت شهورٌ ولم يُعلن أيُّ شيء على لسان الوزير، ولا على أيِّ لسان، ولم نسمع إلا ببطش الشرطة بالإسلاميين، واعتقالهم أو قتلهم فيما يسمونه مواجهات مسلحة مع الإرهابيين. وقد استدعى ضباطُ أمن الدولة السائق «حجاج» حينًا، ثم خرج من عندهم صامتًا صمت القبور، ولم يعد يتكلم من بعدها عن الأمر. وبعد أسابيع سكن الجميع، ولم يعد

أحدٌ يتحدَّث عما جرى أو يتساءل عن سر هذه الأعاجيب التي وقعت على ذاك النحو الغريب. والأغربُ، ما حدث بعد المذبحة بشهرين، فقد جاء من لندن ابنُ رئيس الجمهورية ليستقر بمصر، اسمه جمال، مع أنهم كانوا قبلها قد وجدوا له وظيفةً في بنك دولي شهير، اسمه «بنك أوف أمريكا» واشتروا له بفلوس الناس شقةً كبيرةً بعاصمة الإنجليز، وفرشوها له بالرياش؛ ليكون على مقربة من فرع البنك الذي يعمل فيه. ثم ترك ذلك كله، فجأةً، وهبط مِصْرَ ليكون بعد حينٍ حسبما يتهامس الناسُ، وزيرًا أو رجل أعمالٍ كبيرًا..

ـ على مهلك يا سهيل أنا ما عدت قادر أفهم.

ـ ولا غيرك يا ولد عمي يقدر يفهم، أصب لك كأس؟

ـ لأ، هاشرب عصير.

ـ وماله يا زول، اشرب، كله لازم يشرب..

كان سهيل يعبُّ من خمره الكثير، كأنه مريضٌ عرف أن داءه لا شفاء منه، فأراد الإسراع إلى الموت.. في يوم تالٍ سأل «سهيل» مترفِّقًا، عن أوقاته وأحواله من بعد المحنة التي مرت به، واقترح عليه أن يردّ أمَّ أولاده لأنها لا ذنب لها فيما وقع من المرأة الأخرى. احتقن وجه سهيل وهو يقول باقتضابٍ إنها لم تكن بريئةً، فقد أدركتْ مبكرًا أن الأخرى الخائنة كانت تلتقي كثيرًا بصاحبتها «زهرة» التي تُيسّر لها لقاء الفران الفارّ، وقد سكتت عن الأمر عن عمد، لتمدَّ بسكوتها الخيط للأخرى الخائنة التي اطمأنت إلى ما كانت تفعله واسْتَحْلَته. وبعدما اطمأنت إلى أن الأخرى اطمأنت، أخبرته ظنًّا بأنه سيطوي الخبر بتطليق الأخرى

فيخلص لها. وهذا كيدٌ عظيم. فكيف يمكنه الركون إليها من جديدٍ والاطمئنان لها، أو لامرأةٍ غيرها. صمت برهة ثم باح بأنه صار يزهد في النساء عمومًا، ولم يعد يطيق النظر إليهن. بل لا يطيق حبه لأولاده الذين لا ذنب لهم، فهو يرسل إليهم مصروفهم الشهري، في بيت جَدِّهم لأمهم، من غير أن يهتم بزيارتهم أو يرغب في رؤيتهم.

ـ ربنا يحوش عنك يا سهيل.

في اليوم الثالث أخذه إلى منـزل الأسرة للغداء، وفي طريقهما سأله سهيل إن كانت في تلك النواحي آثار تستحق الزيارة والمشاهدة. فردَّ عليه بأن السودان ليس فيها آثارٌ قديمةٌ إلا بنواحٍ بعيدةٍ في الشمال، تتناثر فيها بقايا مدنٍ باليةٍ اندثرت منذ زمن بعيد. بعد العصيدة الشهية التي أعدتها أمه يومها للغداء، والويكا، راح يشرح لسهيل طريقة عمل العصيدة من طحين الذرة ومرق اللحم مع البامية مطحونةً، أو مهروكةً. وهي التي تصنع منها «الويكا» التي يحبها سُهيل الذي أنصت إليه مهتمًّا بالكلام على غير عادته، ومنشرحًا. في طريق العودة إلى البيت الفندقي، مرَّا قُرب مسجد الثورة وقد ارتفع منه الأذان، فاستأذن من سهيل الذي انقطع عن أداء الصلوات، ودخل وحده لأداء صلاة المغرب مع الجماعة.. خرج وهو يتمتم بدعاء ختم الصلاة، فابتسم له سهيل بحسرةٍ وأشار إلى قبة المسجد وهو يقول متهكِّمًا: هذه آثار الجمهورية الإسلامية.. ردَّ عليه بأن الإسلام أقام آثارًا كثيرة، لكن السودان ليس فيه اليوم أيُّ شيءٍ منها، والذي كان من قبل الإسلام قد اندثر أو انهدم. فقال سهيل متبرِّمًا: الذين تدَيَّنوا هدموا ما بناه الذين تدَيَّنوا من قبلهم، لأنه كان يغيظهم، ولأن الهدم سهل.

سهيل يتألم، فلا حاجة لمجادلته ولا داعي. ليلتها أخذه إلى مجلس الشيخ «نقطة» الذي ظل يحدِّق باسمًا نحو سهيل، وهو يقول: وتلك الأيامُ.. قاصدًا مواساته بالآية القرآنية التي بقيتها «نداولها بين الناس» لكن «سهيل» لم يفهم الإشارة واعتقد أن الشيخ يقصد أيام الصِّبا، فكان يعقِّب عليه بعباراتٍ من مثل: آه يا عم الشيخ.. راحت الأيام.. أيام كانت حلوة.

في اليوم الأخير من زيارته سأله سهيل عن سر قعوده عن السفر إلى الإسكندرية لاستطلاع ما كان من أمر نورا، فقال إنه لا يزال ينتظر ما سوف تسفر عنه محاولات «حمدون» فردَّ سهيل من فوره، مستغربًا: وما دخل تصريح العمل بزيارة البلاد؟ عندك جواز سفر، فاذهب من هنا إلى القاهرة بالطائرة، واركب من هناك القطار.. اضطرب فكره وهو يقول لسهيل إن الذين منعوه من تصريح العمل، ربما ينتظرونه بالمطار أو يوقفونه، ويحدث ما لا يحمد عقباه، ولن يجد أحدًا هناك يغيثه.

ـ ينتظروك ليه يا زول، يا عم صلِّي، هوَّه انت يعني اللي شاغل بالهم دلوقت؟

ذهب إلى محطة القطار لتوديع سهيل، ثم عرج من فوره إلى مكتب الطيران وحجز تذكرةً، بينما قلبه يضطرب بين الضلوع. كانت تلك هي المرة الأولى التي يركب فيها طائرة، فظل يحوقل ويسبِّح ويستغفر حتى هبطت به في القاهرة. لم يوقفه في المطار أحدٌ، وحين خرج مع نهر الواصلين، رأى في طريقه هول المدينة وكثرة البشر وازدحام الميدان الواسع المسمَّى «رمسيس» حيث يقف تمثال الملك، فوق

غبار الشوارع وعوادم السيارات وآلاف الرؤوس العابسة، بالقرب من محطة القطار الذاهب إلى الإسكندرية.. فور وصوله، ذهب إلى البنسيون الذي قضى فيه قبل أعوام، أولى لياليه السكندرية. على السرير ترك حقيبته الصغيرة، وأخذ في يده الشنطة الأصغر، واتجه من فوره إلى كرموز. الأجواءُ شتويةٌ. دار في الشوارع والحارات، وسار يتلفَّت نحو نوافذ بيت نورا، المغلقة، ثم زار «الحاجة لُولا» وأعطاها الهدية، وبعد أن شرب عندها الشاي، سألها أن تنادي «أمل» ليعطيها أعشابًا للتخسيس، كانت قد طلبتها منه. لم تكن أمل قد طلبت شيئًا، وحين رأته اضطربت وشردت نظراتها. بعد لحظاتٍ سنحت الفرصة فسألها همسًا عن نورا، فلم تجد المكان مناسبًا لإجابته. فقالت له من قبل أن تعود صاحبة البيت بكوب المشروب، أن يلقاها في العاشرة من صباح الغد عند مدخل عمود السواري. المدخل الذي بآخر السور.

قبل الموعد بساعة، كان أمام البوابة الحديدية واقفًا في صخب المدخل، يتلفَّت حائرًا تحت سماءٍ تثقلها غيومٌ تنذر بالمطر. راح يعرِّج عينيه نحو أعالي البيوت ثم يهبط بها إلى الشرفات والنوافذ، والجدران الساترة، والوجوه العابرة. أنحاءُ كرموز ما عادت مبهجةً مثلما كانت. جاءته «أمل» تمشي بخطى الخجل والوجل، متستِّرةً بزحام الناس عند البوابة، فدخلا المزار ليبتعدا عن الحشد. اشترى من الشباك تذكرتين ومشيا متمهِّلينِ، وهما صامتان، حتى جلسا على دكَّةٍ حجريةٍ عند دوران الطريق المؤدية إلى التلة التي يقف فوقها العمودُ، ويختبئ تحتها المعبدُ المندثر. لم تكن أمل بحاجة إلى أسئلةٍ كثيرةٍ لتعطي الإجابات، فما كاد يسألها عن نورا حتى أفاضت ثم فاض دمعها الحبيس وهي تقصّ عليه الوقائع المروِّعات:

بعد لقائهما الأخير بأسبوع، تزوَّجت نورا رجلًا ليبيًّا، وأنجبت طفلة عمرها الآن تسعة أشهر. كانت مضطرة؛ لأن أباها أصيب قبلها بشهرين بفشلٍ كُلويٍّ، فتعهد الرجلُ الليبيُّ بعلاجه ورتَّب له سيارةً تأخذه كل أسبوع، مرتين، إلى مستشفى المنصورة البعيد ليغسل هناك كُلاه، وإلا يموت، وكانت نورا يوم عُرسها متورِّمة الجفنين. بعد إتمام الزواج على عجل، نقلهم الزوج «مفتاح» إلى شقتين متجاورتين بمنطقة «الجمرك» شِبه الشعبية، ولم يشترِ الشقتين عامدًا وأخذهما بالإيجار؛ كي تبقى العروس وأسرتها في اضطرارٍ دائم إلى ماله. سكن معهم خمسةَ أيام، ثم سافر، وصار يأتيها كل أسبوعين أو ثلاثة للاستمتاع، أيامًا معدودات. لكنه بعد حينٍ راح يعيِّرها بأنها لم تعد ممتعةً له؛ لأنها مغمومةٌ دومًا ولا تهتم بالمرح وفنون الهوى، وجعل مسامراته كلها مع زوجة أبيها لأنها تضاحكه دومًا. نورا تريد الطلاق لكنها لن تقدر على طلبه، ما دام أبوها حيًّا ومحطَّمًا ومحتاجًا للعلاج، وقد تغيَّرت بعد الزواج وزاد وزنها منذ أيام الحمل. ومن أيامها انقطعت عن كرموز، ولو للزيارة. وفي آخر مرة التقيا قبل شهورٍ قالت نورا لأمل بصراحةٍ، ودمعٍ كثير، إنه سيكون لقاءهما الأخير، لأنها لم تعد قادرةً على رؤية وجوهٍ تذكِّرها بالماضي.

ـ لكن يا أخت أمل، أنا كان بيني وبين نورا..

ـ عارفة، كنتم زيّ المتجوزين.

ـ طيب وهيَّ تتجوِّز واحد تاني إزاي؟ وازَّاي البنت عندها دلوقتي تسع شهور؟ خلِّفتها إمتى بس..

سكتت أمل كأنها لا تجد من الكلام ما تُجيب به، ثم أدارت رأسها

في الأنحاء الخالية، متحيِّرةً، وأمسكت بحقيبة يدها كالمتهيئة للقيام، لكنها لمحت في عينيه توسُّلًا واستضعافًا فقالت بلسانٍ يضطرب:

ـ نورا عملت ترقيع قبل الجواز بيومين، والبنت بنت سبعة. كفاية كلام بَأَه.

ـ طيب أرجوكِ يا أمل، أنا نفسي أشوف نورا.

ـ حرام عليك، سيبها في الهم اللي فيها، هيَّ مش ناقصة. وبعدين لو شفتها دلوقتي حتلاقيها واحدة تانية خالص، نورا خِلصت خلاص.

أجهشت «أمل» بحرقة المظلومين وقامت عنه مسرعةً، من غير أن تلتفت من خلفها إلى الوراء، وتركته محبوسًا في الوراء وما وراء الوراء. رسخت قدماه، فسكن في جلسته بين الطلول القديمة والمقابر القريبة، وقد حطَّت عليه في وحدته أثقالُ الأولين والآخرين، حتى إنه لم يقم من موضعه لاتقاء حبَّات المطر الذي انهمر فجأة.. غاب عما حوله، ومنه انسحبت الروح فلم يستطع الحركة، حتى جاء الحارس يدعوه إلى المغادرة لاقتراب الغروب. سوف يدوم هذا الغروب طويلًا.

* * *

أمضي اليومين الباقيين له سجينًا في غرفة البنسيون المتَّسخة، تحاشيًا للنـزول إلى الأماكن الفوَّاحة بعطر نورا وذكرياتها. أسال في وحدته دمعًا كثيرًا. لو أخبرته نورا بما يحدث حولها، لكان قد أدركها قبل انتحارها الصامت. ولو كان ميسور الحال، لاستطاع

القيام بالأعباء عند وقوع النوازل. ولو تأخَّر مرضُ أبيها عامًا واحدًا، أو سكن بالمنصورة حين مرض، لكانت المصائر كلها قد اختلفت. ولو كان لنورا إخوان ذكور..

لو، من عمل الشيطان.

بعد انقضاء مُدَّة حبسه نزل من البنسيون هائم الخطى، وسلك سبيل سفره من آخر العالم إلى آخر العالم، وهو موقنٌ بأن العوالم كلها بلغت أواخرها. لم يرَ شيئًا مما مَرَّ به في طريق رجوعه، كان ينظر ولا يرى، ولما بلغ مقام أمه في أم درمان، تلوَّى أمامها وانفجر في قلبه بين يديها، فلم تستطع مواساته إلا بسرد الدعوات.. بعد أيامٍ ساءت أحواله وتدهورت حالته، حين صدمه يقينٌ بأن الوليدة التي في شقة الرجل الليبي، إنما هي من صُلبه هو. كلما تذكَّر التفاصيل تأكَّد أكثر. في الأسابيع التالية استبدَّت به أحوالٌ شدادٌ، تشبه ما يمرُّ بالمصروعين، فصار يصرخ عاليًا في هدأة الليل فَزِعًا وينتفضُ في النهار كمريضٍ آن انهياره. لا دعوات أمه تُستجاب ولا رُقيات الشيخ «نقطة» تأتي بالكرامات، والطبيب الذي زاره تحيَّر. في آخر الصيف عاد له بعضُ عقله بعدما ذهب نصفُ وزنه، وأصبح شبيهًا بنخلةٍ وحيدةٍ نبتت عن غير قصدٍ في قفرٍ ناء. اقتدر على الحركة في البيت، لكنه لم يعد يتكلم إلا لمامًا ولا يأكل إلا مثلما كان الحاجُّ بلال يفعل. الآن عرف معنى افتقاد الطعم في المأكول والمشروب. حرَّم على نفسه كُلَّ شهيٍّ، وكل حلو؛ تكفيرًا لذنبٍ عوقب عليه وعوقبت نورا. من دون أن يقترفاه.

الحياةُ ظالمةٌ ومظلمة.

مع اجتهاد أمه ومعاونة الأهل والجيران، توالت المحاولات حتى أوجدوا له وظيفةً في بلاد الخليج البعيدة، تمكِّنه من تبديد سنوات شبابه لجمع حفناتٍ من الدولارات. أمر الله. سوف يعمل في «الإمارات» موزعًا للمنتجات ومحصِّلًا لألبانٍ معلبةٍ وأجبان لقاء راتبٍ يقارب ألف دولار شهريًا، وقد يزيد إذا رضي عنه أصحاب العمل. هكذا قالوا له قبل سفره، وهدَّأوا الهائج من خواطره بأنه سيجد الرعاية من السودانيين المغتربين هناك، وكانت أمه تؤكِّد الكلام بإيماءات الموافقة والنظرات الحنون المستعطفة. لم تكن تعرف طبيعة العمل الذي ينتظره هناك، ولم تفهم السبب في أنهم يعبِّئون الألبان والأجبان في تلك البلاد، لكنها ودَّت لو تدفعه بعيدًا عن معاناته، عساه يفرّ مما قُدِّر عليه من آلام. ولم تعرف، وهي المسكينة، أننا نفرُّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله.. حمل حقيبةً كبيرةً فيها بقاياه، ومن المطار البائس إلى المطار الباذخ، حلَّقت به الطائرةُ المكدَّسةُ عدة ساعاتٍ ظلَ خلالها محمولًا فوق دعوات أمه المكلومة، وفوق أرض الذكريات. الأمهاتُ مسكيناتٌ، وكذلك العشاقُ.

وصل إلى مطار «دُبيّ» زائغ العينين، محاطًا بالحيرة، كان يظن أن الإمارات كلها متشابهةٌ كحال المحالِّ التي عرفها في السودان ومصر، لكنه أدرك بعد أسابيع من إقامته بإمارة «الشارقة» أنها تختلف كثيرًا عن إمارة «دبي» القريبة، وعن إمارة «الفجيرة» البعيدة، وعن الإمارة العاصمة المسماة «أبو ظبي». لكن المحال جميعها مهما اختلفت، فهي الآن عنده سواء. سكن في الشارقة بحيٍّ يمتلئ بالهنود وتفوح أنحاؤه برائحة أبدانهم الشاحبة، الملتهب باطنها بطعامهم الحارّ الحريف. الهنود هنا هم أكثر الوافدين عددًا، وهم متشابهون فيما

بينهم ويشبهون النمل التائه. وأما المواطنون فهم في الحيِّ قلةٌ، ونادرًا ما تعاملَ مع واحدٍ منهم في الشارقة أو دبي، مع أنه أمضي شهورًا يوزِّع بضائعه على المحال ويحصِّل أثمانها. أصحاب المحالِّ معظمهم وافدون، والمشترون أيضًا وافدون، وهو مثلهم وافدٌ على المحال كلها، وعلى الحياة. الكلُّ على الحياة وافدٌ. لكن ألفة الوجوه ودفء المحال، والحب والأوهام، تذهلنا عن أننا الآن راحلون لا محالة. وما اللحظاتُ التي نحاول الاستمساك بها كل حين، إلا عبورٌ في سفرٍ مستمرٍ واغترابٌ مؤقَّتٌ في مَحال.

المبنى الذي سكنه بأطراف «الشارقة» يضمُّ غُرفًا فندقيةً فقيرةً، لا تكاد تقدم للنـزلاء أيّ خدمات، ومبناها عريضٌ منخفض، شبيهٌ بالمستشفيات الحكومية المهملة في مصر أو في السودان. استقر في الغرفة وجعلها له وطنًا، وآثر الابتعاد عن جميع المغتربين، حتى السودانيين الذين يتكلم بلسانهم، والمصريين الذين كان يحبهم، ولم يهتم بمخالطة جيرانه لكنه عرف مع مرور الأيام أن كثيرين منهم يعملون ببلدة «دبي» ويسكنون بالشارقة، لأنها الأرخص والأنسب لفقراء الوافدين. دبي أنشطُ من الشارقة وأكثر بذخًا وتأنقًا، ولياليها فيما يقولون هائجةٌ، لأن بها الملاهي العامرة بالعاهرات والخمر المراق. هو ما رأى ذلك، وما أراد يومًا أن يراه.

مصنعُ الألبان والأجبان، يقع على طريقٍ فرعيّ بين الشارقة ودُبيّ. بجواره المخازنُ، ومن خلفه مزرعةٌ للأبقار مكيَّفة الهواء فيها ماكينات تحلب البقرات البدينات ذوات الضروع الهائلة، وردية اللون، والجلود المبرقشة بالأبيض والأسود. يوم رأى المزرعة،

شَعر لوهلةٍ بأن للأبقار في الحياة حظوظًا متفاوتة، فقد ذكَّرته الأبقار الراضية هنا، الهانئة، بأبقار السودان اليابسة العجاف، الكادحة طيلة النهار لطلب الكلأ الشحيح من الأرض المجدبة. مع أن النيل يجري بقلبها. لا نيل هنا، ولا أنهار، لكن الأبقار لا تشكو الجوع في ربيع أو خريف، لأن حظوظها أفضل.. أفضل حتى من بعض الناس في السودان ومصر، ممن لا يحلمون بالأجواء المكيفة، والرعاية التامة، والاهتمام. ابتسم بمرارةٍ حين أدرك أن من البقر ما هو أسعد حالًا من البشر.

أبقار المزرعة السعيدة، يأخذون إلى المصنع المجاور ألبانها في أوانٍ معدنية لامعة، فيستخرجون منها أنواع الجبن، ويخلطون بعضها بالنكهات الفاكهية، ثم يعلِّبون ذلك في عبواتٍ يأخذها الموزِّعون من أمثاله إلى محالِّ البقالة والأسواق الواسعة.

بعد ثلاثة أشهر من اجتهاده في العمل، استدعاه الأستاذ «فوَّاز» مدير الفرع وامتدح أمانته، ومواظبته على الصلاة، ثم سأله إن كان مرتاحًا في السكن وفي التعامل مع زملاء العمل، فأجاب بالإيجاب. فوَّاز هذا سوريُّ الأصل يعيش بالشارقة منذ عشرين سنة، ولا يستطيع زيارة موطنه لأنه كان مع ابن عمٍّ له، يعارضان الحكومة هناك ولا يتورَّعان في فورة الفتوة عن الكلام في السياسة. وهو أمرٌ في سوريا خطير. دام اللقاء ساعةً حكى فيها فوَّاز عن طفولته في «حمص» وأشار من دون سببٍ معلوم إلى بؤس أهل السُّنَّة السوريين، بسبب سطوة العلويين الحاكمين الذين، حسبما قال، ليسوا في حقيقة الأمر علويين وإنما نصيرية فاسقون يسمون حزبهم «البعث» وينكرون البعث

الذي أخبر عنه الدينُ القويم.. استغرب إفصاح فوَّاز واسترساله في الكلام، مع أن الوافدين لا يفصحون في العادة ولا يسترسلون. لكنه عرف في لقاءٍ تالٍ أن هذا المدير يقرِّبه، لأنه يتوسَّم فيه خيرًا ويسعى لإعطائه فرصةَ عملٍ أفضل في فرع جديد، تنوي الشركة افتتاحه في أوزبكستان.

- فين البلد دي يا أستاذ فوَّاز؟

- في وسط آسيا، فوق أفغانستان وتحت روسيا.

جلس وحيدًا، مثلما اعتاد عند العصر في أيام الجمعات، على شفا خليج الشارقة المستدير، المفتوح على الخليج الكبير. راح متمهِّلًا يتأمل العَرْضَ الذي ساقه إليه «فوَّاز» كالوعد، ولمَّا دخل عليه الليلُ وقلَّ الجالسون والعابرون، قال في سرِّه بعدما أتعبه التفكُّر والتدبُّر إن الوقت مبكرٌ على الانشغال بأمرٍ قد يكون أو لا يكون. وإن كان، فلن يختلف عنده المكان هنا عن هناك، ولن يكون الوقتُ هناك أبطأ ولا أكثر مللًا، لكن راتبه بالتأكيد سوف يزيد. في طريق عودته إلى سريره سأل نفسه: لماذا يستزيد الناسُ دومًا من المال، ويحبون اكتنازه مهما زاد عن الاحتياج؟ أتراه يعطيهم شعورًا خادعًا بالأمان، أم يشاغلهم عن الانشغال بفنائهم المحتوم في نهاية المطاف؟ لم يجد إجابةً واضحةً فطوى السؤال، وردم عليه برمال الميل الدنيوي والطبيعة الداعية جميع البشر إلى الاستكثار مما يمكن عدُّه، إلا الأنفاس الآخذة في التناقص حتى لحظة النفاد. لا ينفلت من هذا القيد إلا الذين اصطفاهم الله ونجَّاهم من الأوهام، أو قهرهم حين حرمهم من الأحبة.

الأوقات هنا مرهقةٌ، بطيئة.. خلال العام الذي أمضاه في الشارقة، من دون إجازات حتى في الحر، قرَّ في قلبه أنه وجودٌ جمد فيه الوجودُ. وآمن بأن الحياةَ مُحال. في الصحو يكدحُ وفي الأحلام يلمح نورا، فتهمي منه عند الهجوع الدموع. في الليل يرى نفسه كأنه معلّقٌ من قدمٍ واحدةٍ وجسمه يتأرجح في فراغ، وفي النهار لا يرى غير هنودٍ وعربٍ يغتربون آملين في اغتراف دراهم معدودات تظل في أعينهم، مهما زادت في أيديهم، قليلةً. ما عاد يفعل في أيامه ولياليه، إلا ما اعتاده منذ وَفَد على هذه البنايات الصفراء العفراء، المحدقة به من جميع النواحي. كأنه هنا في قلب تيه. في أول الليل يُظلم غرفته وفوق السرير يولي وجهه إلى الحائط، ويستحلب من بدنه قطراتٍ يخمد بعدها مستسلمًا لأحلامٍ ربما تريه نورا، وربما تضنّ. وفي الصباح الباكر يأتيه السائقُ، هنديًا كان أو من باكستان، فيخرج معه إلى المخازن اللصيقة بالمصنع ليملأ صندوق السيارة بالمعلَّب من الأجبان والألبان، ثم يدور لتفريقها واستلام أثمان ما سبق تفريقه من معلَّبات. أوقاته صارت معلَّبة. حتى صلواته أمست أداءً لفرضٍ، وليس فيها ما عرفه من حلاوة الطمأنينة حين كان يصلِّي خلف الشيخ «نقطة» أو منفردًا على شط البحيرة.

الجمعة هنا أهدأُ الأيام، وأكثرها مللًا. كان في ابتداء غُربته يصحو مبكرًا في الجمعات، ومتباطئًا يكتب لأمه ولسهيل رسالتين فيهما كلامٌ ساكنٌ كأجسام الغرقى. وبعدما أعطته الشركةُ تليفونًا محمولًا لتسهيل أداء المهام، كفَّ عن كتابة الرسائل وعوَّض عنها بشراء شريحة مكالمات دولية صارت تصله كل أسبوع، أو وقتما شاء، بأفراد أسرته المستكينة في «أم درمان» وبصديقه الذي سكن بين أسوان والأقصر،

وبات يزرع أرضه ويعالج كبده المعطوب. أعطبه الخمرُ. ما عاد سُهيل يشتغل بالإرشاد، مع أن السياحة في مصر عادت مؤخرًا إلى الرواج الأول، بل غدت أفضل، واغتنى الذين اغتنموا الفرص أيام الويل والكساد.

لم يبق لديه أيام الجمعة من عملٍ غير غسلِ ملابسه ونَشْرها، ثم الخروج إلى الصلاة في المسجد الجامع، المطلِّ على الخليج الميتةِ أمواجه. ثم الجلوس عند شاطئه وحيدًا، حتى يتوغَّل من حوله في الأنحاء الظلامُ فيقوم مثل شبحٍ حائرٍ ليعود إلى غرفته التي لم يحبها قَطُّ؛ لأنها تصرُّ دومًا على إعلامه بأنه مجرد عابر.. في أوائل أيامه هنا كان الخليج يذكِّره بالبحيرة، والبحر، ثم أدرك رويدًا أن المياه لا تشبه بعضها بعضًا. ماءُ الخليج ليس كمثله في بحيرة النوب وبحار الإسكندرية، فهو هنا صامتٌ وثقيل. يشبه الزيت. ولا يحتفي بالجلساء أو يحاورهم مثلما يفعل الماءُ هناك، وحين يحدِّثه ويبوح له بالنظرات عما يعانيه، يتعامى الماءُ عن ذلك ويستمسك بالسكون.

في جوف ليلةٍ غبراءَ هجمت عليه أسئلةٌ صوادم: أتراني متُّ يوم عودتي من الإسكندرية، آخر مرةٍ، أو بعدها بقليل؟ فما أنا إلا روحٌ حائرة تُراوح بين المحال، وتتنقَّل هائمةً من دون بدن يثقلها. أم تراني على العكس، صرتُ بدنًا توارت عنه الروحُ من بعد فراق نورا.. وما الحياةُ غير اقتران الروح بالبدن، والتناغم السحري بينهما، فإذا أشرقت الروحُ بالفرح حينًا، خفَّ البدنُ ولمعت العينان وأضاءت الوجهَ البَسْماتُ. وإذا ابتُلي البدنُ بَمَرضٍ أو عَرَض، خَبَتْ شعلةُ الروح فيه وخفتت الشمعةُ الباطنة المنعكس ضوؤها على قسمات

الوجه.. فأين ذلك منه، وقد أمست روحه تحوِّم بعيدًا فوق مَحَالَّ قاصية، بينما بدنه يجوس كسلحفاةٍ تائهةٍ في غُربة قاسية؟

ليلتها أراد استعادة ذاته فانتفض قائمًا من سريره، وأضاء غرفته التي كانت حالكة، وبيدٍ ترتجف وقلبٍ يضطرب، أخرج صفحات أشعاره وراح يحدِّق فيها كغريق ينظر إلى خشبةٍ تطفو بعيدًا، بعدما عجز عن التعلُّق بها. بقي على تلك الحالة حينًا، يحاول يائسًا استرداد نفسه التي كانت ثم بانت. فلمّا تأخَّر به الليلُ وقصف رأسه الويلُ، شعر بأنه يسقط في جُبٍّ لا قرار له ولا قاع، وسمع بقلبه دويَّ الصمت المحيط فخطر بباله أن يخرج إلى الشوارع الصامتة، صارخًا. مثلما يفعل المجذوبون. ليس بهذه البلاد مجذوبون. ولسوف يعاقبونه من فورهم، ويصيِّرون أيامه سوداء مثل رماد ظهر المِجَنّ. كاد يجنّ. لم يجد في غمرة يأسه حلًّا، إلا تمزيق أشعاره بدلًا من شرايينه والأوصال، فأخذ يفتِّت الأوراق قِطعًا تمزِّق معها الكلمات، وأدرك أنه صار ميتًا مثل كثيرين من حوله يتحركون ولكن لا يعرفون أنهم فارقوا حياتهم.. لحظتها مَسَّ قلبه يقينُ الموت، فارتاح، لأن الفناء راحةٌ

والحياةَ مِحَالٌ.

بُخارى

أوشك العام على الانتهاء، وأخذ الناسُ في الأنحاء يستعدون لاستقبال ما يسمونه الألفية الجديدة، وكانوا يبالغون في إظهار ابتهاجهم بالمناسبة فيسرفون في تلوين اللافتات وأشجار عيد الميلاد. ميلاد المسيح. الناسُ هنا تتصيَّد الأسباب لتحتفي، وهم يهتاجون لاستجلاب البهجة في المناسبات. ياربُّ أليس من المناسب الآن أن تقوم القيامة، فيُطوى الكذبُ كطيِّ السجل للكتب؟ أم جرى المقدورُ بأن تعمر الأرض بالمعاناة، ألفَ عامٍ تالية؟ اللهم لك الأمرُ من قبل ومن بعد.

بعد دخول العام الألفين، بيومين، استدعاه «فوَّاز» للذهاب إلى «أبو ظبي» لمقابلة السيد «خليفة الغانم» صاحب شركة المعلَّبات، وشركات أخرى. في الطريق الخالي إلا من عربات عابرين معدودين، ظلت السيارة تنهب المسافة لساعاتٍ بينما فوَّاز يخبره بالضروري والمهم عن السيد «خليفة» وتجاراته الكثيرة، وتقواه، وبشَّره بأنه رجلٌ من أهل الخير، وقد وافق مبدئيًا على تعيينه ممثلًا للشركة في

الفرع المراد افتتاحه في وسط آسيا، سيكون هناك مندوبًا ومحاسبًا، فإذا جرت مقابلة اليوم على ما يرام، وتمَّ المراد، فسوف يتضاعف راتبه ثلاثًا. وإذا سارت الأمور بعد ذلك على خير، فقد يصير بعد عامين أو ثلاثة مديرًا للفرع الجديد.. أضاف فوَّاز، الواثقُ دومًا بما يقول، أنه بعد موافقة السيد «خليفة» سوف يسافر معه بعد شهرين إلى «طشقند» عاصمة أوزبكستان.

لتسلية الطريق تطوَّع فوَّاز بإعطائه بعض المعلومات عن هذا البلد البعيد، وسرد عليه كلامًا طويلًا، ملخَّصه أن كلمة «ستان» تعني الأرض أو المكان، وكلمة أوزبك من مقطعين «أوز» بمعنى نحن، أما «بك» فإن لها المعنى ذاته في العربية والتركية والأوزبكية. فيكون اسم البلد من المقاطع الثلاثة «أوزبكستان» بمعنى أرض الذين هم في أنفسهم بكوات أو محترمون.. تبسَّم فوَّاز وهو يضيف أنهم بالفعل أناسٌ محترمون، يعتزون بذواتهم مع أنهم فقراء، وهم مسلمون من أهل السُّنة ولكن يعيش معهم بعض الروس، المسيحيين والملاحدة، وجماعاتٌ من الطاجيك المسلمين على مذهب الشيعة، وبعض أفراد الأمم التي لا ملَّة لها ولا مذهب.

كانت أوزبكستان جزءًا من الاتحاد السوفيتي الذي هيمنت عليه روسيا تسعين سنةً، طمست خلالها آثار الإسلام وأطفأت مناراته، وفتكت بأهل الديانة، ولما خرج الروس قبل عشر سنوات من أفغانستان خاسرين، واندحروا أمام بطولة المجاهدين، وجدت حكومة روسيا التي تقلَّصت وتقازمت، أن الأنسب لها إعطاءُ أوزبكستان وبقية الجمهوريات الإسلامية استقلالها، طواعيةً، مع

تمكين رجال الحزب الشيوعي المنهار من رئاسة هذه البلدان، فتُبقيها بذلك دائرةً في الفلك الروسي من دون داعٍ لحربٍ باهظة النفقات، تطالب بالاستقلال. ومن يوم استقلالها، يَرأس أُوزبكستان الأمينُ السابق للحزب الشيوعي، اسمه «إسلام كريموف».

ـ إنت عارف البلد كويس يا عم فوَّاز.

ـ نعم. مشيت لها مرات، وزوجتي أم عبد الله من بُخارى، بلد الإمام البخاري.

ـ كنت فاكر إنه من بُخارست.

ضحك فوَّاز بوقار كهلٍ أربعينيٍّ، أرزيِّ اللحية، أبعدوه عن وطنه قهرًا فصيرَّوا ديار الإسلام له وطنًا، وأدار مذياع سيارته فانسابت تلاوةُ قارئٍ سعوديٍّ من أولئك الذين أصبحوا مؤخَّرًا مشهورين. على وقع آياتٍ من سورة الأنفال، ومع انشغال فوَّاز بمكالماته الخلوية، راح يتأمَّل رمال الصحراء المترامية على جانبي الطريق، وهيَّم بأفكاره في أنه قد يصير بعد حينٍ، مثل هذا الرجل السوري الطيب. فلا يعود أبدًا إلى السودان، ولا مصر، وربما يبرأ يومًا من عشق نورا ويتزوَّج هنا من ابنة وافدٍ، ويقضي معها بقية عمره الخاوي في سلام وسكينة. سوف يكون مثل الفلسطينيين الذين فقدوا وطنهم علانيةً، أو مثل العرب الذين سلب حكامهم أوطانهم من دون إعلان. لكنه سوف يوالي إرسال النقود الشهرية لأمه، كي تستعين بها على نفقات الصغار من إخوته. فقد قلَّ جهد أبيه بعدما تخطى من عمره العام الستين، وعاش سنواته متنقِّلًا بين جنوب السودان وجنوب مصر، ولولا أن له زوجةً طيبة وأولادًا يعيش لهم، لكانت المسافاتُ

ومشقةُ الأسفار والأحزانُ قد أهلكته. الزواج عاصمٌ من الهلاك. ولعله الحلُّ السحريُّ للخلاص مما يعانيه ويغمر نفسه فيه، ولكن، هل بمقدوره استعادة أمله المنسي وحلمه القديم في الاقتران بفتاةٍ متوكية؟ وكيف سيجدها هنا؟ في غمرة شروده غابت عن أسماعه الآياتُ، ومكالماتُ فوَّاز، حتى طرق قلبه خاطرٌ مفاجئ يخبره بأنه يخون نورا بأفكاره، والفكرةُ أولُ الخيانة.

«وصلنا».. قال فواز ذلك وهو يوقف سيارته أمام بوابةٍ أنيقة، يمتد حولها جدارٌ عالٍ يحجب الدار وحديقتها المفروشة بالنجيل القوي، وفي حوافِّها تقف نخلاتٌ باسقات. الناسُ في «أبو ظبي» يحبون النخيل لأنه يذكِّرهم بماضيهم، ولأن حاكمهم يحبه. ما بين نزولهما من السيارة ودخول الدار الفسيحة، لفح وجهه هواءُ الظهيرة اللاهب حتى في الشتاء. تقدَّمه فوَّاز وهما يدخلان وراء الخادم الهندي إلى غرفة الضيوف الرَّحبة، المحاطة حوائطها بأرائكَ مصفوفةٍ فوقها فاخر الرياش والتكايا. عند دخولهم كان فوَّاز منشغلا مع تليفونه المحمول بكلام معتادٍ، مُلَطَّفٍ بالدعوات المعروفة، فجلس ساكنًا على طرف الأريكة الأقرب وراح يتأمَّل في رسومات السجاد المبسوط على الأرض، وفي الآية المعلَّقة على الجدار في إطار ذهبيٍّ بديع (تلك الدارُ الآخرةُ نجعلها للذين لا يريدون عُلوًّا في الأرض ولا فسادًا).. ختم فوَّاز من فوره مكالمته لحظة دخل عليهما السيد «خليفة» بجلبابه الأبيض البسيط، وبدنه النحيف، وأعوامه الستين. أو الخمسين أو السبعين. التقديرُ صعبٌ، لأن أهل الإمارات متنعِّمون ويلبسون، نساءً ورجالًا، جلابيبَ متشابهةً لا تميِّز الأعمار، ويعسر معها معرفة الغني من الفقير. وهم فيما يُقال قومٌ طيبون ومسالمون، ونساؤهم

حسناوات، فاحمات الشَّعْر نجلاوات العيون. يشبهن أفراس الخيول. ما علينا الآن منهنَّ.

جلس السيد «خليفة» عند زاوية الأرائك ودعاهما للاقتراب، فقام فوَّاز إلى الطاولة الكبيرة وصبَّ من أباريق العصائر ثلاثة أكواب، كأنه من أهل الدار، ثم جلس بينه وبين السيد «خليفة» الذي رحَّب بهما بحفاوة رجل ميسورٍ، يضيء وجهه نورُ الإيمان. مع أن جبهته تخلو من أثر السجود المستعلن في جبهة فوَّاز الشهباء. من تحت ستر رأسه الأبيض الشَّفَّاف، بدا في شعر السيد «خليفة» الأشيب وفي أطراف لحيته، آثارُ حِنَّاء غُسلت مرارًا فباتت تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد.

من دون مقدمات أو سبب ظاهر، قال صاحب الدار إنه صار لا يستقبل إلا القليل من الناس، ولا يخرج من البيت إلا نادرًا. مفضِّلًا البقاء وحده معظم الأحيان، قانعًا في وحدته بصحبة المولى الذي قال عزَّ وجلَّ: أنا جليسُ مَنْ ذكرني.. بعد هذا التمهيد، قال السيد «خليفة» إن «فوَّاز» من الإخوان المقربين، وهو يثق به وكان يريد أن يوليه فرع الشركة ببلاد الأوزبك، لكنهم سوف يحتاجونه الفترة المقبلة في فرعٍ آخر للشركة ببلاد الطاجيك. وفوَّاز أوصى به ليكون مندوبًا لهم ومحاسبًا بأوزبكستان، إلى حين افتتاح الفرع هناك، ثم يفعل الله من بعد ذلك ما يشاء.

كان ينصت إلى الكلام، متأدِّبًا، حتى سأله السيد «خليفة» عن أهله وعمل أبيه في السودان، فأجاب، وسأله إن كان يريد إجازة لزيارة أسرته قبل سفره إلى أوزبكستان بصحبة فوَّاز، ليعرِّفه بشركائهم هناك. ردَّ عليه شاكرًا عرضه ومؤكِّدًا أنه ليس محتاجًا لأي إجازات، ويفضِّل

أن يبقى مستكملًا عمله هنا، ومستعدًّا، حتى يحتاجه العمُّ فوَّاز للسفر. ابتسم السيد «خليفة» وقد راقت له الإجابات، فكان يعقِّب على عباراته بمفردات الرضا: ما قصرت.. مشكور.. الله يوفق.

لحظة خروجهما من الدار خلف صاحبها، دخل من البوابة طفلان نحيلان يلبسان الزيَّ المدرسي، وأسرعا نحو جَدِّهما فضَّمهما إلى جناحيه باسمًا، وهو يسلِّم على ضيفيه مودِّعًا. وهو يركب سيارته، أخبره فوَّاز أن الطفلين حفيدا السيد «خليفة» من ابنه الوحيد، وهما يتيمان، فقد توفي أبوهما العام الماضي.. مات في سبيل الله في أفغانستان، نال الشهادة، كان أسدًا من أسود الإسلام.

ـ الله يرحمه، ويرحمنا جميعًا يا عمّ فوَّاز.

ـ آمين يا رب العالمين.

اضطرب قلبه من كلام فوَّاز، ولم يفهم سببًا لحرصه على الإخبار والإفاضة، مع أنه لم يسأله عن الطفلين أو أبيهما. سوف يعرف السبب لاحقًا. استأذن منه فوَّاز لإنهاء بعض الأعمال العاجلة قبل عودتهما إلى الشارقة، وتركه في السيارة أمام بنايةٍ عاليةٍ تطل على خليجٍ مفتوحٍ أيضًا، على الخليج الكبير. ظلَّ ساعةً ينتظره وهو ينظر ناحيةَ فندق «شيراتون» القريب.. يُقال إن الفنادق هنا عامرةٌ دومًا، لكنه لم يدخلها، ولم يعرض له سببٌ لدخولها، منذ جاء. جاءته في جلسته الساكنة أفكارٌ دافقةٌ: سوف يصلِّي الليلة ركعتي استخارةٍ، ليرى ما سيأتيه من إشاراتٍ ربانيةٍ بشأن العمل الجديد المعروض عليه. لكنه في النهاية سوف يقبل لا محالة، لأن الرفض غير متوقَّع من الوافدين، وربما كان من غير المقبول. والأمرُ عمومًا يبدو جيدًا

ولا يحتاج استخاراتٍ ولا تردُّدًا، فسوف يشاهد بلادًا جديدة لم تكن زيارتها تخطر بباله، ولسوف يتضاعف راتبه فيضاعف ما يُرسله لأسرته. وليس لديه في نهاية المطاف ما يدعوه للتعلُّق بالشارقة، ولا بغيرها، ولعلَّ المولى أراد أن يسوقه إلى حيث يجد السلوان. سبحانه. لو كانت نورا معه لفرحت بالسفر المقترح وبزيادة الراتب، وبابتداء ترقِّيه في الوظائف. كان يمكنها أن تجد عملًا هنا إذا أرادت، أو ترتاح في البيت وتتفرَّغ له وللأولاد، فيعود إليها كل يوم بعد العمل محمولًا على أجنحة الاشتياق.. نورا.. لكنها كانت ستسأله عن طبيعة العمل المعروض عليه. سؤالك يا نورا في محله، ما طبيعة الوظيفة؟ «مندوب» مفهومةٌ، فما المقصود بمحاسبٍ، وهو الذي لم يشتغل يومًا بالمحاسبة؟ لعلهم يرون فيه مناسبةً ما للوظيفة، أو هي تمهيدٌ لأن يجعلوه مديرًا بعد إثباته الكِفاية. لا بأس. سوف يجتهدُ على كل حالٍ، والتوفيقُ بيدِ الله. ولكن لماذا كان يدرس علم الاجتماع، ما دام الله قد قدَّر له في الأزل أن يعمل محاسبًا، وكيف سيعرف أصلًا علم المحاسبة؟ المحاسبة ليست علمًا وإنما هي خبرةٌ وأمانة، والأولى سوف يكتسبها مع الوقت والاجتهاد، والأمانةُ بحمد الرحمن متوفِّرة. وهي سرُّ النجاح.

ارتاح إلى خاتمة حواره الباطن، وأجال عينيه في العمائر العالية المطلة على المكان، فخايله من جديد سؤال: لماذا يتعالون هنا بالبُنيان، بينما الصحراءُ الواسعة حولهم تحتاج مَنْ يعمرها، وليس فيها ذئابٌ تخيف الساكنين؟ وها هي الآية المعلقة في بيت السيد «خليفة» تحذِّر الذين يريدون علوًّا في الأرض أو فسادًا. لعل المراد من الآية النهي عن التعالي على الناس، وليس تعلية البيوت، ولو كان النهيُ

الإلهيُّ يتعلق بالمباني، لما كان المسلمون الأتقياء قد أقاموا المآذن العالية، وما كانوا قد ارتضوا سُكنى القصور. لا بأس إذن في تعلية العمارات المطلة على الخليج، وعلى أي شيء. يقولون هنا إن حاكم البلاد يُعيد كل فترةٍ تخصيص الأراضي لمواطنيه، ويطلب منهم بناءها من جديدٍ كل خمسة عشر عامًا، ليضمن بذلك تدوير الأموال وتشغيل الناس وتطوير العاصمة. فكرةٌ جيدةٌ ومفيدة، وهي تجعل المجتمعات المسماة بالرأسمالية ليست رأسمالية؛ لأن فائض القيمة لا يتراكم.

فائض القيمة.. مع ملل الانتظار، تذكَّر درسه الجامعي عن «كارل ماركس» في مادة علم الاجتماع السياسي؛ حيث كان أيامها مثل بقية الفقراء معجبًا بالنظرية الماركسية في فائض القيمة. نظريةٌ تبدو مقنعة، للوهلة الأولى، مفادها أن مكاسب الأغنياء تتراكم في المجتمعات الرأسمالية، مع زيادة هامش الربح المضاف إلى قيمة السلعة، حتى يؤدي استمرار التراكم إلى تضخم رؤوس الأموال، فيزداد الأغنياء غنىً والفقراء فقرًا وينقسم المجتمع إلى طبقتين متقابلتين، لا بد في خاتمة المطاف من اصطدامهما.. لو درس كارل ماركس الإسلام، حتى وإن لم يؤمن به، لكان قد عرف معنى التكافل وعدَّل من نظرياته، وربما قرَّر كلامًا غير الذي كتبه وفتن به الشيوعيين من أتباعه.

«عفوًا، تأخرتُ عليك».. من فوق الرصيف ألقى له فوَّاز بالعبارة، من دون أن ينتظر منه ردًّا، ودار من أمام السيارة ليعود إلى مقعده ويقود السيارة عائدًا إلى الشارقة. قبل خروجهما من أبي ظبي، توقَّف فوَّازُ في الطريق عند مطعم صغير وجلب منه وجبتيْ غداءٍ سريع. شطائر رقيقة فيها شاورمة الدجاج، ومعها عصير. أكل على هونٍ، بينما فوَّاز

منشغل بمكالماته التي لا تنتهي لكنها لم تمنعه من ملاحظة أن صاحبه الأسمر، حزين النظرة، لم يشرب العصير الذي جاء مع الطعام، ولا ذاك الذي قدَّمه له في دار السيد «خليفة».. ما كاد فوَّاز يُنهي مكالمته حتى سأله عن سبب امتناعه، فأجابه متلعثمًا بأنه منذ فترةٍ لا يشرب العصائر، ولا يأكل من الطعام ما كان حلوًا. حتى صار مؤخرًا، يجد للماء حلاوةً في فمه. اندهش فوَّاز من الكلام واهتمَّ به، فعاد لسؤاله عن سرِّ تحريمه ما أحلَّ الله، وحرمان نفسه من الطيب المباح، فردَّ متحرِّجًا بأنه يفعل ذلك أسفًا على إنسانٍ يتجرَّع الآن من الزمان المرار. تلطَّف فوَّاز بالقول، واحتال، حتى قصَّ عليه طرفًا مما كان من أمر نورا.. استمع جيدًا إليه، ولم يعلق على القصة إلا بقوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾.

بعد زيارته لـ «أبو ظبي»، بيومين، مَرَّ على المكتبة العمومية التي بوسط الشارقة وطلب كُتبًا عن أوزبكستان، فلم يجد غير كتيبٍ دعائيٍّ فقير تتصدره صورة رئيسهم الشبيه بالرجال الروس. قرأ في الكتيب أن المدن الأوزبكية كلها عريقة، يعود إنشاؤها إلى زمنٍ سحيقٍ سجَّل في التاريخ أسماءها الخالدة: طشقند، سمرقند، ترمذ، خيوة، بخارى، فرغانة. وفي نهاية الكتيب وجد صورةً أخرى لرئيسهم «إسلام كريموف» يبتسم من دون ابتهاج. لم يجد ما يريد، فطلب الخرائط وراح يحدق في حدود هذا البلد الواسع، المدفون في قلب القارة من دون شواطئ على بحارٍ أو محيطات. لكنَّ نهرين كبيرين يجريان بأرضه، وفي وسطه بحر يسمى «آرال».

* * *

في منتصف الشهر الثاني من العام الألفين، وقبل الموعد المقرر بأسبوعين، سافر مع فوَّاز إلى طشقند فوصلاها ليلًا بعد ساعاتٍ خمس من الطيران.. المطارُ صغيرٌ، فقيرٌ، خالٍ إلا من ركاب طائرتهم القادمين من بعيد. كلهم من الأوزبك المتشابهة وجوههم، الهادئة حركتهم، المحزونين دومًا من دون سببٍ مفهوم. القادمون العابسون يستقبلهم موظفون عابسون، أيضًا، يجلسون خلف زجاجٍ مدعومٍ بقضبان متينة، كأنهم يخشون الواصلين. كان في انتظارهم خارجَ المطار رجلٌ قصيرٌ سمين، اسمه الثلاثيُّ عربيُّ الأصلِ، مع لواحق عجيبة: عليشير رحمة الله إبراهيموف. قال فوَّاز إنه وكيل الشركة في أوزبكستان، ثم أضاف وهو يبتسم مرهقًا، أن لهذا الأخ الفاضل قريبًا يعمل ضابطًا في المطار، ولذلك خرجا قبل بقية القادمين، ونقصت واحدةٌ من الحقائب التي جاءوا بها.

الأنحاء حول المطار خالية، وخافتة الضوء، وشديدة البرد. كان فوَّاز محقًّا حين شدَّد عليه في ارتداء الملابس الشتوية جدًّا، لكنه لم يخبره أن درجة الحرارة هنا تنخفض عن الصفر، وأن الثلج المندوف يغطي النواحي. منظره مدهشٌ. الطريق الممتدة من المطار إلى «طشقند» واسعةٌ خالية، وعلى جانبيها شجرٌ عالٍ على أطرافه بقايا الثلوج، ومن تحته يتكوَّم الجليدُ ويمتد مع الحوافِّ، كأنه يرسم للأسفلت حدودًا. ساروا صامتين بالسيارة القديمة، روسية الصنع، حتى استعاد فوَّاز في منتصف الطريق حيويته، وتطوع بسكب المعلومات من مقعده المجاور للسائق: عليشير من فضلاء إخواننا الأوزبك، وهو يعرف العربية جيدًا وعقيدته صحيحة بإذن الله، أصله من بخارى، ويقيم في طشقند معظم العام لدواعي العمل.. كان يستمع

إلى فوَّاز بنصف أذن، والنصف الآخر يصفِّر من طول السفر، وغرابة المنظر من خلف زجاج السيارة البائسة. لكنه فهم من الكلام الكثير أن «عليشير» من أقرباء امرأة فوَّاز الأوزبكية.

كان يعرف مما يقوله زملاءُ العمل، أن لفوَّاز زوجتين. الأولى أهلها من بلدة «حمص» لكنها مولودة في الكويت، ولم تذهب يومًا إلى سوريا، والأخرى «أم عبد الله» الأوزبكية التي تزوجها قبل سبع سنين. الزوجتان تعيشان معًا بالشارقة في بيتٍ فسيحٍ، له حوشٌ غير مزروع، يلعب فيه الصغارُ الخمسة بالأراجيح، بينما تسكن الزوجتان بالطابقين الأرضي والأعلى، ولا تتعاركان. فوَّازٌ مقتدرٌ. وكان يعرف مما قاله فوَّاز سابقًا، أن زوجته الأوزبكية سبقته إلى بخارى مع ولديها لزيارة أهلها، ولسوف يلحق بها ويتركه مع «عليشير» يومين يتعرَّف فيهما على طشقند، ثم يأخذه لزيارة مدينة سمرقند ليومين آخرين. وبعد ذلك يأتي إلى بخارى فيمكث هناك ثلاثة أيامٍ، يعود بعدها إلى الشارقة، ويذهب فوَّاز إلى طاجيكستان.. كان ذلكَ هو الترتيب المفترض، لكن الذي حدث في بخارى غيَّر المسار وبدَّل الاختيار.

المطار ليس بعيدًا عن مدينة طشقند، الخالية مداخلها من الناس في هذا الوقت المبكر. بعدما ظهرت البنايات والطرق الفرعية، عرَّج «عليشير» بالسيارة القديمة، فدخل إلى شارعٍ جانبيٍّ كانت تنتظر بآخره السيارةُ الجديدة التي أخذت فوَّاز إلى بخارى. كان الفجرُ يتزحف من خلف السحب الكثيفة، وما لبثت الشمسُ أن أطلَّت من بين ثناياها، بينما عليشير ينـزله أمام الفندق الصغير، الساكن، ثم

يودِّعه بعد الاطمئنان على استقراره بالغرفة المطلة على شجرٍ كثير، مؤكِّدًا له أنه سيعود ليأخذه في الواحدة ظهرًا، للتجوُّل في المدينة.

طشقند رحيبةٌ واسعةُ الشوارع، ومبانيها معظمها جديدٌ وضخم، وليس فيها آثار يعتدُّ بها. لأن الزلازل مسحت مرارًا من فوق أرضها، ما كان قائمًا، فكانوا يعيدون البناء على عجل. وأهلها يتكلمون الأوزبكية والروسية، ولا يعرفون العربية، لكنهم يعتقدون أنها لغةٌ مقدَّسة لأنهم يرون العبارات القرآنية مكتوبةً بلغتها الأصلية، على ما تبقى من جدران القرون الخالية. في ابتداء الجولة سأل «عليشير» عن المكان الذي تعلَّم فيه العربية، فأجابه بأنه خريج الجامعة الإسلامية التي تدرِّسها، وهو يقوم بتدريسها الآن للطلبة في دورات ينظمها المركز الثقافي المصري بطشقند، بعد حينٍ عاد وسأله عن السبب في أن الأذان لا يعلو في الأجواء، مع أنهما في وسط المدينة، فأخبره «عليشير» بأن الأذان ممنوعٌ تمامًا في طشقند، ومن غير المسموح أن يصلِّي الناسُ في جماعة، بل من غير المأمون أن يصلِّي الشخصُ علانيةً. أضاف هامسًا وهو يتلفَّت: الذي يتديَّن هنا، تسميه الحكومة «وهَّابي» وهي كلمة تعني عندهم «إرهابي» ولا جزاء لصاحبها غير الاعتقال والتعذيب.. كان عليشير خائفًا وهو يتكلم، مع أنهما في السيارة وحدهما.

مرًّا على حديقة فسيحة يتوسَّطها تمثالٌ نحاسيٌّ هائلُ الارتفاع، يصوِّر رجلًا فوق حصان، قال عليشير إنه «أمير تيمور» واضطرب حين ردَّ عليه قائلًا: آه، تيمور لنك.. حذَّره عليشير من قول ذلك، لأن كلمة «لَنك» تعني الأعرج. وهو وصفٌ صحيح للإمبراطور القديم،

يستخدمه العربُ والعثمانيون من الأتراك، لكن الأوزبك يكرهون ترديده لأنهم يحبون صاحبه. نظر ثانيةً إلى التمثال الضخم، فوجد الفارس سليم البنية ولا عرج فيه، فهمس بأن هذا التمثال مزيفٌ ولا يعبر عن صورة الرجل، فردَّ عليه «عليشير» بكلام لم يكن يتوقعه: كل ما في طشقند مزيفٌ؛ لأنها مقر الحكومة الكافرة الضالة، لكن المدن الأوزبكية الأخرى أفضل من هذه العاصمة؛ لأنها أقرب إلى الإسلام.

بدايةٌ تُقلق.

في طرف الحديقة شارعٌ مفتوحٌ عليها، على جانبيه باعةٌ يفترشون الأرض وحولهم بضائع قديمة متنوعة. تماثيل خزفية ملونة، لوحات زيتية لرجال ونساء يلبسون الحرير، أطباق من الخزف المزخرف، مفارش منقوشة. في منتصف الشارع مطعمٌ على الجهة اليمنى، أمامه طاولات بسيطة مصفوفة فوق الرصيف، أخذه «عليشير» إليه، وطلب طعامًا جاء بعد قليل مشويًا في أسياخ، بها قطعٌ من لحم الضأن والسمك والدجاج والبصل، كلها معًا، ومعها خبزٌ سميك يشبه «العيش الشمسي» وزجاجةٌ معتمةٌ صبَّ منها عليشير قليلًا في الكوبين وهو يقول كأنه لا يقول خطيرًا، إنها زجاجة فودكا لكن الذي فيها ماءٌ حلال، فاشربه على مهل كأنك تحتسي خمرًا، فقد يكون هناك مَنْ ينظر إلينا، ويجب علينا عدم إثارة الشكوك: ولكن لا تقلق، صاحب المطعم قريبٌ لي، وهو رجل صالح.. شرب رشفات من الكوب فوجده ماءً حلالًا، طيبًا، وأعجبته الحيلة التي يدفع عليشير بها الأنظار عنه، في بلد صار فيه الإسلام تهمةً. بعد حينٍ، لاحظ أن العابرين يحدِّقون نحوه، فقال ذلك لصاحبه فابتسم وهو يقول: يستغربون سُمرتك.

في طشقند ميادين فسيحة، وحدائق متشابهة الشجر، تقوم بقلبها تماثيلُ كبارٌ لرجالٍ مشهورين من الأوزبك، أو يريد الأوزبك أن يكونوا منهم، كالشاعر المعروف عندهم «عليشير نوائي» والعلامة أبي الريحان «البيروني» والسلطان «أُلُغ بك» حفيد أمير تيمور، لنك.. أهل المدينة هادئون وُدَعاء، وفيهم شقراواتٌ كاسياتٌ عاريات مع أن البرد شديد، فما الذي ترتديه النساء هنا في الصيف؟ سأل عليشير فأجابه بأن هؤلاء روسيات غير مسلمات، ولكن الأوزبكيات محافظات كبقية المسلمات. هكذا قال. بعد ساعات من التجوال، وجد بعدما تأمل في الوجوه، أن في أهل طشقند ذلةً غير معلنة، وهم يسيرون في الطرقات مستسلمين كأنهم يُساقون إلى حتفهم وهم ينظرون بعيونٍ ساكنةٍ مطفأة.

الناسُ هنا يأكلون لحوم الخيل، ويستعملون نقودًا اسمها «سوم» ليس لها مقدار محدَّد، فالدولار الأمريكي يساوي بالسعر الحكومي ثلاثمائة سوم، لكنه في السوق السوداء بألفٍ وخمسمائة. فارقٌ كبير. ومع أن الأسعار رخيصةٌ والبلادَ واسعةٌ وغنية، فإن الناس معظمهم فقراء، ولا تزيد رواتبهم الشهرية في الغالب على عشرين دولارًا أو ما يقابلها بالسوم. سوم العذاب. والتعامل بالنقد الأجنبيِّ محظورٌ تمامًا، وعواقبه على البسطاء وخيمةٌ، حسبما أخبره عليشير.

في يومه الثاني بطشقند الهادئة، الحزينة، زار مبكرًا مكانًا لطيفًا في البلدة القديمة. دارت السيارة في شوارع ضيِّقة، بين بيوت قصار ليس لها أدوار، ثم استدار عليشير يمينًا بعدما ابتعدت البيوت وأوقف سيارته عند حائط عالٍ مزخرف، مكتوب على واجهته المرتفعة

بالعربية والروسية والأوزبكية: الإدارة الدينية لمسلمي أوزبكستان ووسط آسيا. كثيرٌ من الكلمات الأوزبكية، عربيةُ الأصل. ووراء الحائط العالي، مبنى منخفض فيه حديقة مهملة، حولها غرفٌ معدودات، خالية. لم يجدا هناك مَنْ يدير المسلمين دينًا ولا دنيا. أخبره عليشير بأن هذا المكان هو مقر «المفتي» لكنه لا يأتيه كثيرًا، ولا يأتي إليه أحدٌ لطلب فتاواه. والمبنى الذي خلفه، هو مقام الشيخ «القفَّال الشاشي» الذي أدخل المذهب الشافعي إلى بلاد الأوزبك قبل ألف عام، ولكن أهل البلاد اليوم على المذهب الحنفي. وإن كان معظم الناس في طشقند، لا يعرفون أساسًا ما الشافعية، ولا الحنفية. مقرُّ المفتي يقع على يسار الشارع، وعلى يمينه يقوم مخبزٌ متهالكُ الحوائط، تفوح منه رائحةُ أرغفةٍ شهيةٍ يناسب الأكلُ منها المكان. بلطفٍ، سأل عليشير إن كان بالإمكان تذوُّق هذا الخبز الطازج، الفوَّاح، فجاء إليه برغيفٍ كبيرٍ أخذ منه قطعة، وأعطاه الباقي ليأكله. تلك طريقة الأوزبك لإظهار المودة، باقتسام الأرغفة. سار مستمتعًا بمذاق اللقيمات، خلف مرشده، إلى خلف مبنى الإدارة التي لا تدير، لزيارة مقام الشيخ المسمَّى الشاشي.. استفسر: ما معنى هذه الكلمة، شاش؟ هو الاسم القديم لطشقند. ولماذا يبدو المكان مهدَّمًا ومهجورًا؟ لأن الحكومة لا تعتني به، والناس لا يأتونه. ألا يوجد بهذه المباني ما يستحق المشاهدة؟ سوف أريك بعد قليل، المصحف الذي قُتِل الخليفة «عثمان بن عفان» وهو يقرأ فيه.

رجع به عليشير إلى المبنى القصير المواجه لمقر المفتي، وتركه جالسًا عند المدخل، ودخل يكلِّم أحد القائمين على المكان، أو يعطيه شيئًا ليسمح لهما برؤية الأثر الجليل. ما كان بالمكان إلا قائمٌ

وحيد. رجلٌ قصيرٌ يرتدي سترة أوزبكية مزخرفة بخيوطٍ ذهبية، كانت يومًا لامعة. الرجلُ خرج خلف عليشير، من بابٍ صغير على يسار الداخل إلى حديقة المبنى القصير، الذي ظهر أنه مكتبةٌ تضم كنوزًا من المخطوطات القديمة.

قيِّمُ المكتبة تقدَّم أمامهما وفتح الباب القصير، مثله، فدخلوا قاعة فسيحة ملوَّنة الحوائط، ودافئة، بجوانبها فاترينات للعرض فيها مخطوطات مفتوحة. الرجل يتكلم بالعربية. اقترب بهما من الفاترينات، وراح يكرر كلامًا يحفظه. هذه أوراق من مصحفٍ قديمٍ مكتوبٍ بخط ياقوت المستعصمي، وهذه مخطوطة كتاب للقاسم بن سلاَّم عنوانه «غريب الحديث».. وهذه مخطوطة ديوان سنائي.. وهذه..

ـ أين مصحف عثمان؟

استدار بهما الرجل وسار إلى دهليز قصير، بآخره حجرة كالجحر ليس فيها إلا مصحفٌ كبيرٌ، عتيقٌ، موضوع في خزانة حائطية. المصحف متآكلُ الأطراف، عريض الصفحات، مكتوبٌ بالقلم العربي القديم على جلودٍ تكاد تتقصَّف إذا تناقلتها الأيدي، ومفتوحٌ على الصفحة التي بأسفلها آثار دماءٍ قانيةٍ قديمة، نزلت عند موضع الآية القرآنية (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) بعدما تهامسوا بفاتحة الكتاب، أكَّد عليشير ما قاله القائمُ على المكتبة من أن هذا الدم دم الخليفة، والمصحف مصحفه.. يجوز.

من الضُّحى إلى بعيد الغروب، ظلَّ عليشير يدور به في أنحاء المدينة الواسعة، ثم عاد به إلى الفندق ليرتاح من الدوران وينام

مبكرًا. لأنهما حسبما أكَّد عليه، سيخرجان في الصباح الباكر إلى سمرقند.. وهو يفتح باب غرفته، تمنى أن يجد في سمرقند ما لم يجده في طشقند. الساعة الآن السابعة مساءً بتوقيتهم المحلي، وليس هناك ما يمكن القيام به إلا النوم حتى أوان الفجر، بعد صلاة العصر والمغرب، جمعًا. فعل ذلك لكنه انتبه من نومه في غير الموعد، فوجد الساعة تشير إلى التاسعة والنصف، ولم تفلح محاولاته لمعاودة النوم. نظر من شباك غرفته فلم يشاهد إلا الصمت والسكون، والملل، فبدا له أن ينـزل للجلوس حينًا في مدخل الفندق، لينشغل بأي شيء حتى تأتيه سكرةُ النعاس. لكنه وجد المكان خاليًا إلا من موظف استقبالٍ لا يحب الكلام مع النـزلاء، فخرج إلى الشارع ليدور حول الفندق دورةً تجعله قادرًا على الهجوع مجددًا فوجد الأنحاء خاليةً وفيها ظلام. الساعة بلغت، ببطء، العاشرة والنصف مساءً. سأل موظف الفندق إن كانت المنطقة المحيطة بالفندق آمنة للتجوال ليلًا، فردَّ عليه بإنجليزيةٍ رشيقة: أكيد آمنة، لكن الجو بارد.

وحيدًا تمشَّى حول فندقه فلم يجد من الناس مارةً، ولا جُلوسًا، فجاس تحت الأشجار العالية حتى لمح من بعيدٍ أنوارًا. اقترب منها فوجدها مقهىً على رصيفه مقاعد قليلة، خالية، وداخله محجوبٌ بستائر حمراء معتمةٍ، تنسدل خلف زجاج الواجهات. جلس على مقعد عند طرف الرصيف، وهو ينوي الحصول على كوبٍ من الشاي الأخضر، ليستدفئ بسخونته من البرد الذي اشتد مع حركة الهواء. جاء شابٌ طويلٌ وسيم، لسانه طلقٌ، فطلب منه الشاي الأخضر الذي يريد.. الشابُ ابتسم مستغربًا جلوسه وحيدًا في هذا الزمهرير،

ومستنكرًا، وداعيًا إياه للدخول في الدفء ليستمتع حسبما قال، بمشروبه. لا بأس.

تقدَّمه الشابُّ إلى بابٍ، من بعده بابٌ يفتح على صالة فسيحة، فيها من الطاولات والمقاعد ما يكفي كثيرين لكنها شبه خالية. قلب المقهى هادئٌ دافئٌ، خافت الضوء، بقلبه دائرةٌ خشبيةٌ تعلو الأرض بدرجتين في وسطها عمودٌ معدني لامع، يمتد ما بين السقف والأرضية. جلس على أقرب الطاولات من الباب المؤدِّي إلى الباب، ولم يكن بالمكان من الزبائن غير ثلاثةِ رجال يجلسون في الزاوية الأبعد عنه، وينهمكون في حوارٍ هادئٍ لا يخلو من ضحكات خافتة تتخلله كل حين.

جاءه الشابُّ الأشقرُ بالشاي ساخنًا، وسأله وهو يبتسمُ إن كان أمريكيًّا. فضحك وهو يجيبه بأنه سوداني، فلم يفهم، فأجاب من جديد بأنه «مصري» فابتسم الشابُّ وهو يقول: نعم، الأهرامات. ثم سأله إن كان يريد مزيدًا من الشاي أو أيَّ مشروبٍ آخر، أو طعامًا؛ لأنه سيدفع ثمنًا واحدًا في كل الأحوال، عشرين دولارًا، مهما كان ما يطلبه. فيما عدا الويسكي فإن له سعرًا مخصوصًا.

هل المبلغُ المطلوبُ مبالغٌ فيه، أو لعل الشابَّ يخدعه لأنه وجده غريبًا ويشبه الأمريكيين السُّمر؟ لا بأس. سيدفع العشرين دولارًا ولن يطلب ويسكي ولا طعامًا، قال ذلك للشابِّ فابتسم بسعادةٍ مصطنعةٍ وانصرف من أمامه. مرت دقائق ساكنةٌ انسابت بعدها موسيقى راقصة الإيقاع ظلت تتعالى رويدًا مع ظهور فتاةٍ خرجت إلى الصالة من باب جانبي صغير، وعلى وجهها ابتسامةٌ عريضة. الفتاةُ شقراءُ جدًّا

ورشيقةٌ، وترتدي من خفيف الملابس وشفَّافها، ما يجعلها كواحدةٍ من بنات الملوك في غرفة نومها. كان كلُّ ما فيها يستوجبُ غضَّ البصر، لكنها ابتسمت له وأومأت مرحِّبةً، فاضطر للرد على الابتسام بابتسام. رأى منها ما رَقَّ، وراق له: بريقَ شعرها الذهبي، لمعة عينيها الواسعتين الزرقاوين، نصف صدرها المكشوف، فخذيها المسحوبين من عسل السماء. أستغفر الله.

عاد إلى إبريق شايه وتشاغل بصبِّ المزيد في الفنجان، بينما النغماتُ تصدح عاليةً في المكان والفتاةُ تعتلي المنصة المنخفضة، وتتمايل على الأنغام راقصةً. الجالسون الثلاثة لم يلتفتوا ناحية الحورية التي انشقَّ عنها الحائط، ولم يقطعوا كلامهم، كأن الأمر المبهر المهمَّ لا يحدث أمامهم. مع أنه أمرٌ مهول. هل يطول تمايل الفتاة حول العمود المعدني؛ فيضطر للخروج تلافيًا لارتكاب الذنوبِ بناظريه، يظل جالسًا ويختلس النظر، ليعرف كيف سينتهي فعلها العجيب؟ الحسناء المسحورة راحت ترمي من فوق جسمها، بدلالٍ لا نظير له، الغُلالات الحريرية التي ما كانت تخفي الكثير، أصلًا، وأخذت تتلفَّت نحوه وهي تتمايل باسمةً. أستغفر الله. ببطءٍ مقصودٍ وغير محمود الخاتمة، خلعت الفتاة ما كان يستر صدرها المكشوف وراحت تؤرجح بأطراف أصابعها، حمَّالة النهدين اللذين صارا عاريين. نهدها عبقريٌّ. جسمها كله فتَّانٌ، فاتكٌ بمن ينظر إليه لأول مرةٍ، وربما كان فاتنًا دومًا وفاتكًا أبدًا.

ما الذي يجري؟ لا يجوز له البقاء بهذا المكان. ولكن لا يصح الخروج قبل أن يعرف نهايةً لما تقوم به الفتاة الفاتنة، فاحشة الحسن،

من أفعال الدلال. الله يعفو عن كثير. الأضواءُ الحمراءُ الخافتة، الدافئة، أضافت إلى صدر الفتاة لونًا سحريًا وبريقًا يعلِّق العين بحركة الحلمة النافرة، الملغومة. التصقت عيناه بجسم الفتاة، على غير إرادةٍ منه، فما استطاع لها حِوَلًا. حتى زاغ البصر لحظة خروج فتاةٍ أخرى، جسمها أجمل من الأولى وأكثر بريقًا وألقًا. جاءت من الباب ذاته، وارتقت إلى العمود المعدني ذاته لتلقي هي الأخرى برفقٍ ما كان يستر صدرها.. الزبائن القلائل منهمكون في كلامهم غير المهم، ولم يلتفتوا نحو الفتاتيْن إلا لمامًا، حتى بعدما انكشفت الحلماتُ النافراتُ الساحراتُ. حسنًا. سوف يفعل مثلهم، ولن يحدِّق نحو الفتاتين مهما كان من سحر جسميهما، ومن روعة العُري الأنثوي، ومن شغفه ودهشته. لم يقدر. فقد شرعت الفتاتان في طرح ما يستر النصف السفلي، الأخطر، وصارتا بعد حين مكشوفتين إلى المدى الأبعد، لولا أن رقعتين حريريتيْن لوناهما الأحمرُ والأسودُ، تستران التفاحتين، ولا يمسكهما إلا خيطٌ رفيعٌ لا يكاد يخفي شيئًا من المؤخِّرتين المقدودتين من شمع العسل.. أجسامُ النساء بديعةُ التكوين، رهيفةُ النعومة، شهيةٌ حتى لمن شبع.

جرف الجمالُ الفاتنُ عقله، وعلَّق ناظريه بالحوريتين اللتين راحت كل واحدة منهما، تبادله الملتهب من نظراتٍ تُفصح عما فيها من شهوةٍ، وتفضح ما فيه من شوقٍ وصبوة.. شبَّ ببدنه الحريق، فلم يستطع البقاء لوقتٍ أطول. كان لا بد له من الخروج لإطفاء اللهيب بالهواء البارد، ويستعصم من نسيان نفسه المشرفة على الانفجار، ويسرع إلى سريره حتى لا يحدث ما لا تحمد عُقباه.

بأصابع ترتجفُ أطرافها، وقلبٍ يرتعش، ترك الدولارات العشرين بجانب إبريق الشاي الفارغ، وقام ليخرج بينما الفتاتان المتمايلتان تهزّان له رأسيهما غير راضيتين عن خروجه المبكر. ما بين البابين، لحقت به فتاةٌ ثالثةٌ لا تقلّ عن السابقتين حُسنًا، ولا عُريًا، لكنها تزيد عنهما عُمرًا. حتى السائحات القادمات إلى أسوان من أنحاء الدنيا، ليس فيهن جمالٌ كهذا. قالت الفتاةُ الثالثةُ كلامًا لم يفهمه، فنادى الشاب النادل ليستعين به على فهم كلامها. وهو يبتسم بغير خجلٍ، ترجِم له الشاب ما كانت الفتاةُ تقول بالروسية، والعياذ بالله: هي تريد الذهاب معه لقضاء الليلة، مقابل عشرين دولارًا، وإذا لم يكن لديك فندق أو شقة تناسب اللقاء، فسوف تستضيفك الليلة في غرفتها القريبة من هنا، وفي الصباح تدفع لها ثلاثين دولارًا.

لا عشرين دولارًا يا فَسَقة، ولا ثلاثين. قال للشاب إنه لا يريد شيئًا وخرج مسرعًا كمن يفرُّ من أمرٍ يرغبه، ويهرب من شيءٍ يشتهيه ولا يعرفه. الأخوفُ من الأمور ما لا يُعرفُ. في طريقه إلى الفندق حدَّث نفسه بأنه فعل الصواب، بعدما اقترف بعض الإثم ببقائه حتى تعرَّت أمامه الفتاتان، لكن الأمور تُقاس بالخواتيم لا بالابتداء. وهو بحمد الله لم يستمرئ مسايرة الهوى حتى تصير خاتمته المعصية، أو يقع في الزنا الذي ضيَّع «سهيل» من قبل، وخرَّب حياته. وذاك الذي عرضته عليه الفتاةُ الثالثةُ، هو أفحش الزنا وأخطره، لأنه بمقابل ماليٍّ من دون تمييز الفاعلين. وتلك هي الدعارة والعياذ بالله.

قبل بلوغه الفندق والتحصُّن في غرفته، خايلته اجتهاداتٌ وتفانينُ شرعيةٌ ربما تسمح بالإباحة، هي تحايُلاتٌ ومماحكات. منها أن

الفتيات الفاتنات روسيات، وهو الآن في بلدٍ إسلاميٍّ وإن حُظر فيه الأذان، وقد يستطيع بوصفه مسلمًا أن يحصل على واحدة منهن وينكحها وقتما شاء، برخصة «مِلك اليمين» التي سمحت بها الشريعةُ، خصوصًا أنه سوف يتردَّد كثيرًا على هذا البلد. أو يمكنه بطريقةٍ أخرى أن يعقد عليها حينًا محدودًا، بحسب الشريعة المسماة «المتعة» وهو الزواج الذي أُحلَّ للمسلمين ثم حُرِّم ثم أبيح في عهد النبي، وحظره من بعد ذلك الخليفةُ عُمر. لماذا حظره علينا؟ الشيعةُ مسلمون ويعملون به؛ لأنه يوسِّع على المسافرين. لكن ثمة إشكالاتٌ وموانعُ، أولها أنه ليس شيعيًّا، وثانيها أنه يخاف ويتَّقي، وثالثها أن ملك اليمين لا ينكحها غير صاحبها، وقد تُنجب منه فتكون «أم ولد» ويصير لها عنده حقوق، ولن يروق فعله هذا في عين الذين يعرفونه، ولن يسامحوه أو يعذروا. لماذا لا يعذر الناسُ الناس، ويتسامحون فيما لم يضرهم؟

تحت غطاء الفراش، لم يفلح طقسه الليلي المعتاد، في إخماد فورانه، واستجلاب النوم إلى بدنه الهامد. هو لم يهمد من مرةٍ، فهل يقوم بالفعل الاضطراريِّ ثانيةً، أم يكتفي بتخيُّل الأشياء التي اشتهاها، وأخافته، فلم يقدر على فعلها مع الروسيات المبهرات.. خطرت نورا على ذهنه، فجأةً، ومسَّت برفقٍ قلبه المعذَّب فأسالت على وسادته دموعًا ساخنةً، وآسفًا تنهَّد مرات حتى تلاصق جَفْناه وأسلماه إلى منامٍ أسلمه للأحلام.

رأى نفسه عاريًا في صحراء، ومتحيِّرًا، وقد تضاءل حجمه حتى صار كقصار الأقزام، ومن حوله تمتد أرضٌ لا شكل لها، ليس فيها إلا الرمال

الحارقة للأقدام. من ورائه جاءه الشيخُ «نقطة» ترفُّ عباءته من حوله كأجنحة النسر، وقد غدا بدنُه النحيلُ ضخمًا كالعماليق. عيناه الطيبتان غاضبتان وتقدحان الشرر. شدَّه الشيخُ من شعره، ومشى به مثلما تُساقُ النعاجُ من آذانها، وهو خجلانُ من عُريه بين يدي الشيخ. من بعيدٍ رأى الفتاة المتعرية، الأولى، تستلقي على سَبَخَةٍ وفخذاها ينفرجان. جرَّه الشيخُ إليها ودسَّ رأسه عنوةً بين المنفرجين، ثم داس عليه بقدمه وهو يزوم كالرعد الغاضب، حتى اندسَّ أنفه في تفاحة الفتاة المشتهاة فوجدها عطنةً، عفنةً. تفوحُ برائحةٍ لا تحتمل، أشنع زهومةً من سمك «الفسيخ» المتفسِّخ، والفاسد من سمك «التركين». أراد الخلاص فما استطاع، لثِقَل قَدَم الشيخ ورسوخها خلف رأسه. احتبست فيه الأنفاسُ وأشرف على الهلاك وهو مدفونُ الوجه في الفرج الشنيع، لا يستطيع الحركة ولا البقاء، متخشِّبَ القلب مشلولَ الأطراف.

...

فجأةً، انتفض مرعوبًا بعد طول تفزُّع في السرير، فوجد الرائحة العفنة تملأ أنفه والغرفة، فاندفع إلى حوض الحمَّام وتقيَّأ بقوةٍ حتى كاد يُفرغ قلبه مع بقايا الطعام. ثم عاد منكَّس الرأس، فجلس على طرف سريره ذليلًا حتى دخل الفجر، فلم يستطع القيام للصلاة لما في نفسه من أسفٍ وإفلاسٍ.. لماذا قسوت عليه في المنام يا شيخنا، وأنت تعرف أنه مسكينٌ أصلًا وبريء، ولا حيلة بيده؟ أم تراك يا مولانا فعلت ما كنت تردِّده دومًا على مسامع جلسائك، من قول سيدي عبد القادر: كفُّ القيِّم إذا لم تكن خشنة، لم تُخرج من بدن المريد الوسخ.. قسوةٌ هنا وقسوةٌ هناك، وهذا المسكين بين القسوتين منسيٌّ ومحصورٌ ومحرومٌ، تحيط بأنفاسه عفونةُ

السمك الفاسد، فتحرمه من الصلاة بعد معاناة ليلةٍ ليلاء جرت الوقائع فيها، من دون تدبيرٍ منه ولا قَصْدٍ، فصار محرومًا حتى من الاستغفار.

بدت من بين ثنيات الستائر أنوارُ شمسٍ تحجبها جبالٌ من السحاب، بينما الإجهادُ قد بلغ به مداه، فأمال رأسه إلى الحائط وهو متكومٌ فوق سريره عساه يُرحم فينام.. تخاطفت جفنيه وسناتٌ سريعة وغَفْواتٌ، رأى فيها الشيخ «نقطة» واقفًا على قُلَّة جبل شاهقٍ وهو يصيح بصوتٍ يملأ الكون، قائلًا من شريف الأحاديث: إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة، يكون نصب عينيه تائبًا فارًّا، حتى يدخل الجنة.

في الصباح لم يخبر عليشير بما جرى الليلة السابقة، وارتاح حين خرجت بهما السيارة من طشقند إلى الطريق الزراعي الطويل، الذاهب إلى سمرقند. الإسلامية حقًّا. وصلا بعد ساعات خمس حافلة تحت الأفق المفتوح، بمشاهد الخضرة المغطاة بالثلوج. لم تسرع بهما السيارة بأكثر من ثمانين كيلومترًا في الساعة. طيلة الطريق راح عليشير يحكي عن أحوال البلاد، وظُلم حاكمها، وبؤس معارضيه، وفقر العباد مع أن خيرات البلاد وفيرة، ونيَّة الحكومة منح الأمريكيين قاعدةً عسكريةً يستعينون بها على حربهم في أفغانستان المجاورة للحدود من جهة الجنوب. بينما ظلَّ هو صامتًا، مكتفيًا بالاستماع من غير إصغاء، وهو شارد الفكر فيما جرى ليلة الأمس.. في منتصف الطريق، مرَّ بباله أن يكتب قصيدةً يُصالح بها الشعر ويقول في بدايتها:

أريدُ ألا أريد

لا أمتلئ ولا أستزيدُ

أصومُ عن الأكوان ولا يعودُ العيدُ
فما مُرادٌ ثَمَّ، وما مُرِيدُ

بدا له أن يسجِّل ما جال بخاطره من أشعار، ثم صرف عن ذلك النظر، وأجال البصر في الأنحاء فارتدَّ إليه خاسئًا وهو حسير.. راح يتدبَّر ما يحكيه عليشير عن أحوال بلاده، ويقرنه بأحوال البلدان التي هجرها رغمًا عنه، فانتبه فجأةً إلى أن البلاد والمحال، هي التي تهاجر عن أهلها حين تهجرهم وهم في حضنها، وتقسو عليهم بغير حق، فهجمت عليه الحيرةُ والتعجُّب من اتساع المجال وتطابق الأحوال.

العالمُ فسيحٌ ومحير.

استراحا في الفندق السمرقندي ساعةً، ونزلا أوان العصر إلى مكانٍ بديعٍ قال عليشير إن اسمه «ريجستان» أي المكان الرملي، أو ساحة الرمل. هي ساحةٌ فسيحة تطل عليها واجهاتٌ عاليةٌ، كأعمدة الكَرْنَك، مليئة بالزخارف المدهشة. أشار عليشير إلى أنها واجهات مدارس ثلاثة، بناها هنا المسلمون قبل مئات السنين. مدرسة «طِلا كاري» أي طلاء الذهب، ومدرسة شيردار، ومدرسة أُلغ بك. لا يوجد وراء الواجهات العاليات إلا غرفٌ منخفضة، تبيع لقلَّةٍ من الزوَّار الخزف الملوَّن والسجاد الثقيل والمفارش المطرَّزة. الأسعارُ رخيصةٌ لكن عليشير يراها مرتفعةً، ويرى الباعةَ يستغلون السائحين. لحظة خروجه من الريجستان تذكَّر «سهيل» ونوى أن يهاتفه بعد العودة إلى الشارقة؛ ليحكي له عن هذا المكان، مؤكِّدًا له أن الإسلام صنع فنًّا بديعًا لا يقل عما تركه المصريون القدماء.

الأعجبُ في سمرقند والأبدعُ من بقايا المساجد والقصور المليئة

بالزخارف، هو قبر «بيبـي خاتون» زوجة تيمور. ليس لأن قبة القبر العالية وحوائطه مفعمةٌ بالتزيين والزخرف، ولكن لأنه سأل عليشير عن قبر زوجها الإمبراطور، وهو يعتقد أنه سيكون بالضرورة أكبر حجمًا وأبهى رونقًا من مقام الزوجة، لكنه اكتشف أن الرجل مدفون تحت هذه القبة القريبة المنخفضة، فقيرة الزخارف. أخذه إليها عليشير فوجد تحت القبة الجرداء مقبرةً متواضعة، تحتها مقبرةٌ أصغرُ مغطاة ببلاطة بيضاء تناسب قبر طفلٍ صغير، واندهش حين عرف أن المدفون في القبر الأصغر هو الإمبراطور تيمور، وأما القبر الأكبر فقد بناه في حياته لأستاذه المتوفى، وأوصى أن يدفن هو بعد وفاته في قبرٍ صغيرٍ تحت قدميه. سبحان الله. هذا الرجل الذي ملأ العالم ترويعًا وهولًا، وكان بعد حروبه ومجازره يأمر عساكره فيصنعون له من جماجم المهزومين أهرامًا عالية، تضم آلافًا كثيرة من رؤوس أعدائه المقتولين. وبعد هذا المرار، يُقيم لامرأته المزار المزخرف البهي ولأستاذه المقبرة المهيبة، ويُوصي بأن يُدفن هو تحت هذه البلاطة كما لو كان واحدًا من أولياء الله الصالحين، المغمورين.

في اليوم التالي أخذه عليشير بالسيارة، مبكرًا، إلى مكان يبعد عن سمرقند نصف ساعة. وأخبره في الطريق أنهما ذاهبان لزيارة مقام «الإمام البخاري» الذي ظل ضريحه مجهولًا بعد وفاته لمئات السنين، حتى كشف عنه قبل سنواتٍ رجلٌ صالحٌ من السعودية، جاء من أقصى البلاد يسعى ويفتش عن القبر، حتى اهتدى إليه ودعا الناس لإقامة مشهدٍ هنا، يليق بالإمام.. سأل عليشير عن اسم البلدة التي يقصدان، فأجابه بأنها اندثرت اليوم ولم تعد بلدةً، وكان اسمها في الماضي «خرتنك» وفيها توفي الإمام سنة ٢٥٦ للهجرة بعدما طرده أهل بخارى، واعترض

أناسٌ في سمرقند على دخوله إليها، فوقف الإمام بين البلدتين حائرًا ثم دعا ربه قائلًا: اللهم إني قد ضاقت عليَّ الأرضُ بما رحبت، فاقبضني إليك.. وأحاط به الحزنُ حتى مات بعد أيام.

ـ ولماذا فعلوا ذلك مع الإمام؟

ـ اتهموه في عقيدته.

ـ كيف يا عليشير؟ هل تقصد البخاري صاحب صحيح الأحاديث النبوية؟

ـ نعم، هو.

المكان الذي وصلا إليه خالٍ من خارجه، إلا من الثلوج، ولا بيوت حوله، يحوطه سورٌ طويل فيه بوابة يمتدُّ خلفها طريقٌ محفوفٌ بالخضرة البيضاء، بآخره المشهد البهي المزخرفة قُبَّته المبهرة، بقطع الفسيفساء الأزرق. القباب في بلاد الأوزبك كلها زرقاء. دار به عليشير إلى خلف البناء البديع المرتفع بالقُبَّة إلى قرابة عشرين مترًا، ودخلا من بابٍ صغيرٍ يفتح على درجٍ نازلٍ إلى قبر صغير، فوقه بلاطة منقوش عليها أن ذلك هو قبر الإمام الجليل.. وهما يخرجان من المزار، تذكر خريطة البلاد فسأل عليشير عن بحر آرال، فأجاب: جفَّ.

قبل أوان الظهر، ذهب به عليشير لزيارة بعض الإخوة، والغداء معهم في بيتٍ بأطراف سمرقند. لا هو بالريفي ولا بالمدني. فيه من الرجال ما يزيد على عشرين أعمارُهم ما بين العشرين والستين، كلهم أوزبك، استقبلوه بحفاوةٍ وترحاب. وراح بعضهم يكلِّمه بالعربية

الصريحة وبعضهم الآخر بلهجة المتعلِّمين، لكنهم جميعًا سعدوا بزيارته وأنسوا إليه، خصوصًا صاحب البيت الذي قال متفاخرًا إنه عاش بمصر سنواتٍ، وزار الأزهر مرات. ما كادت تمرُّ ساعةٌ حتى دعوه للصلاة بهم إمامًا، فتمنَّع، فأصرُّوا لأنه أفضل مَنْ يقرأ القرآن، فقام متحرِّجًا. وهم يصطفُّون من خلفه، سكنوا خاشعين حين بدأ بإعلاء الأذان لقيام الصلاة: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.. مَدَّ الكلمات، ونغَّم صوته كأنه يتلو ترنيمةً روحية للاستغفار، وحين انتهى سمع شيخًا منهم يقول من خلفه بصوتٍ رقيق، أفرحَ الباقين: أبو بلال.

التفت إلى الوراء مبتسمًا واطمأن إلى انتظام الصفوف، ثم شرع في الصلاة بهم وأطال السجدة الأخيرة. وهو قريبُ الرأس من الأرض تذكَّر ليلته الماضية، ففاضت منه دموعُ الورع وهو يهمس بدعائه المحبَّب: (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين) وتملَّكه الحالُ. بعد التسليم أجهش بالبكاء فأبكى كثيرًا ممن خلفه، وخشع الجميع، ثم التفوا حوله وصافحوه بفرحة بسطاء المؤمنين. كأنه «بلال» مؤذِّن الرسول قد عاد إليهم من خلف القرون، ليؤمَّهم في تلك الصلاة التي ساقها الله إليه، كما يسوق الماء إلى بلدٍ ميتٍ وتجلَّى عليه خلالها على نحوٍ خفيٍّ، بحقيقة أن روحه وجسمه قد عادا يأتلفانِ.

اللهُ رحيمٌ ومحيِّر.

صاحبُ البيت الذي زار الأزهر، قال باسمًا بطريقة المصريين: حَرَمًا يا أبا بلال. فردَّ عليه بالمعتاد: «جمعًا» ونـزل مع الجمع إلى الأرض، والتفوا فرحين حول هرم يعلو طبقًا خزفيًّا كبيرًا، فيه أكلتهم الشعبية المعتادة عند الزيارات والاحتفالات والاحتفاءات. هي وجبةٌ شهية

يسمونها «بُلُوفّ» ويطبخونها بطريقةٍ مخصوصةٍ يخلطون فيها الأرز بقطع الخضروات واللحم. راحوا جميعًا ينحتون بالملاعق من هرم «البُلُوفّ» ويضعون في أطباقهم وفي طبقه، حتى أكل قَدْرًا ما كان يتوقعه، وانشرح قلبه بالفرح حين صاروا كلهم ينادونه: أبو بلال.

استبقوه في سمرقند حتى أذَّن لهم لصلاة العصر، وصلَّى بهم وقد زاد عددهم فصاروا في حدود الأربعين.. بعد الصلاة قال عليشير إنهما لو ظلا حتى صلاة المغرب، فسوف يأتي المئاتُ ليسمعوا منه الأذان ويصلُّوا خلفه، لكنهما مضطران للسفر إلى بخارى قبلما يدهمهم سوادُ الليل على الطريق.

خرج خلفهما الجميعُ مودِّعين، وفي عيونهم الطيبةِ فرحةٌ وابتهاجٌ بالضيف الأسمر الغريب «أبو بلال» وأسفٌ على فراقه. في الطريق إلى بخارى هجمت عليه من البهجة موجاتٌ، فغسلت قلبه بماء الثلج والبَرَد. امتلأ بالرضا لأنه استعاد روحه، وارتدَّ حيًّا من بعد الموات. ما عدا الأسفلت المكشوط بالجرَّافات، كانت الثلوجٌ تغطي «بخارى» وما حولها، فلم يميِّز من معالم المدينة شيئًا في ابتداء الليل. لكنه عرف في الصباح أنها كمعظم المدن العتيقة، فيها جزءٌ أثريٌّ للزوار والسائحين، وبلدةٌ قديمة لأواسط الناس والفقراء، وأخرى حديثة يسكنها أواسط الناس والأغنياء. في البلدة القديمة كان فوَّاز ينتظرهما، وحوله طفلاه يلعبان أمام باب بيتٍ لا طوابق فوقه، وحين رآه رحَّب به ممازحًا: أهلين وسهلين يا أبو بلال.

ـ السلام عليكم يا عمّ فواز، واضح إن الأخبار وصلت بالتليفون.

أخذه فوَّاز إلى غرفة ضيوفٍ تؤدي إلى الشارع الضيق من

بابٍ، وإلى داخل البيت من بابٍ يقابله. الغرفة رحبةٌ ودافئةٌ. ذهب عليشير بسيارته إلى زوجته وأولاده المقيمين هنا، وجاء فوَّاز من داخل البيت بإبريق قال إن فيه أفضل أنواع الشاي الأخضر، اسمه «خمسة وخمسون» يأتون به من الصين. كان مذاقه بالفعل طيبًا. وهما يحتسيان من الفناجين الخزفية العريضة الزرقاء، قال فوَّاز إنه مستبشرٌ بما جرى اليوم في سمرقند، فمن المهم أن نوثِّق الصلة بالناس هنا؛ فهم إخواننا في الدين، والصلات الطيبة معهم ستكون مفيدة للشركة. سأل فوَّاز مستفسرًا عن المكان الذي تنوي الشركة إنشاء مصنع الألبان فيه، فقال إنه سيكون في منتصف الطريق الواصل إلى سمرقند ليسهل توزيع المنتجات هناك، وهنا في بخارى، وفي وادي فرغانة. ثم استدرك وأضاف بغير أسى، أن بعض المشكلات تعوق حاليًا إتمام المشروع، لكنها سوف تُحلُّ قريبًا بإذن الله.

ـ مشكلات إيه يا عم فوَّاز،خير إن شاء الله؟

ـ أشياء تتعلق بتخصيص الأرض وتحويل العملة.

غيَّر فوَّاز مسار الكلام بأن دعا امرأته «أم عبد الله» لتحية الضيف ووضع الطعام للعشاء. دخلت عليهما مرحبةً باللغة العربية وبيديها أطباق، ومن خلفها فتاةٌ تحمل طاولةً خفيفةً قصيرة القوائم، وصينيةً نحاسيةً منقوشةً لها حوافّ. المائدةُ توسَّطت الغرفة وعمرت بقطع الجبن والأرغفة الكبار وإناء الحساء العامر بقطع اللحم والخضروات. شدةُ البرد تُجيع.

لم يتبين ملامح امرأة فوَّاز ولا البنت التي تساعدها، لأنه غضَّ البصر عنهما وتشاغل بإخراج أيِّ شيءٍ من حقيبته، حتى اقترب منه

الطفلان فشغلته الملاطفة، عن متابعة اللتين تعدَّان المائدة. هبط مع فوَّاز إلى الطعام فوجده شهيًّا، فامتدحه، فقال فوَّاز باسمًا: «صحتين» وبشَّره بأنهم سوف يعدُّون له في الغد طعامًا أشهى، على الطريقة البُخارية. وأخبره بأن هذا البيت كان مهجورًا فأجَّرته الشركة من صاحبه، وجدَّدته ليكون استراحةً للمندوب ومستقرًّا في أثناء الزيارات: البيت واسعٌ ولك غرفةٌ فيه، منفردة، ستجدها بإذن الله مريحة.

ـ أنا ممكن أروح أي فندق.

ـ ولو.. هنا أفضل لك.

البيتُ متسعٌ بالفعل وفيه خلف غرفة الضيوف ثلاثُ غرفٍ مفتوحةٍ على صالة، مفتوحةٍ على ما يشبه حوشًا نصفه مسقوفٌ بجذوع شجر، وبآخره غرفةٌ منـزويةٌ بجوارها دورة مياه. بعد صلاة العشاء أخذه فوَّاز إلى الغرفة المنفردة، فنام هناك هانئًا حتى أطلَّت على الدنيا شمسُ اليوم الجديد وبدا ضوؤها من خلف ستور السحاب الثقيل. بقي في فراشه الدافئ لحظاتٍ، مستمتعًا، ثم قام يتحسَّس طريقه إلى دورة المياه اللصيقة. عند خروجه من الباب إلى الباب، لمح تحت سقف الحوش الفتاة التي رآها الليلة الماضية، وهي تجلس مثل سحابةٍ حنون أمام فرنٍ مقبَّب. تُوقد نارَه. وبجوارها عجوزٌ تتدثَّر بوشاحٍ قديمٍ من الصوف المصبوغ، وكلتاهما تنهمك في إعداد فطير الفطور، فلم تلتفتا إليه. ولا هو التفت. عاد إلى الغرفة متوضِّئًا، وبعد صلاة الفجر جلس ساكنًا على سريره يتلو أوراد الصباح، حتى جاء الصبي «عبد الله» ذو السنوات العشر، ودقَّ بابه ليدعوه إلى الإفطار المبكر.

في غرفة الضيوف كان فوَّاز جالسًا على الأرض بجوار زوجته

وولده الآخر، والفتاة والعجوز، وهم جميعًا متحلِّقون حول طاولة الطعام قصيرة القوائم. ألقى السلام فنظروا جميعًا إليه وهم يردُّون عليه، وأفسحوا له موضعًا، فلمح لوهلةٍ وجه الفتاة وملامحها البريئة، وأم عبد الله المائلة إلى الامتلاء، والعجوز الممتلئة. تناول الفطير المحلَّى بالسكر وهو متحرِّجٌ، حتى تكلم فوَّاز فانشغل عن الحرج بالاستماع إليه، وعرف منه أن العجوز ضيقة العينين، حزينة الوجه، اسمها «فيروزة» وهي عمَّة «أم عبد الله» وجدَّة الفتاة ذات الوجه الصَّبوح.. الفتاة اسمها مُهيرة.

أعجبه الاسم فالتفت إلى «مُهيرة» مراتٍ خلال الفطور، وعندما قامت لرفع المائدة. اختلس النظر إليها، بأدبٍ، فوجد وجهها يُريح أعين الناظرين. قلبُ عينيها حالكُ الاسوداد، مثل شعرها البادية خصلته من تحت ستر الرأس، وبشرة وجهها ناصعةُ البياض كالثلوج. نظرتها أيضًا بيضاءُ بريئةٌ من أيِّ تعبير، وملامحها هادئة مثل وجوه الملائكة. هو لم ير الملائكة من قبل، ولا غيره رآها، فمن أين عرف أن وجوهها هادئة، وعيونها خالية من أيِّ تعبير؟ سأل نفسه فلم يجد جوابًا، فأخذ يفتش في نفسه عن شبهٍ لمهيرة.. فرأى بعد حينٍ أنها تشبه الحمامة البيضاء أو الأرنبة الصغيرة أو الحلم البريء.

خلت الغرفة عليهما فقال فوَّاز وهو يصبُّ الشاي الأخضر البرَّاق، إن امرأته كانت أرملةً لواحدٍ من الإخوان الأوزبك، رحمه الله، وهو أبو «عبد الله» الذي صار مثل ابنه الآخر الذي أنجباه. هي امرأةٌ صالحةٌ تقية، لم يجد منها منذ تزوَّجا إلا الخير، وهذه ابنة أخيها «مهيرة» فتاةٌ طيبةٌ ويتيمة، ومن الممكن أن تكون لك خير زوجة.

ـ بس دي صغيرة يا عم فوَّاز.

ـ عمرها تسعطاش سنة، ما صغيرة.

حسَّن له فوَّازُ الفكرة بامتداح الفتاة وأخلاقها، وبتأكيد أن زواجه من أوزبكية سوف يسهِّل دخوله وخروجه من البلاد، ويساعده على النجاح في عمله الجديد هنا، ويقرِّبه من الناس: والبنت تتكلم العربية، عمَّتها علَّمتها، وهي لا تفوِّت صلاةً ولا فرضًا، ولسوف تنجبان من الأطفال ذرية صالحة وهذا البيت سيكون لكما وقتما تأتيان، ويكون لكما بيتٌ آخر في الشارقة، بدلًا من سكناك منفردًا وسط الهندوس وأشتات الأمم. عمومًا، سيأتي «عليشير» بعد قليل ليأخذك لزيارة المدينة، ففكِّر في الأمر في أثناء تجوالك، ثم أخبرني برأيك حين تعود بعد الظهر، وخير البر عاجله كما تقولون في مصر.

ـ أنا سوداني يا عم فوَّاز، ومصر طردوني منها.

ـ بعرف. لكن شو بدَّك الحين من مصر والسودان، يا أخي دار الإسلام واحدة.

ـ هي فكرة الجواز كويسة، بس أهلي بعيد. العيلة هتقول عليَّ إيه؟

ـ هايقولوا إنك ازَّوَّجت مسلمة صالحة، على سنة الله ورسوله. ده صوت السيارة، أخونا عليشير وصل.

خرج مع عليشير إلى المزارات وذهنه شاردٌ فيما طرحه عليه فوَّاز، فلم تنبهر عيناه بسور بخارى القديم وبقايا قصورها، والمنارات الكبار الدائرة كالأنبوب الهائل، المزخرف. الذي شدَّ ناظريه هو صفاء الثلوج النائمة فوق الأشياء كلها. مُهيرة تبدو نقية القلب، وناصعة كالثلوج.

ولا بد أن هذه الآثار جميعها والتواريخ، وكلها إسلامية، مختزنةٌ فيها عبر الجدّات والأجداد منذ مئات السنين. سيكون فارق عمريهما اثنتي عشرة سنة، وليس ذلك بالفرق الكبير، خصوصًا أنها هادئة الطباع ولا تصخب كالصغار. هي قصيرة قليلًا، لكنها مليحةُ الوجه وبيضاء. سوف ينجبان أطفالًا أجمل، خفاف السمرة، وربما في لون أمهم النقي من الشوائب. البيض أوفر حظًّا في الحياة من السود. والاسمرارُ نصف الجمال، لكن البياض هو الجمال كله مثلما كانت نورا تقول.

وقف به عليشير عند بوابةٍ مقرنسةٍ من أعلاها، بالبلدة القديمة، أمامها ساحة يلعب فيها الأطفالُ ويتقاذفون بالثلوج. من البوابة القديمة خرجت فتيات يتضاحكن ببراءةٍ، على خدودِهم التفاحية حمرةٌ مشتهاة، وفي ملابسهن وستور رؤوسهن تحشُّم المسلمات. دخل به عليشير من البوابة ليريه سوق السائحين الفقير، فكان على يمين البوابة مسجدٌ عتيق. سأل عليشير فأجاب بأنه لا مانع من صلاته هنا، فدخل من فوره ليصلِّي ركعتي استخارة يستفتي فيها السماء، إن كان من الصواب زواجه بالأوزبكية الطيبة الهادئة البيضاء. ما كاد يخرج من عتبة المسجد، حتى قرَّ في قلبه أن الفتاة تناسبه، واستراحت نفسه إلى فكرة الزواج فطلب من عليشير الرجوع به إلى فوَّاز.

* * *

ما كان يخطر له على بال، أن تنساب الأمور بهذه السهولة والسرعة. فما كاد يخبر «فوَّاز»، حتى بادر بالترتيبات وعرض عليه بالليل التفصيلات التي تمت بالفعل في الأيام التالية. قال: اسمع يا أبو بلال، كُنت أحب أن يُقام لك عُرسٌ كبير، تلبس فيه العباءة

الأوزبكية المذهَّبة المخصَّصة لهذه المناسبات السعيدة، ويحتفل بك إخوانك ومُحبوك الجدد لعدة أيام. لكننا لا نريد أن نلفت إلينا الأنظار بلا داعٍ والفرحُ الحقيقي في القلب، لذلك سوف يقتصر العُرس على المقربين من إخواننا، وأسرهم، ونقيمه هنا في المنزل بعد غدٍ لأنني سأخرج في اليوم التالي إلى طاجيكستان، ولسوف أُؤجِّل لك تذكرة السفر أسبوعًا حتى تسعد هنا بزوجتك، ويُنهي لكما الإخوان الأوراق الرسمية والمعاملات الضرورية، ثم تأتيان إلى الشارقة وتسكنان فندقًا تابعًا للشركة، لحين عودتي مع «أم عبد الله» لندبِّر لكما سكنًا يناسب المتزوجين.

جرت الأمور على النحو الذي رسمه فوَّاز، وتم الزواج من دون صخبٍ كثير في ليلة العرس. جاء عليشير بأسرته، مبتهجًا، مع جماعة من أهل بخارى يعرفهم فوَّاز. مهيرة لبست ثوبًا مزركشًا جعلها في عينه مشتهاة، وكانت بين الجمع تضحك، لكنها بعدما انفردا راحت تنظر إليه بخوف، فهداه عقله إلى الترفُّق بها حتى تطمئن. أرادت أولًا النوم على الكنبة المقابلة للسرير، بملابسها، فقال لها بأبسط الكلمات إنه سيقف في الحوش حتى ترتدي جلباب نومها، ثم على السرير يناما من غير أن يقترب منها، حتى تأنس إليه ولو بعد حين.. وقف في ظلام الحوش يرتجف من شدة البرد، فرآه فوَّاز ودعاه للجلوس قليلًا في غرفة الضيوف التي انصرف المدعوون منها، فذهب معه، وذهبت «أم عبد الله» إلى مهيرة لتساعدها، في تغيير ملابسها وخلع ثوب الزفاف المليء بالتطريز، بينما فوَّاز في غرفة الضيوف يوصيه بالنصائح النبوية المعروفة: قدِّموا لأنفسكم.. رفقًا بالقوارير.. وضعك اللقمة في فم زوجتك صدقة. صدق رسول الله.

ما كان يعرف أن مهيرة مليحةٌ فاتنةٌ، وفيها هذا الحسن مخبوءٌ. حتى عاد فرآهـا فـي ثوب النـوم مكشوفة الشعر، وخجلى، ومستسلمة. لا بد أن عمتها كلَّمتها بما سحرها وغيَّر حالها. أخذها من يدها إلى السرير برفق، فقامت معه وسكنت بين ذراعيه حتى استطاع قبل الفجر أن يولج أصابعه، ويخلع عنها ملابسها، وهي مستترةٌ من عينيه تحت لحاف السرير.. طلبت منه بكلمات طفولية أن يطفئ ما بقي من نور الغرفة الخافت أصلًا، ففعل، وطلب منها أن تغمض عينيها وتدفع عنها الخوف وتقترب، ففعلت. اعتلى سحابًا، أو قطنًا مندوفًا، أو بحيرةً من حليب. سبح فوق حناياها حتى توهجت أنحاؤها من تحته، وحين احتضنته من دون تدبيرٍ منها ولا خبرة، حلَّق بها عاليًا أو حملته هي إلى سماواتٍ بعيدةٍ دافئةٍ، فارتجفا معًا بعدما صارا جسمًا واحدًا من المحال فَضّمه وتفرُّقه.. مهيرةُ مُهرٌ هبط من الجنة.

في الصباح ودَّعا «فوَّاز» وأسرته، وانتقلا إلى حجرة أوسع خلف غرفة الضيوف، ودخلت الجدة «فيروزة» لتعيش في الغرفة المفردة التي تدفَّقت فيها بالأمس عيونُ العسل الفوَّار من تفاحة مهيرة، الطيبة، الفوَّاحة بعطور البخور. بعد يومين من هيمانه في الأفق البخاري، جلس وحده في غرفة النوم ينتظر الغداء، فمرَّت بخياله «نورا» وأحياءُ الإسكندرية ومحطات القطار، وتذكر «سهيل» التعيس الذي كان في زمن غفلته يقول متفاحشًا، إن النكاح الحرام أحلى من الحلال وأشهى.. كلامه كان فاحشةً وخطيئةً وساءَ سبيلًا.

بعد عشرة أيام من زواجه، لا أسبوع، عاد بمهيرة إلى الشارقة وسكنا فندقًا هادئًا يطل على الخليج الهادئ، حتى جاء فوَّاز ودبَّر له

المسكن الذي وعد، واختاره قريبًا من بيته كي ترعى «أم عبد الله» مهيرة، وتعتني بها في الغربة. السيد «خليفة» أرسل إليه مبلغًا من المال، كهدية للزواج، وأمه أرسلت لمسامعه دعواتٍ كثيرة. لم تندهش حين أخبرها بالزواج، كأنها كانت تتوقع، لكنها استعطفته ليأتي مع عروسه لزيارتها؛ فقد مَرَّ عامان على انقطاعه عن السودان. حاضر يا أمي. سهيل ضحك حين أبلغه هاتفيًّا بأمر الزواج، ولم يزد عن قوله: مبروك يا زول.. لا يعرف سهيل أن الاسم تغيَّر فصار «أبو بلال» بل إن «فوَّاز» وامرأته وزملاء العمل بالشارقة، كلهم، أصبحوا ينادونه بالاسم الجديد كأنه مولود به. لا بد أن «فوَّاز» هو الذي دعاهم لذلك.

من بعد عودته لم يعد موزِّع بضائع، فقد نقلته الشركة إلى عمل إداري بحسابات المخازن، وزادت راتبه إلى عشرة آلاف درهم كل شهر. وهذا خيرٌ كثير. صار يرسل لأمه سبعمائة دولار كل شهر، ولإخوته هدايا مع المغتربين العائدين إلى السودان.

بعد استقراره في البيت الجديد، بشهرين، طلب منه فوَّاز السفر مجدَّدًا إلى طشقند، لخمسة أيام يترك فيها مُهيرة مع عمَّتها، ويلتقي هناك بعليشير ويعطيه هذه الأمانة. مائتي ألف دولار. نصحه بأن يخبِّئها في قاع حقيبته، ولا يكتبها في الاستمارة التي سيعطونها له عند الوصول، حتى لا تحدث معه مشكلات.. لكن هذا المبلغ كبير يا عم فوَّاز، ولم يسبق لي أن سافرت بمثل هذا المال الكثير، أو حتى رأيته. قال ذلك لفوَّاز، فطمأنه بطريقته الواثقة مؤكِّدًا أنه لا خوف عليه من نقل الأموال، ولا تثريب، ولو عرف في الأمر خطرًا عليه لما كلَّفه القيام به. قال: يعلم الله يا «أبو بلال» أنك عندي عزيزٌ كأخٍ

أصغر، ومهيرة زوجتك مثل ابنتي، ولولا ثقتي بك لما اخترتك لهذه المهمة التي طالما قمت بها من قبلك، ولولا أن الحكومة هناك تنهب التحويلات، لما كان هناك داعٍ لذهابك بالمال نقدًا.

ما كاد يقترب من فهم الكلام السابق، أو يطمئن إليه، حتى أضاف فوَّاز وكأنه لا يقول شيئًا خطيرًا، أن جزءًا من هذا المال لمشروع الشركة، والجزءُ الآخر زكاةٌ يخرجها السيد «خليفة» للأرامل وأُسر الشهداء، وللإخوان الذين يعلون كلمة الله في تلك البلاد البائسة ويحفظون فيها جذوة الدين الحق، وقريب «عليشير» الضابط بالمطار. اسمه «رحمة الله». سوف يتابع من بعيد وصولك ويسهِّل لك الخروج بالمال من المطار: لا تسأل عنه، هو يعرفك ويعرف موعد الوصول. وسوف ينتظرك أخونا عليشير بالسيارة خارج المطار، ويكون معك في طشقند كما فعل المرة السابقة، وعليك بعدم الخروج من الفندق ليلًا؛ لئلا تلفت إليك الأنظار.

* * *

سافر بالمال وسلَّمه، وبعد شهرين سافر بمثله، وصار كل شهرين أو ثلاثة يقوم بالمهمة ذاتها. مع أن مشروع الشركة تعطَّل بسبب جشع الموظفين وتكالبهم على الرشوة، ولكن الفقراء في أوزبكستان وأفغانستان حسبما قال فوَّاز، يحتاجون ما يصلهم من مالٍ ومؤازرةٍ من إخوانهم المسلمين الذين تأخَّروا عليهم طويلًا بعد الاستقلال. قال: هل تصدِّق؟ أول رحلات الطيران المنتظمة، كانت بين طشقند وتل أبيب، على خطوط شركة «العال» الإسرائيلية التي لا تزال إلى اليوم تقدم للمسافرين أسعارًا تشجيعية، غير ربحية. لكن الفرج قريب

بإذن الله، فقد استفاق المسلمون هنا وهناك، وتقاربوا مؤخرًا، بعد كُلِّ ما جرى من جهادٍ في بلاد الأفغان والأوزبك. والآن، الإخوانُ ينتظرون دعم جهادهم الذي اقترب من النجاح، وقاربت أحوال بلادهم على الاستقرار بعدما مَنَّ الله عليهم بقائدٍ يتَّقي الله، هو البطل الطاجيكي الذي عرفه الناسُ منذ أيام الجهاد ضد الروس. اسمه أحمد شاه مسعود.

عندما أخبره فوَّاز بذلك وهما جالسان في المساء بحديقة المنـزل والأطفال من حولهم يلعبون حول الأراجيح، استغرب في سرِّه أن تدعم الشركة رجلًا من «الطاجيك» المعروف عنهم أنهم من الشيعة، وسأل عن ذلك، فردَّ عليه فوَّاز بأن الشيعة والسنة في الجهاد سواء. والإسلام يحتاج جهد أبنائه المخلصين من أمثال «شاه مسعود» الذي أبلى دومًا بلاءً حسنًا، وهو الآن أملُ الإسلام في قلب آسيا بعدما سارع إليها الأمريكيون، وأنزلوا جيوشهم في أفغانستان وحصلوا من الحكومة الأوزبكية على قاعدة عسكرية، ليتمكنوا من تصفية المجاهدين ويخلوا لهم المجال لاستغلال ثروات المسلمين ويتركوهم فقراء، أذلاء لرؤساء فاسدين.

ـ وإزاي هايقدر عليهم شاه مسعود؟

ـ يقدر بعون الله يا «أبو بلال»، ومعاونة أهل الخير، وعنده بحمد الله جيش نظامي من الأبطال.

سكت فوَّاز لحظاتٍ، ثم أضاف كأنه يستدرك على ما قال، إن الشركة لا تموِّل الأعمال الجهادية ولا الحروب، لكنها تأسو بمال المسلمين الميسورين جراح المسلمين البائسين الذين لحقهم الوبالُ

بسبب القتال، وصارت نساؤهم ثكالى وأطفالهم مُيتَّمين بلا ذنبٍ.. جاءت «أم عبد الله» من داخل المنـزل بأطباقٍ للعشاء، فيها فطائرُ رِقاق وأجبانٌ وحليبٌ ساخن، لكنها لم تأتِ بالطبع باشتهاءٍ لهذا الطعام، بعدما انسدَّت عنه نفسه من كلام فوَّاز الفوَّار بالآلام. قالت وهي تضع لهما الطعام، إن مهيرة ستأكل معهم بالداخل، فهزَّ لها رأسه كالشاكرين ولم يعقِّب. كان باله مشغولًا بما يقوله فوَّاز، وبسؤال آخر:

ـ بس يا عم فواز، فيه ناس مسلمين في بلاد العرب، حالهم أصعب. ليه الشركة ما بتساعدهم؟

ـ المشكلة في الحكومات، لا هيَّ بترحم ولا بتترك رحمة ربنا تنزل.

ـ كيف يعني؟

ـ يسرقون المساعدات.

أكل فوَّاز لقيماتٍ قليلات وهو شارد الذهن، ثم عاد للكلام الأول وأفاض في بيان الأحوال الجاريات ببلاد الأوزبك والأفغان، فقال ما ملخصه إن «شاه مسعود» يشبه رجال الصدر الأول للإسلام الذين فتحوا الأرض بعزمهم وعمق إيمانهم، وهو مجاهد صُلبٌ اجتمع حوله في شمال أفغانستان مجاهدو الأفغان من ذوي الأصول الطاجيكية والأوزبكية، مع أتباع عبد الرشيد «دوستم» وعبد رَبِّ الرسول «سياف» وفريق من الأفغان العرب، بينما مال الفريق الآخر منهم إلى أسامة بن لادن وجماعة طالبان التي يقودها في جنوب ووسط أفغانستان «الملا محمد عمر» ويجتمع تحت لوائها البشتون.

ـ يعني إيه بشتون يا عم فوَّاز ؟

الأفغانُ جماعات كثيرة وقبائل شتى، منهم بشتون وأوزبك وطاجيك. والبشتونُ قبائلُ كثيرةٌ تسكن جنوب ووسط أفغانستان، ويتداخلون مع المسلمين في شمال باكستان. والأفغانُ الأوزبك يرتبطون بأهلهم في وادي فرغانة بجنوب أوزبكستان، ولديهم في الأرض الأوزبكية جيشٌ قوامه خمسة آلاف مجاهد. والأفغانُ من الأصول الطاجيكية، يتداخلون مع إخوانهم في طاجيكستان، لكنهم في النهاية أفغان. والوضعُ معقدٌ بين هذه الجماعات المتناحرة، مع أنهم جميعًا مسلمون.

خرجت مُهيرة مستعدةً للعودة إلى بيتها، فقام معها من دون كلام، وأدار السيارة التي اشتراها مؤخرًا بأقساط مريحة، وسار إلى البيت وعقله متحيرٌ فيما قاله فوَّاز. بينما قلبه يضطرب بسؤالٍ لا يعرف جوابه إلا الله العليم الخبير: إلى أين تقودنا هذا الأهوال كلها؟ لكنها بحمد الله بعيدةٌ عن هنا.

هكذا ظنَّ.

قَنْدهار

في مطلع العام الأول بعد الألفين، عاد بالطائرة من طشقند للمرة الرابعة وهو مشرَّد البال، جلس بجوار الشباك الصغير وراح ينظر إلى الأسفل متأملًا في قمم جبال السحاب، وليس في ذهنه هَمٌّ أهمُّ من تأخُّر مُهيرة في الحمل. أحسَّ بأنه سحابةٌ سوف تنقشع عند اختلاف الفصول ولن تترك في الوجود أثرًا، فلو سقطت الطائرةُ الآن أو مات لأي سبب آخر، فسوف ينقطع نسله واسمه وذكره. لن يكون له ولدٌ صالحٌ يدعو له. الطبيبةُ أكدت لهما مرارًا انعدام موانع الحمل عند كليهما، وعليهما الانتظار حتى يأذن لهما الله، لأن هذا الأمر بيده تعالى.

الأمورُ كلها بيدِه.

في جلسةٍ مسائيةٍ واساه فوَّاز حين رآه مهمومًا بأمل الإنجاب، ومهيرةَ أيضًا مهمومةً، بأن للصبر حلاوةً لا تقلُّ عن حلاوة الفرح بالنوال، لكن أكثر الناس لا يعلمون. ثم تبسَّط معه في الكلام ناصحًا إياه بالانتظار عامًا آخر وتلاوة بعض الأدعية قبل الجماع، فإذا تأخَّر الحبلُ أكثر من ذلك على مُهيرة، صحَّ له الزواج مجدَّدًا. وهو على

كل حالٍ صحيحٌ؛ لإحياء السنة النبوية. أردف فوَّاز ممازحًا على غير عادته، أن أقدارنا في علم الغيب ولا يعلمها إلا الله: ولعله تعالى أراد لك الزوجتين حتى تنجبا معًا فتكون لك ذريةٌ كثيرة، صالحةٌ بإذنه تعالى، وأرجو من الله أن تأتيك مُهيرة بالولد أولًا، فتكون هي «أم بلال» ولكن ماذا لو رزق الله أولًا ببنت؟ هل فكَّرت في اسمٍ لها؟

ـ نورا..

ما عاد في الفترة الأخيرة يكلِّم مهيرة إلا لمامًا، لكنه لم يهمل يومًا شؤونها ولم يظلمها قَطّ؛ لأنها مسكينةٌ مثله ولا حيلة بيدها. هل يخبرها بما اقترحه فوَّاز؟ لا داعي، فسوف تلتزم الصمت مثلما تفعل دومًا، ولن تفصح عن أي شيء مهما سألها عما بها حتى إنه لم يفهم يومًا ما يدور بخواطرها من خلال صمتها الطويل. لكنها في نهاية الأمر امرأةٌ طيبةٌ، وهادئة، وهو لا يحب أذيتها بزواج جديد. اللهم إلا في حال الاضطرار. في الشهر الثالث من العام، كان في الشارقة مشغولًا بما يشغل معظم الناس في العالم، فقد توالت الأخبارُ مؤكِّدةً عزم زعيم حركة طالبان الأفغانية «الملا عمر» تدمير تمثالين هائلين بمنطقة باميان الواقعة تحت سلطته؛ لأنهما يصوران «بوذا» المقدَّس عند غير المسلمين، مع أن الناس مسلمين كانوا أو غير مسلمين، يحرصون على زيارة التمثالين والسياحة حولهما. التمثال الأول منهما يرتفع خمسة وخمسين مترًا، والآخر سبعةً وثلاثين، وهما معروفان عند الأفغان والعرب باسم: صلصال وشمَّامة.

كان العالمُ كله يستعطف طالبان وزعيمها، كي يتركوا التمثالين على حالهما، حتى لو حظروا حولهما الزيارة أو منعوا السياحة

بالمنطقة. لكن «الملا عمر» لا يستجيب للاستعطاف، ويقول على الملأ: أن أُبعثَ يوم القيامة محطِّمَ أصنام، خيرٌ من بعثي تاجرَ أصنام.. اهتمَّ بمتابعة الموضوع، يوميًّا، وكان فوَّاز أيضًا مهتمًّا بما سينتهي إليه الأمر، ولكن بقدرٍ أقل. أما هو، فكان كلما رأى صورة التمثالين في تليفزيون منـزله، ومهيرةُ ساكنةٌ بجواره، تذكَّر تماثيل «أبوسمبل» وأعمدة الكرنك ومعبدها، ونورا، ويستغرب إصرار زعيم طالبان على اقتراف ما لم يفعله المسلمون الأوائل، ولم ينصحوا بمثله. كما كان يستغرب من قعود «أسامة بن لادن» عن نصح صاحبه الملا، ودعوته إلى صرف النظر عن الفعل الشنيع الذي ينويه.

مهيرةُ لم تفهم انشغاله. أرادت في أمسيةٍ أن تواسيه، فقالت بلسان البراءة والإشفاق عليه، إنه يجب ألَّا يفرط في القلق على مصير حجارة في بلادٍ بعيدة. لم يردّ عليها.

غمرته الأحزانُ يوم دمَّرت طالبان التمثالين، وكاد يبكي مثلما بكى كثيرون وهم يرون على الشاشات الأثر القديم، وقد صار غبارًا يذروه الهواء.. بعدها اعتقد في سرِّه أن هذا الحادث كان على نحوٍ خفيٍّ، نذير شؤم؛ لأن المصائب تتالت بعد وقوعه: السيدُ «خليفة الغانم» اشتدَّ عليه المرض، فنقلوه إلى دارٍ للاستشفاء والعناية المركَّزة.. أمورُ الشركة تضطربُ، والجميعُ من العاملين والمتعاملين قلقون من المستقبل.. فوَّازُ يخيِّم عليه حزنٌ غير مفهوم.. مهيرةُ لم تحبل.. أحوالُ السودان تسوء.. سهيل أقعده اهتراءُ كبده.. العالمُ صار محلًّا للأحزان.

لا تأتي المصائبُ فُرادى.

في مطلع الشهر التاسع من السنة الأولى بعد الألفين، توفي إلى

رحمة الله السيد «خليفة» وبعده بسبعة أيامٍ قُتل «شاه مسعود» اغتيالًا على يد رجلين مسلمين، وقُتل بعده بيومين ألوفُ الناس في أمريكا عندما سيقت طائراتٌ لتصطدم عمدًا بمبانٍ وأبراجٍ شاهقة. مات من الأبرياء كثيرون، بينما جماعة «القاعدة» تهلّل للأمر وتفرح. وراح زعيمها «بن لادن» الذي رآه قبل سنوات في السودان، متواضعًا وديعًا كالشعراء، يبعث بالرسائل التليفزيونية المريعة داعيًا إلى مزيدٍ من القتل والتدمير وتدبير أعمال الموت.. العالمُ اختلَّ.

قبل انتهاء العام استدعاه فوَّاز في المساء، على عجل؛ ليخبره بأمرٍ غريب. قال إنه قرَّر الذهاب بزوجته وأولاده إلى طاجيكستان، ولسوف يقضي هناك بقية عمره، ولولا أن الأرزاق في ذلك البلد محدودة، لكان قد اصطحبه معه ليعيش مع مهيرة بجوارهم هناك: خُذ، هذه عشرة آلاف دولار مكافأة نهاية خدمتك بالشركة، ولا تذهب غدًا إلى المصنع لأن ورثة السيد «خليفة» سوف يبيعونه ويُصَفُّون الأعمال جميعها دفعةً، فتدبَّر أمرك..

ـ كيف يا عمّ فوَّاز؟

أجابه بما مفاده: عندك هنا إقامة، ويمكنك إيجاد وظيفة. أو تعود إلى السودان لتعيش فيها أو في مصر، ولكن لا تذهب أبدًا إلى أوزبكستان، ولا تترك مهيرة تزورها. لأنهم هناك اعتقلوا أخانا «عليشير» المسكين، وأودعوه معتقل «جسليق» الرهيب المشهور بالتعذيب، ولا بد أنه أعطاهم مرغمًا ما أرادوه من اعترافاتٍ بما كان، وبما لم يكن.

* * *

في طريقه إلى منـزله، وطيلة ليلته، كان حائرًا في غده وأيامه الآتية إن أتت، بعدما بدت السبلُ كلها غير مأمونة. بقاؤه هنا مَوات، والرجوع إلى السودان قليل الخيرات، ومصر أرضُ يأس. ولكن لا بأس، فقد صار معه الآن أربعون ألفًا من الدولارات، وهذا في السودان ومصر يساوي مبلغًا يمكنه البدء به. ربما يفتح محلًّا للبقالة ويبيع للناس احتياجاتهم، ويقضي عمره يتأمل في وجوه زبائنه وأحوالهم ومصائرهم بعد حين، فيتلهَّى بذلك عن النظر في ذاته، وعن انتظار مصيره غير المعلوم. والحياةُ سوف تمضي لا محالة، مهما كان من أحوالنا.

بعد صلاة الفجر، استلقى على الكنبة التي في صالة شقته، وهو يفكر في كيفية إبلاغ مهيرة في الصباح بما استجدَّ من الأحوال الفاجعة، ولسوف يؤكد لها بطبيعة الحال أنها ستكون دومًا آمنة معه. ولكن، هل سيكون هو آمنًا أصلًا؟ تثاقل عن الصحو جفناه، فانزلق إلى هوَّة النوم السحيقة.. رأى الشيخ «نقطة»، في منامه واقفًا في وسط السماء، يصيح بصوتٍ يملأ الكون ويهزُّ أركانه كلها، وهو يعيد ترديد عبارة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي: لا راحة لك مع الخلْق، فارجعْ إلى الحق، فهو أَوْلى بك.

بعد يومين كلَّمه فوَّاز مجدَّدًا، ودعاه للمجيء مع مهيرة في المساء لعشاءٍ ربما يكون الأخير، لأنه حجز تذاكر السفر إلى بلاد الطاجيك. ذهابًا فقط. بعد الطعام الذي لا طعم له، قال له فوَّاز إن هناك وظيفة «مصوِّر» متاحة في تليفزيون الجزيرة. ولا مانع عندهم من حصوله عليها، مع أنه لا يملك خبرة التصوير المطلوبة للوظيفة، لكنهم يريدون مراسلين ومصوِّرين لهم في باكستان وأفغانستان، وهو لديه خبرةٌ

السفر إلى قلب آسيا ويعرف كثيرًا من الأمور الجارية هناك. إذا وافقته الوظيفة، فسوف يتلقَّى تدريبًا مكثفًا على التصوير بالكاميرا، في قطر، ثم يسافر لتغطية الأخبار وإرسال التقارير المصوَّرة، وتبقى مهيرة في «الدوحة» إلى حين عودته من الأسفار.. لكن هذه الوظيفة خطرةٌ يا عم فوَّاز، أليس كذلك؟ أظن أنهم يؤمِّنون مراسليهم بقدر المستطاع، وعمومًا فكِّر في الأمر وأعطني رأيك غدًا، لأن الوظيفة لن تنتظر.. هل ترى الأمر مناسبًا يا عم فوَّاز؟ لا أعرف، قرِّر أنت لنفسك ما تريد.

كانت زوجتا فوَّاز تحزمان الأغراض، وتخليان المنـزل على عجلٍ ظاهر، بينما الأطفال يلعبون في حديقة المنـزل بالأراجيح، ويصخبون مثلما يفعل الصغار حين يمرحون. هم لا يعلمون بما يجري، ولا يحملون الهموم البادية على وجه أبيهم، ولا المخاوف التي تخترق القلب. الغفلةُ مريحةٌ، والمعرفةُ طريقٌ للحيرة والشقاء.

بعد رحيل فوَّاز بأهله، بيومين، سافر مع مهيرة لاستلام الوظيفة التي لم تخطر له يومًا على بال، وسكنا بالدوحة في شقة صغيرة بالقرب من حديقةٍ عامةٍ لها اسمٌ عجيب «البِدَع».. نافذةُ الشقة تُري من بعيدٍ خليجًا آخر مفتوحًا على الخليج الكبير، وتطلُّ من قريبٍ على مبنى للبريد يعلوه سقفٌ يشبه أبراج الحمام البريِّ. كان كلما رآه أو مَرَّ به، وَلَّى وجهه عنه بعيدًا ليهرب من شعوره بأنه رآه، وشعر بأنه صار يشبه حمامةً بريةً غبراءَ اللون، فقدت عُشَّها بعد طول تحليقٍ، فلم تعد قادرةً على العودة للبيض وتفريخ الصغار.

في مبنى يشبه المباني التي حوله، تلقَّى لعدَّة أيام تدريبًا على التصوير بكاميرات الديجيتال التي لا تحتاج مهارةً كبيرةً لاستعمالها،

وسمع محاضرات عن كيفية التصرُّف في المواقف الحرجة والمأزق. لكن المأزق الذي كان ينتظره، لم تفلح معه المحاضرات. كانت دورةُ التدريب مكثفةً، تمتدُّ طيلة النهار، ويحضرها معه قرابة عشرين شخصًا من العاملين الجدد، رجالًا ونساء. منهم فتاةٌ فاتنة الالتفاتات، لبنانيةٌ، اسمها «يارا» راحت منذ اليوم الثاني تغازله بالنظرات، لكنه تعامى عنها كأنه لا يُدرك من مقصودها شيئًا. بعد خمسة أيام دعته الفتاةُ إلى شقتها، للاحتفال مع بقية الزملاء بقرب انتهاء الدورة التدريبية، وأضافت أن بإمكانه المجيء مبكرًا عن الموعد الليلي بساعتين، فاعتذر عن الذهاب أصلًا.

بعد انقضاء الأسبوع الأول من شهر أكتوبر، أخبروه بانتهاء التدريب وضرورة استعداده للسفر بعد أسبوع إلى باكستان، ومن ثمَّ إلى أفغانستان.. «على بركة الله» قال ذلك في سرِّه، وراح يمهِّد لمهيرة بالكلام الطيب أرض الطمأنينة، ويؤكد لها أنه سيكون دومًا على اتصالٍ بها، ولسوف يغيب عنها لمدة شهر أو أكثر قليلًا، لكنها لن تحتاج شيئًا في غيابه ولن يحدث لها مكروهٌ هنا، بإذن الله، وإن لزم الأمر يمكنها الاتصال بمكتب خدمة العاملين بالقناة، ولسوف يساعدونها: لا تتصلي بهم إلا عند الضرورة، وبقدر المستطاع لا تخرجي من البيت حتى أعود، وسوف أنزل غدًا إلى السوق لآتيكِ بما سوف تحتاجينه خلال الشهرين القادمين، حتى ماء الشرب.

سكتت مُهيرةُ وفي عينيها النظرةُ ذاتها، المحايدةُ المحيرة، ولما احتضنها سالت منها دموع حارةٌ صامتة. كانت خائفة. بعدما اعتقد أنها نامت، قام من جوارها ليقرأ في الكتاب الذي استعاره في

الصباح من مكتبة القناة، واعدًا بإعادته في الصباح التالي. الكتاب قديم. منشورٌ قبل مائة عام بالتمام والكمال، في السنة الأولى من القرن العشرين. عنوانه «تتمة البيان في تاريخ الأفغان» ومؤلفه المشهور جمال الدين الأفغاني، يبدؤه بقوله إن الأمة الأفغانية معروفة بعزة النفس وشدة البأس، وهي قبائل أهمها البشتون.. ثم يقول من بعد ذلك كلامًا غير مفهوم، أو لعله بسبب تعجُّله في القراءة عاجزُ الذهن عن فهم الكتاب؛ لكثرة الأسماء الغريبة فيه والتفاصيل.. قلَّب الصفحات متعجلًا الوصول إلى نهاية الكتاب، فوجد المؤلف يختمه بأن البلاد الأفغانية مختلفة المناخ لاختلاف أرضها بين الوِهاد والجبال، وليس في مدنها بيوتٌ جميلة إلا بمدينة كابل، لكن العمائر التي كانت بها وبقندهار، دمَّرتها الحروب الدائمة. كان ذلك قبل قرنٍ من الزمان. والأرض الأفغانية حسبما يقول الأفغاني، قابلة لأنواع المزروعات لكنها لا تُزرع لكثرة الفتن وانعدام مهارة الأهالي، وفي بلادهم معادن كثيرة لكنهم غير قادرين على استخراجها. والصنائع عند الأفغان قليلة جدًّا، وهم يكتفون بزراعة بعض البرِّ والشعير والخضروات والتنباك والأفيون والحشيشة.

لم يجد الكتاب مفيدًا فيما يبحث عنه، ولا يجيب بطبيعة الحال عن الأسئلة التي ترتبط برحلته: لماذا يهتم الروس، ثم الأمريكيون من بعدهم، بهذه النواحي القاحلة؟ ولماذا لا يتركون الأفغان وشأنهم؟ ولماذا وافق على هذه الوظيفة؟ ولماذا تسوقه الأقدارُ دومًا إلى المجهول؟ طوى الكتاب ونام على الكنبة كيلا يزعج مهيرة، فقامت من سريرها وغطَّته بملاءةٍ بينما هو غارقٌ في سُباته، يحلم بالجبال.

في الصباح الباكر أعاد الكتاب، واستأذن في إخراج سائقٍ معه ليذهب إلى شراء احتياجات البيت قبل سفره. لحظة ركوب السيارة قال في نفسه إنه لا بد أن يقتني عقب عودته من أولى المهام، سيارةً، فالراتب هنا جيدٌ ويبشر بحياةٍ ناعمة مستقرة.. ابتسم للفكرة بينما السائق الباكستاني يسرع به في الشوارع الواسعة، أراد أن يخبره بأنه ذاهبٌ غدًا إلى باكستان ثم أفغانستان؛ لعله يسمع منه ما يفيد، لكن السائق لا يحسن الكلام بالعربية ولا بالإنجليزية، ولا يحب الكلام مع الأغراب أصلًا.

في مدخل السوق فاجأه وجهٌ يعرفه، لكنه لم يتوقَّع أن يراه. أمل «أمولة العسولة» في ثوبٍ خليجيٍّ أسود من النوع اللامع، المعتاد، وفي يدها أكياس صغار فيها أشياء اشترتها من العطَّار الذي بأول الدكاكين المتجاورة المسماة هنا «سوق واقف».. استفاق من دهشته، ونفض عن لسانه التردُّد وتقدم نحوها: الأخت أمل، صح؟

ـ أيوه. أهلا. إيه ده، إنت هنا؟

ـ أنا جيت من حوالي شهر. وانتي يا أخت أمل هنا من زمان؟

ـ من أربع شهور، أنا وجوزي جينا الفرن ده في عزّ الحرّ، جوزي بيشتغل في شركة الكهربا.

ـ كويس جدًّا، وإن شاء الله مستريحين هنا.

ـ الحمد لله، ماشي الحال. ها نعمل إيه، قال إيه رَمَاك على المر..

ـ قولي لي يا أخت أمل، نورا أخبارها إيه ؟

على المقهى الواسع الواقع على يسار الداخل إلى السوق، جلسا نصف ساعةٍ عامرة بالجديد من الأخبار المهمة، المدهشة، التي سكبتها «أمل» في مسامعه فأحيت أملًا خبا ضوؤه منذ سنين.. نورا انتزعت طلاقها بعد شهر من وفاة أبيها، عنوةً، وعادت بابنتها إلى شقَّة أبيها ويعيشان هناك من شهور. طليقها الواطي طردها مع البنت واستبقى أرملة أبيها في الشقة المستأجرة؛ لمزاجه. البنت الصغيرة اسمها نورا أيضًا: ما شاء الله، البنت طالعة حلوة ودمَّها خفيف، تشبهك الخالق الناطق.. يعني..

اضطرب قلبه، ونظر ناحية المئذنة الحلزونية البادية لعينيه من بعيد، مستغربًا حياته الصاعدة كالحلزون إلى نقطة اللاشيء. حيث الفراغ واللامنتهي. هو راحلٌ غدًا إلى أرضٍ بعيدةٍ، في الجهة المقابلة لأرض نورا البعيدة، أيتصل بها الآن، أم الأصوب الانتظار لحين انتظامه في الوظيفة، وعودته سالمًا من المهمة الأفغانية؟ ولكن ماذا عن مهيرة المنتظرة الآن في المنـزل وحدها، ولسوف تبقى وحدها طيلة فترة غيابه؟ سوف يغيب حسبما أخبروه، شهرًا أو نحو ذلك.

ـ مالك يا سي سمارة، سرحت في إيه؟

ـ أبدًا يا أخت أمل، أَصْلي مسافر بكرة ويمكن أغيب شهر.

ـ وماله. تيجي بالسلامة، خُد نمرتي وكلمني لما ترجع. وانا هاقول لنورا إني قابلتك، هاتفرح جدًّا.

* * *

وصل مع زملائه الثلاثة إلى مدينة «كراتشي» الباكستانية، مساء اليوم التالي، وفي الصباح التالي اتخذ طريقه مع الفريق الإعلامي

إلى الحدود الأفغانية وهو فخورٌ بالسترة التي يلبسونها، وعليها بالإنجليزية الشعار المعروف عالميًّا: برسّ.. وسارت الأمور على ما يرام، حتى ذلك الحد.

كراتشي مدينة مهملة ومطارها مثلها بائس، والطريق منها إلى بلاد الأفغان أشد بؤسًا. وكذلك الناسُ. كانوا كلما عبروا بقومٍ من هؤلاء البؤساء رآهم وهم يلتفَّتون بأعينٍ كفوهات البنادق، وينظَرون إلى سيارتهم المحملة بالأجهزة، خوفًا وطمعًا. راحوا يستجلبون لأنفسهم الحماسة، بساقع التعليقات، بينما يمرقون من الطُّرقات بالسيارة المسرعة آملين في الوصول سالمين، وهم يسمعون شرح مترجمهم الباكستاني الذي يتكلم الإنجليزية بطريقة الهنود، ودومًا يبتسم من دون سببٍ مفهوم.

عند الحدود التي وصلوا إليها مع اقتراب الغروب، أسلمهم المترجمُ الباكستاني إلى مترجمٍ ومرشدٍ أفغانيٍّ له اسمٌ جميلٌ «قارئ» وله وجهٌ طويلٌ صارمُ القَسَماتِ. يعرف العربية والإنجليزية، ولغة الأفغان بالطبع. قال لهم حين رآهم: إذا أردتم الساخن من الأخبار، فعليكم بالإسراع إلى «قندهار» فقد بدأ هناك القصفُ. بدا كأنه سعيدٌ بما جرى، ومبتهجٌ، فأثار بذلك من حيث لا يدري شجاعة الفريق. ولما سأله المراسلُ المتأنق إن كان بإمكانهم الدخول إلى قندهار ليلًا، أجاب بقولٍ واحد: لا، قد يقصفون السيارة بالطائرات.

ـ قل لي يا أخ قارئ، هل القصف يكون دائمًا في الليل؟

ـ لا موعد له، الأمريكيون يقصفون نهارًا ما يرون، وليلًا ما يتحرك. ولن تجدوا الآن من طالبان أحدًا عند الحدود ليعطيكم الإذن

بالمرور، لا بد لكم من الانتظار هنا حتى الصباح.

ـ طيب، هل تتوقع استمرار القصف في قندهار الأيام القادمة؟

ـ طبعًا، وإذا سقطت اليوم كابُل فسوف يزداد..

قضى الفريق ليلته في غرفة غير مجهَّزة للمبيت، منحها لهم أحد الجنود الباكستانيين بعد الغروب، مقابل مائة دولار، وغاب عنهم «قارئ» على وعدٍ بالعودة إليهم عند شروق الشمس. افترشوا الأرض وناموا بعد منتصف الليل متقلِّقين، وفي الصباح ختموا لهم الجوازات بعلامة الخروج من باكستان مؤرَّخةً بيوم العاشر في الشهر العاشر، أكتوبر ٢٠٠٢ نظر إلى جواز سفره، وابتسم بمرارةٍ حين رأى التاريخ المذكور وانتبه إلى أنه كان قبل شهرٍ واحدٍ، يجلس في شقته بالشارقة يشكو الملل.

دخلوا النقطة الحدودية المقابلة، فاستقبلهم جند طالبان الحدوديون، العابسون بلا سبب. لا يرتدون الزيَّ الرسمي كسابقيهم من جُند باكستان، وإنما جلابيب فوقها سترات تقيهم من برودة الصباح الباكر، وعلى أكتافهم بنادق تتوق إلى القتل من النوع المسمَّى «كلاشينكوف». لم يكن «قارئ» قلقًا على موافقة طالبان منحهم الإذن بدخول البلاد، سأله عن سر اطمئنانه فأجابه بإيجازٍ: لأنكم مراسلون مسلمون، ويظهر على جبهاتكم أثر السجود.. احتجزوهم ساعةً، ثم أعطوهم الإذن بالدخول مرةً واحدة، فسارت بهم في الأرض الجرداء، السيارةُ المرسوم على سقفها الكلمة الإنجليزية الحافظة للصحفيين من القصف والقذف وقطف الأرواح: برسّ.

الطريق إلى قندهار منبسطةٌ على سهلٍ واسعٍ يعلو رويدًا كلما توغلت

السيارةُ في الأرض الأفغانية، الخاوية إلا من قطع الأحجار. لا أشجار هنا ولا اخضرار. من الجانبين تبدو جبالٌ بعيدة يتحلَّق فوقها غبشٌ لا هو بالسحاب ولا بالدُّخان، بل هو بين ذلك عوان، ويظهر أحيانًا من بعيدٍ بعض الرعاة وحولهم معزٌ وأغنام، وتبدو حفرٌ كبارٌ تتكاثر كلما ابتعدوا عن الحدود. مهندسُ الاتصال سأل «قارئ» عن تلك الحفر، فأجابه بأنها آثار قنابل ملقاة من الطائرات، قد يصل وزن بعضها إلى عشرة أطنان.

سأل في سره: لماذا يقصف الأمريكيون هذا المدى المفتوح بأطنان من المتفجرات؟ وكاد يوجِّه سؤاله للمترجم «قارئ» لكنه آثر الصمت مكتفيًا بالنظر إلى الجهات الجدباء. لا ثروات هنا باديةٌ للعيان، فلماذا يأتي جيش الروس ومن بعدهم الأمريكان، أملًا في احتلال البلاد؟ ولماذا يتقاتل الأفغان فيما بينهم للانفراد بالحكم، في نواحٍ ليس فيها إلا نُواحُ الريح والكلأُ الشحيح؟.. لعل هناك سببًا عندهم غير معلومٍ لغيرهم. بعد ساعتيْ سيرٍ في الفراغ، وقفت السيارة عند خيمتين يُفترض أنهما نقطة تفتيش، حولهما أفغانٌ غاضبو النظرات والقَسَمات، على أكتافهم بنادق تستعد لإطلاق الطلقات لأهون الأسباب. قارئ قال همسًا حين رآهم «طالبان» ومسَّ كتف السائق ليهدِّئ العجلات ويتوقَّف قبل الوصول إلى الأحجار التي يسدُّون بها الطريق. كان مرعوبًا.

أنزلوهم من السيارة ونظروا بداخلها مليًّا، ثم أخذوا جوازات السفر إلى كبيرهم الجالس في الخيمة الأقرب إلى الطريق. الخيمةُ الأخرى خلفها، وتحتها مشهدٌ عجيب. أكوامٌ سوداءُ موضوعةٌ على الأرض، لا تكاد النظرةُ الأولى تميِّز شيئًا منها. احتجزوهم بجوار

السيارة تحت الشمس ساعةً، في العراء، لحين التأكد حسبما قالوا من صحة الأختام، فعرف أن الليل والنهار هنا متناقضان، ما بين بردٍ قارسٍ ولفحات نار. الأكوامُ السوداء تتحرك تحت الخيمة ببطءٍ، من دون أن تنتقل من مكانها. سبحان الله. بعد لحظات أدرك أنهن نساءٌ أفغانيات، ثم عرف من همس «قارئ» أنهن أسيراتٌ يستدفئ بهن في الليل رجالُ طالبان.. كيف يا قارئ، أليست هذه النسوة مسلمات؟ يا أخي أُسكتْ، طالبان قادمون.

أعطوهم الجوازات فأسرعوا إلى السيارة التي أسرعت مبتعدة عن المكان كأنها تفرّ. من قدر الله إلى قدر الله. كان يريد أن يلتقط بالكاميرا، من خلف زجاج السيارة الخلفي، مشاهد مصوَّرة من نقطة التفتيش لكن «قارئ» وصاحباه نهوه عن ذلك وحذَّروه.. الطريق متشابهٌ، لكن الجبال تقترب كلما اقتربوا من «قندهار» التي تحوطها من الجانبين جبالٌ تنفرج بعدها وتنفتح على سَهْلٍ واسعٍ فيه الطريق الذاهبة منها إلى كابُل. قبل دخول «قندهار» ساعة الظهيرة سأل «قارئ» عما تعنيه كلمة طالبان في لغة الأفغان، فقال إنها تعني «الطلبة» لأنهم كانوا في الأصل طلابًا للعلوم الشرعية، ثم صاروا قوةً تطلب الحكم والسلطان، ثم انقلبوا أيام الروس مقاتلين، ثم أصبحوا اليوم قَتَلَة وفاتكين بالمعارضين. قارئ لا يحبهم.

عند دخولهم البلدة كان المراسلُ يؤرجح رأسه بين سكرات النعاس، وكان مهندس الاتصال قلقًا، مثله، لأن المدخل الخرِب لا يوحي بأيِّ اطمئنان. لكنْ قارئ قال، ربما ليهدِّئ من خوفهما، إن قندهار آمنةٌ نسبيًا لأن «الملا محمد عمر» يسكنها، ويسيطر عليها

مقاتلو طالبان الذين يأتمرون بما يقول فلا يتهاونون فيه ولا يقصِّرون. طيب. ولكن الشوارع والبيوت لا يدل منظرها على أيِّ أمنٍ، وهي إلى الخرائب أقرب، والناسُ في الطرقات إما مسلَّحون وإما مرعوبون. قال ذلك لقارئ، فردَّ عليه بأنها آثار القصف وأحوال الحرب.

عند بيتٍ يشبه الحوش المفتوح، يقع على مقربة من المستشفى البائس المسمَّى هنا بالمستشفى الصيني، وقفت بهم السيارةُ ودخل أمامهم «قارئ» وهو يخبرهم بأن هذا المكان، الخالي تمامًا، هو مقرُّ الصحفيين والمراسلين. في منتصف الحوش أوتادٌ معوجَّة، مرفوعٌ عليها قطعةٌ من قماشٍ حائلِ اللون، تحمي من الشمس، مكتوبٌ فوقها بفرشاةٍ سميكةٍ تلك الكلمة التميمة، الحافظة: برسّ.. الحافظُ هو الله.

ذهب قارئ ليستطلع الأحوال، وجلس المهندسُ على أجهزة اتصاله ليعدها لإرسال التقارير المصوَّرة، وتمدَّد المراسل على طاولةٍ خشبيةٍ لينام ساعة، وبقي هو وحيدًا يتلفَّت.. بعد نصف ساعة أيقظ المهندسُ المراسلَ؛ ليخبره بأن مدينة كابُل توشك على السقوط من يد طالبان، وقد اضطر مراسلهم «تيسير عَلُّوني» إلى الفرار من هناك، وهو الآن في طريقه من باكستان إلى قطر. ما كاد ينتهي من كلامه حتى سمعوا دويَّ انفجارات، ليست بعيدة جدًّا عنهم، ثم عرفوا بعد حينٍ أنها قَصْفُ الطائرات الأمريكية لمطار قندهار. قارئ تأخر. قبل الغروب خرجوا من المقر لينقلوا تقريرًا مصوَّرًا من أقرب المواضع إلى المطار، وأقنعوا السائق بمبلغٍ إضافيٍّ من المال، فأخذهم إلى هناك وهو مشبوح البال بين الجزع والطمع.. لم يمكثوا في الموضع المكشوف بين البلدة المضطربة والمطار المقصوف، إلا عشر دقائق كانت كافية لإعداد التقرير الذي عادوا

به مسرعين، وأرسلوه للبثِّ وهم فخورون بما يفعلون، ومتحمِّسون لكونهم صاروا عين العالم على مأساة الأفغان. ابتهجوا قليلًا، ثم دخل عليهم الليلُ والويلُ.

قبل العاشرة مساءً عاد دويُّ القصف بأعتى مما كان، وأقرب، حتى اهتزَّت من تحتهم الأرضُ ومن حولهم الجدران. لن يرى القاصفون بالطائرات في ظلام الليل تميمة «برس» لكنهم بالقطع يعلمون أن بالجوار مستشفى، ومن المستبعد قصفهم المستشفيات، وهم يعلمون أن بالمكان مراسلين. وربما لا يعلمون. مرت عليهم الليلةُ بخطى الويل بطيئةً، ودهستهم أصواتُ الانفجارات حتى أطلت شمسُ النهار، أخيرًا، فاستعدوا للخروج من مكمنهم لإرسال التقرير المصورً التالي، لكن السائق لم يكن موجودًا ليأخذهم إلى أي مكان. وقفوا حينًا حائرين، ثم قَرَّروا أن ينقلوا تقريرهم من أمام مقرهم؛ لأن حولهم من الكوارث ما يكفي للتصوير، ولا يزال الدخانُ يتصاعد من الأبنية القريبة، وفي الشارع تتناثر قطعٌ من البشر.. ما كادوا يتهيَّأون حتى رأوا المترجم «قارئ» وقد جاءهم خائفًا يترقب. لاموه على اختفائه منذ الأمس، فلم يردَّ، وعرضوا عليه مزيدًا من المال ليبقى معهم فلم يقبل، ورفض الخروج معهم لموقع التصوير لأنه لم يعد مأمونًا. قال قبل أن يفرّ من أمامهم إن المواضع كلها لم تعد مأمونة، فقد سقطت بلدةُ «هراة» أيضًا من يد طالبان، ولم يبق بأيديهم من المدن إلا قندهار. فلا بد أن يكثِّف الأمريكيون هجومهم عليها. وقد عرف قبل قليل أن الفِرَقَ الأفغانية المعادية لطالبان تتزحَّف لاقتناص الفرصة والاستيلاء على قندهار وما حولها، وهم أقوامٌ يكرهون العرب لأنهم كانوا يساعدون طالبان.. أين المفر؟ رأى المراسلُ، ووافقه الفريقُ، أن الأسلم لهم الانتظار بمقرهم

هذا حتى تنجلي الصورة ويجدوا مَنْ يخرج معهم إلى المواقع المناسبة للتصوير، بدلًا من خروجهم الآن على غير هدى، تعرُّضًا للهلاك تحت أجنحة الموت.

ساعة العصر خَفَّ فجأةً عقله، فقال لصاحبيه إنه سيأخذ الكاميرا ويدور دورةً حول المستشفى، وخرج غير مكترثٍ إلا بخاطرٍ واحدٍ هو أنه جاء ليصوِّر الحرب، فليصوِّر الحرب التي جاء لها. خطا فوق الخراب المطمور بالتراب، وفي الوقت الذي يسمونه «اللحظة الذهبية» للتصوير، قبيل الغروب، رأى من العدسة دمارًا كثيرًا يحيط بالمكان، وسمع كثيرًا من الطلقات مختلفة الأصوات، تصل لأذنيه من أنحاء متفرِّقة. أراد مزيدًا من صور الهول المحيط، فدار عند الأطراف دوراتٍ بالكاميرا، ثم رفع عينه اليمنى عن العدسة ليرى الهول بكلتا العينين.. كانت الريحُ تعصف في الأنحاء فتثير أتربةً لها رائحة البارود، وكانت الشمسُ البعيدة تكشف المباني المتهدِّمة من حوله، والحفر الكبار التي خلَّفتها أطنان المتفجرات الساقطة بالأمس من القاصفات.

عاد عند الغروب الشبيه بالفجر، فوجد زميليه ومعهما سائقٌ جديد، وهم جميعًا وقوفٌ عند باب المقر ينظرون ناحية المستشفى الصيني، منتظرين عودته، بعدما تأكدوا من صحة الأخبار التي قالها لهم «قارئ» في الصباح. أخبروه بأن مراسلي شبكة «سي إن إن» مروا بهم قبل قليل، ونصحوهم بالخروج الآن من قندهار للمبيت خارجها والعودة إذا شاءوا في الصباح؛ لأن الليلة ستكون ممطرة بالقنابل الثِّقَال.

خرجوا مع السائق إلى موضعٍ مكشوف، في جهة الجبل، وتركوا

السيارة في حفرةٍ واسعةٍ تحوطها أحجار كبار، وألقوا فوقها قطعَ القماش المهترئ والغصونَ الجافة؛ للتعمية، وكمنوا متجاورين في موضعٍ ظنوه آمنًا لأن حوله صخورًا ضخامًا، قد تقي من الشظايا إذا قُصف الموضع. كانوا كلهم واجمين. تدثّروا من البرد الشديد بالمتاح من الأغطية، حتى هجم الليلُ والطائراتُ المقاتلات. توالى على مدى السمع، والنظر، المدويّ من الانفجارات البارقة بحمرة الفـزع مـع أزيز الأجنحة المحلقة في الظلام. الموتُ أرحمُ من توقُّعـه، والـزوالُ حـلٌّ محتملٌ حين يعسر احتمالُ الأهوال. هل ساقَه القدر ليموت هنا، غريبًا في أرضٍ غريبة، وهو الذي كان قبل أيامٍ يتمنى الأُمنيات؟ كيف ستعرف المسكينة مهيرةُ بموته، وإلى أين سينتهي بها المطاف؟ ليته لم يقابلها يومًا، ولم يلق نورا قَطّ، ولم يأتِ أصلًا إلى الحياة. قال ذلك في نفسه وهو يزوم قُرب زملائه الثلاثة، تحت وطأة الرعب في العراء، وراح بلا سببٍ يستعيد في نفسه آياتٍ من القرآن (والعادياتِ ضبحًا، فالمورياتِ قدحًا، فالمغيرات صُبحًا، فأثرن به نقعًا.. القارعةُ ما القارعة، وما أدراك ما القارعة، يوم يكون الناسُ كالفراش المبثوث، وتكون الجبالُ كالعِهن المنفوش..) ثم تلا الأوراد التي أوصاه بها الشيخُ «نقطة» عندما تدلهمُّ الأمور: سبحانك يا مقلِّب القلوب، سبحانك يا علاَّم الغيوب، سبحانك يا حنَّان، سبحانك يا منَّان، إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى مَعَاد، والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وقل الحق من ربكم فمن شاء..

ـ يا أخي اخفض صوتك، ستقتلنا.

أكمل تلاوته همسًا، واستعاد في نفسه ما يحفظ من آي القرآن،

حتى انتصف الليلُ الأسود فتفرَّقت في قلبه الأهواءُ وشرَّدت أفكاره حتى أطلَّ ضوءُ الفجر.. في كل قصفٍ قطفٌ لأرواح، وقد رأى بعد عودتهم إلى البلدة مع الصباح، أرواحًا كثيرة قُطفت وألقت أبدانها قطعًا بين الجدران المدمَّرة. الجثثُ صارت كأجنحة الفَرَاش المبثوث في نهار «قندهار» فلا شيء في الأنحاء إلا الأشلاء، والأحياء الذين ينتظرون موتهم المرتقب كل حين. القتلُ عند ابتدائه يحتاج سببًا مقبولًا، لكنه إذا احتدم لذاته صار مطلوبًا. هل سيخرج من هنا حيًّا، وهل سيظل حيًّا على الحقيقة لو خرج؟

أدار الكاميرا والتقط مشاهد من شوارع «قندهار» قال مهندسُ الاتصال إنه سوف يصعب بثُّها على الملأ؛ لفظاعتها، وامتلائها بالكثير من قطع أُناسٍ كانوا بالأمس أحياءً. رَدَّ عليه بأنه سوف يصوِّر اللقطات بصرف النظر عما سيقررون بشأنها، ثم طرح عن قلبه شغاف الفزع من الموت؛ ليأسه من عبث الحياة، وتقدَّم زميليه غير متهيِّبٍ من أيِّ أمرٍ. وهل يوجد من الأمور ما هو أَمَرُّ مما يمرُّ بهم الآن؟ في أثناء سيره في الشارع الواسع المفروش بالهول، وعلى كتفه الكاميرا، جاءت من بعيدٍ سيارةٌ مسرعةٌ مكشوفةُ الظهر، فيها هاربون كثيرون من الجحيم إلى الجحيم.

توقفت عنده السيارة وناداه من جوار سائقها رجلٌ يلتحف بأردية الأفغان الغبراء، ويلفُّ رأسه فلا يكاد وجهه يتميز بين الوجوه المتشابهة. اقترب من السيارة، وخلفه زميلاه، فوجدوا المنادي عليهم هو المترجم الهارب «قارئ» الذي لم ينقل لهم منذ رأوه إلا الفواجع المزعجات، الزاعقات.

- إلى أين تذهب مع هؤلاء يا قارئ؟

- إلى الحدود لنحتمي بجنود الباكستان، وعليكم الفرار مثلنا قبل قطع الطرق.

- لا نستطيع يا قارئ، لدينا هنا عمل نقوم به. ولو بقيت معنا، فسوف نجزل لك العطاء.

- لا يمكن. مقاتلو طالبان يتحصَّنون الآن بالبيوت المهدَّمة، ولسوف يحاصرهم الليلة المسلَّحون من أعدائهم، وأنتم لا تعرفون الأفغان حين يقاتلون بعضهم بعضًا. إنهم أشرسُ من الكلاب..

«عليكم بالفرار الآن».. كان ذلك آخر ما قاله قارئ، قبل أن تسرع به السيارة المكشوفة المكدَّسة، بأناسٍ يأملون في الهرب من المجهول إلى المجهول. بعد ساعةٍ من حيرةٍ واضطرابٍ وهلع، قال لهم السائق الجديد إنه سيفارقهم مالم يقرروا فورًا، الفرار من هنا إلى الحدود. وافقوه. قبل خروجه من البلدة، ومن دون استئذان، توقَّف بالسيارة عند بوابة بيتٍ متهدِّم ونزل بسرعة فأتى بفتاةٍ لا يزيد عمرها على سبع سنوات.. ما الذي كانت تفعله تلك البنت الملفوفة بالأردية السوداء، وسط هذا الخراب المحيط؟

النقطة الحدودية التي وصلوا إليها بعد ساعاتٍ ثلاث، عامرة بالرعب والترقب، قد هجرها مقاتلو طالبان الذين كانوا قبل يومين يفتشون الداخلين إلى أفغانستان. لم يجدوا هناك غير جنود باكستان الذين توغلوا في الأرض الأفغانية مسافةً تقارب ثلاثة كيلو مترات،

ليحتجزوا هناك أفواج النازحين اللاجئين إلى العراء.. كان هناك ما يقرب من سبعين صحفيًا ومراسلًا، لا يعلم إلا الله أين كانوا من قبل، ولا بد أنهم جاءوا من أنحاء البلاد بعدما عمَّت الفوضى النواحي. في آخر اليوم وفي الصباح التالي، تابع التصوير وأمامه المراسلُ يُشير إلى بقايا البشر المتحشِّرين من حوله، ويندِّد بويلات الحرب.

العدسةُ تنقل إليه ما لا يستطيع النظر نحوه بعينيه، وتُرسل إلى الجالسين في بيوتهم البعيدة، ما لا يحب أحدٌ منهم أن يراه. يا ألله. لماذا خلقت الإنسان في الأرض، وخلقت الحرب؟ لقد غابت عقولنا عن إدراك حكمتك.. قالت الملائكة ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ..﴾، ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما الذي تعلمه، ولا نعلمه، يا ألله؟

تهارشت الكلابُ الأفغانية المتقاتلة، وتناهشت، وسال على الأرض دمٌ كثيرٌ بغير حقٍّ ولا هدي ولا صراطٍ مستقيم، أو غير مستقيم. فما هي إلا شهوةُ القتل، وقد استعرت في النفوس. تساءل الفريقُ عما يجب عليهم أن يفعلوه، وسألوا رؤساءهم في القناة بالهاتف الجوَّال وأجهزة الاتصال، فاستقر الرأي على بقائهم في الأرض الباكستانية، لينقلوا من هناك مآسي اللاجئين ويتابعوا ما يستجدُّ من الأمور، من مكانٍ قريب. طيب. لكن الأمر يحتاج إلى الحصول على تصريح إقامةٍ من سلطات باكستان، لمدة شهرٍ أو أكثر، لأن التصريح الأول انتهى بدخولهم أرض الأفغان. لا بأس. دخلوا إلى النقطة الحدودية الباكستانية، ليتقدَّموا بطلب الإقامة لمدة ثلاثة أشهر، أخذًا بالأحوط، فقد يضطرهم الحال إلى البقاء هنا لهذه الفترة كلها، وقد يكون الزمانُ

رحيمًا فتنتهي المهمةُ في أقرب وقت.. دخلوا إلى المكتب الشبيه بأكشاك بيع الأسماك، وتقدَّموا ثلاثتهم بطلب الإقامة فقبلها الضابطُ الباكستاني منهم، وهو عابس الوجه، ودعاهم للانتظار يومين لحين وصول الموافقة بالفاكس من العاصمة «إسلام آباد» وإذا دخل أحدهم الحدود الأفغانية قبل وصول إذن الإقامة، فلن يسمحوا له بالعودة إلى هنا مجدَّدًا. ابتسم فجأة كالمعتوهين، وهو يقول لهم بالإنجليزية ما ترجمته: الأرض الأفغانية لم تعد تحتاج إذنًا لدخولها، أما هنا فتوجد دولة، فاحذروا من مخالفة التعليمات.

* * *

من حسن حظِّهم، أن الحجرة الحقيرة التي استأجروها من قبل بمائة دولار في الليلة، كانت متاحة. لكن الجنديَّ أخبرهم بأن الأجرة صارت مائتي دولار، وإلا فعليهم بالمبيت في العراء وترك المكان لمن سيأتي من المراسلين الأوربيين والأمريكيين. أعطوه أربعمائة دولار، إيجار الليلتين، وأوقفوا سيارتهم أمام باب الحجرة التي لا صاحب لها، أملًا في فَرَجٍ قريب.. طيلة اليومين، غير المسموح فيهما بالتصوير بغير إذن، كانوا يرون من خلف الأسلاك المشوَّكة الممدودة بلا نظام، مزيدًا من اللاجئين يصلون إلى المكان في آناء الليل وأوقات النهار، بلا انقطاع. قال لهم أحد الجنود إن الحدود بين البلدين مفتوحة من خلف هذه الجبال البعيدة، لكن اللاجئين لا يستطيع معظمهم الذهاب إلى هناك، فيتحشَّرون هنا آملين مثلهم في فَرَجٍ قريب. الكل ينتظر الفرج. في الليلة الأولى، والثانية، كان يردِّد هامسًا قصيدة «المنفرجة» التي تعلَّمها مع الصبيان في الصغر:

اِشتدِّي أزمةُ تنفرجي قـد آذَنَ ليلُكِ بالبَلَجِ

صبيحة اليوم الثالث، استدعى الضابط المراسل والمهندس فتركاه وبقيا مع الضابط لنصف ساعةٍ، خرجا بعدها ومعهما إذن الإقامة وقالا له إن هناك خطأً في كتابة اسمه بالحروف الإنجليزية، ولسوف يصوِّبون الخطأ خلال يومين، ويمنحونه من بعد ذلك الإذن بالإقامة. سألهما: ما العمل الآن؟ قالا: ستبقى هنا إلى ذلك الحين، وندخل نحن مجدَّدًا إلى قندهار لتغطية الأخبار، وسوف نأخذ معنا الكاميرا.. كيف ستدخلان وسط هذه الفوضى؟ سوف نستأجر مجموعةً من المسلَّحين، بألف دولار في اليوم، ونسكن في غرفةٍ بالمستشفى الصيني، ونتردَّد دومًا على المقر الإعلامي المجاور لها، ولسوف ننتظرك هناك بعد حصولك على جواز سفرك وإذن الإقامة.. وكيف سأصل من هنا إليكما في قندهار ؟ الضابط الباكستاني سوف يساعدك، ويرسلك إلينا مع مجموعة أخرى من الأفغان المسلَّحين.

أخذا السيارة والمعدات والكاميرا والأُنس بالصحبة وسط البؤس، ورحلا، وهو واقف ينظر في الغبار الذي تثيره السيارةُ وهي تتوغَّل بهما بعيدًا عنه.. ساعة الظهر خطر بباله أمرٌ مرير، فدخل من فوره إلى الضابط وقال له إنه الآن بلا جواز سفر، ولن يستطيع الذهاب إلى أي مكان، لكن الحجرة التي يقيم فيها غالية الإيجار، فما العمل؟ ردَّ الضابطُ بلسانٍ شحيح: ستبقى بالغرفة العلوية في المبنى الذي يسكنه الجنود، بلا مقابل، لحين اتضاح الأمر وفضّ الإشكال.. شكرًا.

المبنى الذي ذكره الضابطُ يقع خلف حجرة مكتبه، وقد كان

سابقًا ثكنة لجند طالبان الذين ملأوا الأنحاء رعبًا، ثم اختفوا بعدما تدفَّقت على الأرض الجدباء الدماء. الغرفة لها شباكٌ واحدٌ مرتفع، وليس فيها متاعٌ من أيِّ نوع. بعشرين دولارًا، اشترى من الجندي المؤجِّر بطانيتين من مخلَّفات الجيش، وافترش الأرض عند زاوية الحجرة. تحته البطانية الجرباء، وفوقه الأخرى الأفضل حالًا، وأدار الراديو الصغير فسمع أخبارًا عن بعض الأحداث الجارية من حوله، ملطَّفةً بالإيجاز وبأصوات المذيعين. شتَّان ما بين سماعنا بالشيء، ورؤيته. نام، وصحا، ثم نام ثانيةً بعدما سمع المعاد من الأخبار، وفي الصباح عرف من الجنود أنهم يغلقون عليه المبنى في الليل، بقفلٍ كبير، وينامون في الخيام التي نصبوها قرب الأسلاك المشوَّكة؛ ليكونوا جاهزين للإجهاز على المعتدين، والإمساك بالمتسلِّلين.

كان من الأفغان رجالٌ يدخلون ويخرجون من دون اعتراض، وينظرون إليه دومًا بعين التقليل والاحتقار. لفت نظره بين المتردِّدين على المكان رجلٌ يابسُ الوجه قاسي النظرات يحمل دومًا كلاشينكوف، ويتلفَّت مستريبًا كالذئب الجائع التوَّاق للنهش. سأل عنه الجندي المؤجِّر فقال إنه مجرمٌ أفغاني قريبٌ للضابط الباكستاني، قال في نفسه ليخايلها بالطمأنينة إنه مادام الأفغان والباكستان قد صاروا أقارب، مجرمين وضُباطًا، فلسوف تتقارب بقية الأمور ويأتي الفرجُ عن قريب.. مضى اليومان من دون وصول الإذن بمنح إذن الإقامة، ففكَّر في استعادة جواز سفره والخروج من باكستان إلى الدوحة، ما دامت الأمور قد تعقدت ولم يعد يضمن اللحاق بالفريق، لكن الضابط قال له إن الاستخبارات الباكستانية أخذت الجواز..

قال للضابط وهو يرجوه: ما الذي يمكن أن نفعله الآن؟ فردَّ عليه باقتضاب محيِّر: انتظر يومين آخرين، أو ثلاثة.

بعد مرور اليومين الآخرين، كان جالسًا وحده في الغرفة يشكو الملل، جاءه في المساء الرجل الأفغاني الشبيه بالذئب الجائع، ومعه مترجم، فسألاه عن حاله في الحبس فردَّ من فوره بأنه محتجزٌ وليس محبوسًا، ولو حصل على جواز سفره الآن فسوف يرحل من فوره إلى «إسلام آباد» ويركب الطائرة عائدًا إلى قطر؛ لأنه لم يعد راغبًا في الدخول مرة أخرى إلى أفغانستان، وليس لديه الرغبة في الاستمرار بهذه الوظيفة. سكت الرجلان وطال سكوتهما وجلوسهما، فأراد الخروج من أسر الصمت بسؤال الرجل الذئب عن عمله، فقال ما ترجمته: تاجر مخدرات. أدهشه الجواب والبساطة التي قيل بها، فعاد للسؤال عن طبيعة هذا العمل مرجِّحًا أن يكون المترجم قد أخطأ في النقل. قال الأفغاني وترجم المترجم، إنه ينقل الكوكايين المستخرج من الأفيون الأفغاني الجيد، من شمال أفغانستان حيث يشتري الكيلو جرام الواحد بألف دولار، ويدخل به إلى «إسلام آباد» حيث يصل سعره إلى خمسين ألفًا، فيأخذه منه مستلمٌ ينقله إلى «دبي» فيصل سعره هناك إلى مائة وخمسين ألفًا، وقد يصل إلى المائتين، أما في مواضع بيعه بالجرام فإن سعر الكيلو الواحد يبلغ ثلاثمائة ألف دولار.

ـ وكيف يدخل به إلى باكستان حتى يوصله إلى عاصمتها؟

ـ الضابطُ قريبه، يأخذه بسيارة عسكرية، ويأخذ نصيبه، وإذا ساعدت في نقل كيلو جرامين من هنا إلى دبي، فسوف تأخذ

نصيبك.

ـ أستغفر الله. لن أفعل ذلك أبدًا، هذه تجارةٌ حرام.

ـ التجارةُ حلال، والكوكايين غير محرَّم في الشرع. عمومًا، فكِّرْ في الأمر.

قاما عنه وتركاه غارقًا في بحار المرار والدهشة والحسرة، حتى استفاق على أمرٍ مرير: كل رخيص في موطنه يغلو إذا انتقل، وأنا رخصت بموطني ولما انتقلت عنه رخصت أكثر.. طرد عن رأسه هذا الخاطر، بأن أكد على نفسه مرارًا أنها محضُ محنةٍ عارضةٍ ولسوف تمرُّ، ثم أدار الراديو من جديد وقلَّب بين المحطات المؤشِّر فلم يجد جديدًا في نشرات الأخبار، مع أن الموتَ هنا يحوِّم فوق الأنحاء... في الغد سأل الضابط سؤال الأمس، فردَّ عليه بالمعتاد، فعاد حسيرًا إلى الغرفة ومعه الطعام المعلَّب الذي اشتراه له الجنديُّ المؤجِّر، وراح ينظر إليه من دون اشتهاء.

بعد العصر هدأت الأصواتُ وقلَّت حركةُ الجنود في المكان، لكن طنين الصمت ظلَّ يصفِّر في أذنيه. ساعة المغرب سمع أصواتًا ترتقي الدرج الخشبي، وانفتح عليه الباب الذي صار منذ يومين يُغلق عليه من خارجه، بقفلٍ كبيرٍ من ذلك الذي يغلق باب المبنى. إغلاقٌ فوق إغلاق. دخل تاجرُ المخدرات الأفغانيُّ، الشبيه بالذئاب، ومعه المترجمُ الذي كان قبل يومين. جلسا قبالته وقالا:

ـ هل تريد الخروج من هنا؟ يمكننا مساعدتك في ذلك، مقابل ألفيْ دولار..

ـ كيف ذلك.. ولماذا؟

ـ سوف يكلِّم قريبه الضابط، فيطلقك من هنا لتهرب.

ـ ولماذا أهرب؟ وأدفع؟ أنا أوراقي سليمة، ولا بد أنهم سيدركون خطأهم ويتركونني وشأني.

«أنت جاهل».. قال المجرمُ الأفغاني ذلك، وترجمه المترجم، وقاما عنه من فورهما غاضبين وصفعا على أسماعه البابين.. لو كان يعرف أن للحرب أحكامًا، وأن بعض الحرب للبعض ربح، لكان قد دفع ما طُلب منه. أمرُ الله. في الصباح الباكر جاءت سيارةٌ عسكريةٌ أخذته من حيث لا يعلم، إلى حيث لا يعلم. قبل ركوبه لم يتحدث أحدٌ إليه بأي شيء، ولما رأى حوله في صندوق السيارة المغلقة خمسةً من الرجال ذوي الوجوه العربية واللحى المستطيلة، استغرب، ولما وجدهم يشيحون عنه بأنظارهم ولم يردُّوا على سلامه أو كلامه منذ حَشَرَه الجنود بينهم، توجَّس، ولما سارت بهم السيارة لساعات من دون توقف، خاف، ولما أنزلوهم أمام طائرة أمريكية ووضعوا في رؤوسهم أكياسًا سوداء، أدرك أنه صار في زمرة الهالكين.

* * *

قبل أن تطير بهم الطائرة، أُثقلت يداه ورجلاه بقيود حديدية تحبس الحركات، ثم شُبكت القيود بحلقات معدنية تحت المقعد الخشبي فاحتبست فيه الأنفاسُ خوفًا ورهبة.. بعد ساعة، حطّت الطائرةُ ودفعه الحراسُ للنهوض فاستطاعه، ولكن عسر عليه النـزول من السلم مع ثِقل القيود وحجب العينين، فاضطر الجنود الأمريكيون إلى رفع

الأكياس السوداء عن رؤوس الممسوكين، لحين نزولهم. كانت لمحتان للأنحاء تكفي لإدراكه أنهم عادوا به إلى «قندهار» فقد رأى هذا المطار قبل أيام من بعيد، وهذه الجبال البادية من بعيدٍ يعرفها والتقط لها صورًا، يوم اقترب من المطار لتغطية الأخبار.

غطوا وجهه من جديد، فلم يعد قادرًا على رؤية ما يحيط به، أو فهمه. كان يسمع زعيق الجنود فقط، ويتلقّى منهم على كتفيه الضربات الموجعات بغير داعٍ، ولا خجل. أخذوه في سلسلةٍ واحدةٍ مع الذين جلبوهم معه، وسحبوهم إلى مكانٍ قريبٍ. كان بالإمكان سماع هدير الطائرات فيه، فعرف أنه بقرب المطار. ماذا تريدون مني؟ صاح بذلك بالإنجليزية، وهو محجوبُ العينين لا يرى الذين يسمعونه، لكنهم سمعوه وجاوبوه بضربةٍ قاصمةٍ على ظهره، ألقته على وجهه وهو يصيح من ألمٍ أفضى إلى الإغماء. استفاق بعد حينٍ غير معلومٍ فرأى حوله مشهدًا غير مفهومٍ، يصدم العين والعقل والأمل في النجاة. قضبانًا حديدية، وقيودًا مثلها في الأرجل والأقدام، ورجالًا بائسين تمسكهم سلاسلُ ثقالٌ تُمسكها حلقاتٌ حديديةٌ مغروسةٌ في الأرض، وما بين كل أسيرٍ وآخر مسافةٌ تكفي بالكاد للاستلقاء لو ناموا، وصارت رؤوسهم تلامس أطراف أقدامهم.. حتى في أثناء نومهم، لا يفكون عنهم القيود.

غمره إغماءٌ جديدٌ بعدما رأى البؤس المحيط، فلم ينتبه إليه أحدٌ من المحيطين. القيامة حين تقوم، يُذهل كُلُّ إنسانٍ عن أخيه، وأمه وأبيه، والأسير المجاور له. انتفض مراتٍ وهو مغمىً عليه، حتى انتبه من جديد فوجد جسمه معقوفًا حول الحلقة الحديدية الثابتة في الأرض. لعله يحلم. أغمض عينيه من جديد على أمل الإفاقة بعد

حينٍ من الكابوس المريع، ونام حتى أيقظه فَزِعًا صوتُ الجنود الذين جاءوا بأسلحتهم؛ ليلقوا لكل محبوسٍ بقطعةٍ من طعامٍ ملفوفٍ بورقٍ شفَّاف، معها كيسٌ فيه ماء. الدقائق المسموح بها للأكل والشرب عدتها خمس عشرة، والجنود عدتهم خمسةٌ مع كل واحدٍ منهم بندقيةٌ من تلك المسماة «إم ١٦» ومسدسٌ معلَّقٌ في جانبٍ من حزامه، وسكينٌ طويل يتدلَّى من الجانب الآخر من الحزام.. مع أن القضبان تحول بينهم وبين أسراهم المحبوسين إلى الأرض بالأغلال الثقال، حتى إنها تمنعهم من الوقوف بغير انحناء.

رأى الذين حوله يأكلون بنهمٍ عجيب، وبلا اشتهاء، ويشربون كتائهٍ في صحراء وجد عينَ ماء. فعل مثلهم، بينما واحدٌ من الجنود الواقفين يزعق فيهم وهو عابسٌ : أسرعوا، سينتهي الوقت، لا تلتفتوا حولكم، أسرعوا، الوقت انتهى.. فتح الجنديُّ الزنزانة، وهو يُشهِر في الوجوه البندقية، ودخل وراءه رجلٌ أفغانيٌّ طاعنٌ في السِّنِّ أخذ يلملم من حولهم أكياس الماء الفارغة، والأوراق المتبقية من اللقيمات الملقاة.

مزمجرًا من غير سببٍ، خرج الجندي على عجل، وأمامه خادمه الأفغاني الأحدب، وأغلق وراءه الزنزانة. قبالتها زنزانةٌ أخرى، يُغْلق عليهما من جهة المدخل، بابٌ حديديٌّ يعلوه الصدأ. عرف لاحقًا ممن حوله، أن هذا السجن ملحقٌ بمعسكر بناه الروس أيام الاحتلال، ثم احتلَّه من بعدهم الأمريكيون ووضعوا فوق أسواره أسلاكًا مشوَّكةً، مكهربة، ونثروا حوله ثكناتهم الحصينة؛ كي تنعدم فرص الهروب. وأنَّي للسجين أن يهرب، وهو يعرف أنه لو اجتاز جنود أمريكا، فسيلقاه

من بعدهم الأفغان المسلَّحون، المتوحِّشون، الذين صاروا يتوقون لقتل ذوي السِّحنة العربية. حين أخرجوه لقضاء الحاجة في حفرةٍ قريبة من الباب الصدئ، رأى زنازين أخرى واسعة فيها من الأفغان. أكثر من مائتي رجل. فعرف أنه في الجانب المخصَّص للسجناء العرب. في يومه الأول كانوا من حوله يحدقون فيه ولا يتكلمون. وفي الصباح التالي خاطبهم بكلماتٍ فلم يجاوبوه، فالتزم الصمت وانهمك في تسبيحٍ غير مسموع، بعد حينٍ قال للملأ المحيطين: ألا تُصلُّون هنا؟ فقال أحدهم بعربيةٍ مبينة: يمكنك الصلاة همسًا وأنت جالس.. وسأله: كيف الوضوء؟ قال: تيمَّم.

الذي جاوبه شابٌّ من جماعة «التبليغ» لم يبلغ بعدُ من عمره العشرين، تدل ملامحه على أنه كان يومًا من الميسورين المنعَّمين، ولحيته الخفيفة التي تميلُ إلى الاصفرار الخفيف تدلُّ على أنها لم تُحلق من يوم نبتت. تيمَّم الشابُّ أمامه، ففعل مثلما رآه يفعل وأدى ما فاته من الصلوات مجمَّعةً، وبعد أن سلَّم التفت إلى الشاب وسأله عن سر صمت الحاضرين عن الحديث إليه، فقال وهو ينظر نحوه بأسى: يحسبونك أمريكيًّا مدسوسًا علينا؛ لتنقل ما يقال هنا.

ـ يا أخي، لو أرادوا لوضعوا بالمكان أجهزةً تنقل إليهم ما تقولون.

هزَّ السامعون رؤوسهم كالموافقين على ما قال، وحرَّروا ألسنتهم من حَبْس الخوف فجرى كلامٌ كثيرٌ، هامسٌ. هذا السجن يجمع بين العرب والأفغان، والفريقان معزولان. أخبروه بأن الأفغانَ قد يُطلقونهم من هنا بعد التحقيق معهم، مُحطَّمين، لكن العرب لم يُعرف منهم واحد أدخله الأمريكيون إلى هنا ثم أطلقوه. يتركونه حبيسًا، وقد

ينقلونه إلى سجن «باجرام» فيُحبس هناك، أو يموت بأحد المحبسين مكَرَّمًا بالشهادة. سألهم: هل يسمحون للمحبوسين بقراءة القرآن؟ فأجابه من الجهة اليمنى رجلٌ سوداني الوجه والمفردات: ما يمكن هسَّه، الكلابُ أخذوا المصاحف ومزَّقوا أوراقها أمامنا وداسوها بأحذيتهم وهم يسخرون منا ويتمازحون فيما بينهم.

عرف من محدِّثه السوداني، اسمه محمد عثمان وأصله من دارفور، أن للجند هنا وسائل مزاحٍ سافلة، غير تمزيق المصاحف أمام المسلمين المقيَّدين، منها ضربُ المصلِّين بالعصيِّ والأحذية وهم يؤدُّون صلواتهم، وتعرية المسجون بالكامل لحسم رهانٍ بينهم على حجم عضوه الذكري. ولهم من وراء ذلك أفعال أشد فُحشًا وإيلامًا مثل إطعام المساجين لحوم الخنزير، وإلا فلا طعام غيرها، والإمعان في سبِّ الأمهات والأخوات بأسمائهن على مسمع من الأسير والمحيطين به، ويتفننون في وصف ما سوف يفعلون فيهنَّ حين يحضرونهن إلى هنا، ويفحشون بهن قُبلًا ودُبرًا أمام الناس. هكذا يقولون. الشهر الماضي حصلوا من حافظة أسيرٍ شابٍّ على صورة زوجته وأمه، وجلبوه إليهم وهم يتناقلون الصورتين ويحكون عما سيفعلون بالمرأتين، بينما الشابُّ يحاول صمَّ أذنيه فيمنعه القيد. فجأةً جثا على ركبتيه وضرب برأسه الأرض كيلا يسمع هذا الفحش، فشُجَّتْ جبهته وتدفَّق دمه فوَّارًا فلم يمكنهم إسعافه. فكُّوه من قيوده وأطلقوا عليه النار أمام بقية السجناء، وهو ميت، وهم يقولون أمام الجمع بصوتٍ عالٍ: كان يحاول الهرب.. ويضحكون.

أمضى ليلته يتسمَّع أمثال تلك القصص الواصفة لهيئة الحال هنا،

فكان صوتُ الواصف يأتيه أحيانًا من خلفه فلا يرى المتكلم، وأحيانًا من أمامه أو جواره، أو يصله خافتًا من الزنزانة المقابلة. لهجات الأسرى العرب متفاوتة بحسب بلدانهم، وكلهم جاءوا إلى هذا المكان مُلتحين أو استطالت لحاهم هنا، مثلما جرى معه من بعد، وهم جميعًا متفقون على فِسْق الأمريكيين وجُبن جيشهم. قال أحد السجناء إن الروسَ على كُفرهم وعتُوِّهم، حاربوا هنا وقتلوا الناس لكنهم لم يُمعنوا مثل الأمريكيين في نشر الموت بالأنحاء بأطنان المتفجرات والتقاط الأسرى من الطرقات أو شرائهم من المخابرات الأوزبكية والباكستانية. وما كان للأمريكيين أن يكون لهم أسرى حتى يقاتلوا على الأرض، وهو مالم يفعلوه، لكنهم وجدوا شراء أسراهم أرخص لأنهم أرخصُ أناسٍ حملوا السلاح.. كان المتحدث إليه سلفيًّا من أهل تونس، اسمه رشيد، وكان مقيَّدًا وراءه مباشرةً ويكلِّمه من موضعٍ قريب. التفت إليه بقدر ما استطاع وسأله: يعني، باعني لهم الضابطُ الباكستاني؟ فأجاب الرجلُ: لا تظن يا أخي، أن أيَّ اختطافٍ أو تصفيةٍ أو مثل ذلك، يمكن أن يحدث في بلدٍ من البلدان من دون علم استخباراته، أو معاونتهم، ولا بد أن يكونوا قد قبضوا الثمن قبل حدوثه.

بعد أربعة أيام فكُّوا قيوده عن الحلقة المثبَّتة في الأرض، وأوقفوه بين الزنزانتين وقصّوا عنه ملابسه، كلها، ثم فتحوا عليه خرطوم الماء بعدما سكبوا فوق رأسه مادة مطهِّرة، بينما هو حائرٌ في قيده وعُريه وانكشاف عورته أمام المجندين والمجندات الخمسة الذين كانوا به يستهزئون.. كان ذلك هو الإجراء الضروري، قبل إدخال الأسير للتحقيق. بعد غَسْله المهين ألبسوه زيَّ المسجونين، واقتادوه مثقلًا بقيوده إلى غرفةٍ ضيقةٍ مغلقٍ بابها، والنافذة. أجلسوه على

كرسيٍّ أمام رجلٍ نحيلٍ، متوتر، يلبس الزي العسكري ولا يكفّ عن التدخين وإفساد هواء الغرفة بما يجلب السعال الموجع. ما كان الجنود المحيطون به يسعلون، فقط يزعقون وهم يشهرون البنادق في وجهه، كأنه سينقضُّ عليهم مفترسًا في أيِّ حين. مع أنه لم يكن بقادرٍ أصلًا على الوقوف. نظر إليه المحققُ مثلما ينظر الأعداء إلى الأعداء، وأطال التحديق كأنه بذلك سوف يرى ما يدور برأس أسيره من أفكار، وأخيرًا سأله:

ـ لماذا جئت لتحاربنا؟

ـ ما جئت لأجل ذلك، أنا مصوِّر تليفزيوني.

ـ ولماذا جئت وأنت مصوِّر تليفزيوني؟

ـ لتغطية أخبار الحرب.

ـ نعم، فهمت. تريد إذن أن تفضحنا أمام العالم، أليست هذه حربًا إعلامية؟

ـ أنتم تفعلون الشيء ذاته. قنواتكم التليفزيونية وكثيرٌ من الصحفيين الأمريكيين يغطون الأحداث، وهم منكم، فهل تحاربون بعضكم بعضًا؟

ـ لا شأن لك بالإعلام الأمريكي وأجب على قدر السؤال، هل قمت بتصوير أسامة بن لادن؟

ـ لا.

ـ ولكن عندنا معلومات بأنك قمت الشهر الماضي بتصوير رسائله

المصوَّرة التي قمتم بإذاعتها على العالم.

ـ الشهر الماضي لم أكن هنا، وصلتُ من عشرة أيام فقط.

ـ وأين كنت يوم الحادي عشر من سبتمبر؟

ـ في شقتي، بالشارقة.

ـ أين؟

ـ في بيتي بالإمارات.

ـ فلماذا إذن جئت إلى هنا؟

ـ هذا عملي، أنا مصوِّر تليفزيوني جئت لتغطية أخبار الحرب.

ـ لا تكرر الإجابات، أنا لا وقت عندي.

ـ أنت تكرر الأسئلة.

ضربه الجندي بحديدةٍ على ظهره، في الموضع ذاته الذي ألقاه قبل أيام على وجهه، تحت جناح الطائرة.. آلمته الضربةُ وأمسكته القيودُ فلم يستطع القيام من فوق الأرض، فاضطروا لرفعه إلى الكرسي، وعاد المحقق لكلامه كأن شيئًا لم يقع:

ـ مَنْ إذن الذي صوَّر أسامة بن لادن؟

ـ لا أعرف.

ـ بل تعرف بالطبع. إنه تيسير عَلُّوني، أليس كذلك؟

ـ لا أعرف.

ـ ما الذي تعرفه إذن ؟

ـ أعرف أنكم قوم جبناء، وظالمون، وسوف تنهزمون بإذن الله.

«هذا السجين يحتاج التأديب».. قال المحققُ للجنود هذه العبارة، كأنه يزفُّ إليهم بشرى أو يسمح لهم بأمرٍ تمنَّوه. جاءته الضربةُ الأولى بمؤخرة بندقيةٍ على كتفه، وعلى رأسه تلقى الضربة الثانية وهو يسقط على الأرض. جرُّوه من حجرة التحقيق، إلى غرفة ضيقة مجاورة، وراحوا يركلونه بأحذيتهم الضخمة حتى أفقدوه الوعي.. أفاق بعد وقتٍ غير معلوم، فرأى فأرًا كبير الرأس يتحرك ببطءٍ في زاوية الغرفة، فصرخ بكل ما تبقى فيه من قوةٍ وهزَّ الأغلال بعنفٍ، فهرب الفأر وجاء الجنود من جديد. نخسوه ببنادقهم ليقوم فما استطاع، ركلوه فتقلَّب على الأرض ولم يقدر على الوقوف، سحبوه من تحت إبطيه وأعادوه جَرًّا إلى الزنزانة الأولى. وفي الصباح التالي أعادوه إلى المحقق، بعدما ظنوا أنه تأدَّب بما يكفي لاستكمال التحقيق:

ـ عندي سؤال محدَّد وأريد إجابة محددة، مَن قام بتصوير أسامة بن لادن؟

ـ لا أعرف. وأريد الآن محاميًا ومندوبًا من سفارة السودان أو سفارة قطر.

«لا فائدة منه، خذوه».. جرَّه الجنود من جديد وأعادوه إلى الزنزانة وسط ترقُّب المسجونين الذين سألوه فور خروج الجنود عما جرى معه، فقصَّ عليهم ما كان. وعيناه كأنهما تدمعان، قال له الشابُّ ذو اللحية الخفيفة، اسمه نور الدين بن عبد الله، ليواسيه: اصبر يا أخي،

وما صبرك إلا بالله السميع العليم، وهو تعالى المعين. بعد شهرٍ لاحظت إحدي المجندات أن ظهره ينـزف، فقالت لزملائها فسألوه كأنهم سيعاقبونه على نزف ظهره، فأجاب بأنه لا يعرف، لكنه كان يحسُّ بألمٍ شديد عند موضع الضربتين. أطلقوا عليه مرةً أخرى خرطوم الماء وهو عارٍ بين الجمع، لكن الجنود هذه المرة ما كانوا يضحكون، فأدرك أن بظهره شيئًا مريعًا. أخذوه إلى خيمةٍ يسمونها «العيادة» بعدما ألبسوه جلبابًا مشقوقًا من الخلف، وكانوا من حوله يشهرون السلاح، بينما هو يحنُّ إلى الوقوع من فرط الإعياء والخجل وبؤس الحال. أجلسوه على سريرٍ خشبيٍّ، والقيدُ بيديه ورجليه، وأعطوه حقنةً غاب عن الوعي بعدها بقليل. قبل أن يفارقه وعيه طافت برأسه صورٌ متفرقة، وتذكَّر مهيرة التي تركها هناك وحيدةً وقد مَرَّ أكثر من شهر على غيابه، فنادى عليها بصوت عالٍ. واستغاث بالشيخ نقطة. ورأى وجه أمه. وابتسامة نورا وابنتها. وأطفالًا يلعبون.

أفاق بعد مدةٍ فوجد نفسه ممدَّدا على بطنه فوق الألواح الخشبية، ويداه مقيَّدتان إلى الأرض بينما ظهره مكشوفٌ تمامًا. تململ ونادى على أيِّ سامعٍ، فجاءه جندي وقال: اِخرسْ. وجاء من بعده طبيبٌ له نظرة مجنون فقال له: كيف تشعر؟ لم يرد عليه، فقال الطبيب للجندي: ألا يعرف الإنجليزية؟ فرفع الجنديُّ كتفيه ومطَّ الشفاه كأنه ينفي علمه بالأمر.. نزع الطبيب عن ظهره الشاش وقطع القطن المتبَّلة بالدماء، ولصق على الجرح شريطًا ثم هَمْهَم للجندي المجاور بما ترجمته: أظنه سوف يبرأ، والشريحة استقرت الآن.

أخبروه في الزنزانة بأنه غاب في العيادة يومين كاملين، فقال

لهم إنه في غاية الإنهاك ويريد أن يريح إلى الأرض رأسه المثقل، وينام، فدعوا جميعًا له بالشفاء. كان الشابُّ «نور الدين» يبكي. رأى في نومه خيالاتٍ كثيرةً كأنها المزيج بين الصحو والأحلام، وسمع أصواتًا وأصداءً تأتي منه ومن بعيد، وأحسَّ في نومه بجوعٍ شديد.. في الأيام التالية كان كثيرًا ما ينام، وينسى، ثم يتذكر حين يصحو مرغمًا بسبب صليل القيود من حوله وصخب الجنود، فيتألم، فيستجلب إلى جفنيه النوم من جديد.. بعد أيام جاء وفدٌ، من الصليب الأحمر ليقابل المسجونين ويطمئن على مراعاة حقوق الإنسان، فكانوا يأخذون الأسرى إليهم فُرادى أو جماعات، فيجلسون عندهم نصف ساعة أو أقل قليلًا. عندما جاء دوره أخذوه وحده، فرأى ثلاثة رجالٍ وامرأتين تنظران بعطفٍ، واشتكى لهم من سوء المصير بسبب سوء الفهم، فوعدوه ببذل الجهد للمساعدة وأعطوه ورقةً وقلمًا ومظروفًا، ليكتب رسالة سوف يبعثون بها لمن يريد. تحيرَّ لحظةً، ثم كتب رسالته إلى مهيرة، ليخبرها بأنه اضطر للبقاء هنا، لكنه يأمل في العودة قريبًا، فإذا تأخر، فعليها بالذهاب إلى مكتب القناة ليتصلوا لها بأمه وأهله في السودان، ويساعدوها كي تسافر إليهم بدلًا من بقائها بالبيت وحيدةً. وعليها انتظاره في «أم درمان» حتى يعود إليهم، ولا تقلق، ولسوف يهتمُّ أهله بها ويرعونها إلى حين رجوعه إليهم هناك.

بعد أيامٍ عاد فريقُ الصليب الأحمر وأخبروه بأن رسالته وصلت، ومن المنتظَر أن تصله رسائل من أهله بعد يومين. أضافوا أن أخاه «سفيان» قدَّم طلباتٍ كثيرة لعدة جهات للاستفسار عن مصيره، وبعث بعدة مناشدات للمنظمات الدولية آملًا في تدخُّلهم للإفراج عن أخيه

الذي اعتُقل بلا ذنب. هكذا قالوا. نزل الكلام على قلبه بردًا وسلامًا، وسالت من عينيه الدموع رغمًا عنه، فواسوه بكلمات وأعطوه أوراقًا وقلمًا ومظاريف، وقالوا إنهم سوف يتركونه ساعةً ليكتب ما يشاء لمن يريد، ولسوف يوصلون الرسائل ويأتونه بالردود. تركوه في الغرفة مقيَّد القدمين، فبدأ بكتابة أولى الرسائل لمهيرة مؤكِّدًا عليها بضرورة السفر إلى السودان وانتظاره هناك؛ لأنه قد يتأخر في العودة إلى أجلٍ غير معلوم.. وهو يكتب عبارة «غير معلوم» صدمه خاطرٌ، فمزَّق الخطاب قطعًا، فاقتحم عليه الجنود الباب وحاولوا استنقاذ ما كتبه في الرسالة، فأدرك أنهم كانوا يراقبونه وتأكد من أن الأمر كله خدعة. فلو صحَّ ما يقوله الفريقُ الإنساني المزعوم، لكان قد تلقَّى من خلالهم رسائل من القناة التي يعمل بها، أو أخبارًا، وليس كلامًا عامًّا عن مناشداتٍ منسوبةٍ إلى أخيه سفيان. في الزنزانة باح بشكوكه إلى الأسرى المحيطين به، فوجد عندهم من الشكوك ما هو أقوى، ثم تأكد الشكُّ بعد اختفاء الفريق المزعوم وإمعان الجنود في التعذيب، بعد هدوئهم عنهم أيامًا معدودات، عادوا بعدها لسابق عهدهم كأن الهوس قد أصابهم فجمح بهم العداءُ الأعمى.. حرمـانٌ من الطعـام، وضربٌ مميتٌ، وفنونُ إذلالٍ. صارت أفعالهم بعد كشف الخدعة، تدلُّ على أنهم قد قرروا مع عجزهم عن انتـزاع المعلومات والاعترافات، أن يقتلوا معظم المسجونين. ولو فعلوا ذلك لكان أرحم. في صبـاحٍ باكرٍ جـاءوا بجنـديٍّ ضخمٍ لا يحمل مثلهم سلاحًا، لكن هيئته تدلُّ على أنه لا محالة من المخبولين أو السفَّاحين. دخلوا من خلفه وهم قرابة العشرة من المجندين والمجنَّدات، فاصطفوا عند الباب ما بين الزنزانتين ينظرون إلى الجندي الضخم، وهو يحدِّق متفرِّسًا في المساجين من وراء القضبان، ثم يُعيد النظر كرَّاتٍ، أشار فجأةً

إلى الشاب «نور الدين» وهو يضحك، فصخب زملاؤه وتهلّلوا مترقِّبين. كان ظاهرًا أنه يريده ليضربه، أو يقتله، أو يعذِّبه العذاب الشديد.

فتحوا له باب الزنزانة، فدخل الضخمُ مُتبخترًا وفكَّ قيد الأسير من الحلقة ثم دفع به إلى الناحية المقابلة للباب، بين الزنزانتين، وقصَّ عنه ملابسه حتى عراه تمامًا بينما الحاضرون من خليط الجند يتضاحكون، وبقية الأسرى يصرفون عن المشهد أنظارهم ويشيحون عنه بوجوههم.. رشوا الماء بالخرطوم على الشاب الذي بدا جسمه أكثر نحولًا وهو عارٍ، وأطالوا الغسيل المهين، بينما الجندي المجنون يدور حول «نور الدين» وعلى شفتيه انفراجة المعتوهين، وفجأةً خلع ملابسه فتصايح زملاؤه وانتبه المحبوسون. أمسك المهووس بنور الدين، المسكين، وألقى به على الأرض ثم قَلَبه عنوةً على بطنه، وانتهكه أمام الجميع. السجَّانون يتصايحون والمسجونون مذهولون. قام عنه بعدما قضى الوطر وجرَّ ذبيحته إلى قرب باب الزنزانة، وتركه في موضعه الأول متكوِّمًا من شدة الخزي، وعاريًا، ثم خرج مع بقية الأنجاس المهلِّلين. جاء بعد ساعة جنديان يسوقان رجلًا أفغانيًّا يحمل ملابس سجنٍ جديدةً، برتقالية اللون، ألبسوها للضحية بينما المسجونون مُستنفرون من الغضب، يصلصلون بالسلاسل والقيود ويشتمون جنود العهر وبلادهم، ويكبِّرون بحرقةٍ ويبكون، بينما ظلَّ الجنديان يضحكان حتى خرجا بعد أن أعاد الأفغانيُّ «نور الدين» إلى مربطه، وبعدما قالا للحاضرين: سوف يأتي «جون» صباح كل يوم، ليختار منكم زوجةً جديدة؛ حتى يدور عليكم جميعًا أيها المجاهدون.

انفجر في الزنزانة المقابلة سجينٌ مصريُّ الصوت والمفردات،

كاد يقذف قلبه من شدة الزعيق وهو يقول: إيه يا بشر، إيه يا رب العالمين، إنت نسيتنا هنا ولا إيه، إنت فين يا رب!.. الزاعقُ أُغمي عليه وصخب الذين حوله فاختلطت الأصواتُ والصورُ، واقتربت الساعةُ وانشقَّ القمر، ودخل الجميع في هوسٍ مقيم. وما كان أحدٌ من الحاضرين يخطر بباله أن الجنديين الأخيرين كانا جادَّيْنِ فيما قالاه، لكن الجندي الضخـم عـاد بالفعل في الصباح التالي وأعاد النظر إلى المحبوسين، وعند الباب اصطفَّ من الجنود عددٌ أزيدُ مما كان بالأمس، جاءوا مجدَّدًا ليشاهدوه. توقف الضبعُ الضخم من وراء القضبان، قبالة الضحية السابقة الذي كان يجلس منذ الأمس منكَّس الرأس مصدوم العين، بعدما مَرَّ عليه يومٌ كاملٌ لم يتكلم خلاله بلفظٍ، ولا صلَّى، ولا ذاق الزاد.. أشار إليه هاتكُه بأطراف أصابعه الضخمة، وقال بلهجته الأمريكية، متفاحشًا: كيف حالك يا حبيبي؟ هل تذكرني؟ لقد أمتعتني بالأمس لكني وعدتهم بأن أختار كل يوم حبيبًا جديدًا، وهذا يعني أنني سأعود إليك يومًا.

«أسرعْ يا جون، نريد أن نشاهد، لا تضيِّع الوقت».. صاحت مجندةٌ بذلك، فالتفت إليها المخبول وهو يقول: سآخذ الذي يجلس إلى جواره، ونسير كل يوم بالترتيب؛ حتى لا تتهموني بالتمييز.. هاجت النسوة الشبيهات بالرجال، والرجال الأشبه بالنساء، وتضاحكوا صاخبين بينما السجناءُ صامتون كأنهم يتوسَّدون قعور القبور. فتحوا الزنزانة فدخل اللوطيُّ إلى الأسير المجاور لنور الدين، وتزاحم زملاؤه خلف القضبان مترقِّبين الأمر من بدايته الأولى. قبل أن يُطلق قيد الأسير التالي، من الحلقة، التفت الضخمُ إلى مشاهديه المصطفِّين خلف القضبان وقال: عفوًا، قبلة واحدة فقط لحبيب الأمس.. ومال

على خدِّ «نور الدين» ليترك قبلةً ماجنةً تهيج مرض الجنود، ولكن حدث ما لم يتوقعه. انقضَّ «نور الدين» بأسنانه على رقبة الجندي، كالفهد الجريح، وقضم منها قطعةً كبيرة لفظها من فوره فاندفق شلال الدم من عنق المعتدي. حاول القيام، فرفسه الأسير المجاور فسقط الجنديُّ فوق «نور الدين» الذي نهش رقبته بأسنانه، وقضم من تحت الأذن قطعةً جديدةً تحشرج بعدها الجنديُّ وانتفضت ساقاه مراتٍ وسط ذهول الجميع، ثم خمد ميتًا. صرخت المجندات وهرب بعض المجندين، وساد صمتٌ تامٌّ. بعد دقيقة دخل جنديٌّ وأفرغ خزانة بندقيته في «نور الدين» بين تهليل الأسرى التوَّاقين في تلك اللحظة إلى الموت. خرج الجندي من الزنزانة مثلما هرب الفأر، وبعد ساعةٍ قاسية البطء جاء أربعةٌ من المساجين الأفغان ومعهم جنود، فنقلوا الجثتين بينما الأسرى يكبرون وقد تملَّكهم وَجْدٌ شديد.

* * *

الأيامُ التالية مرَّت ثقيلةً ساكنةً، ليس فيها إلا أثر الألم، ولم يعد الجنود يدخلون إلى الأسرى إلا نادرًا.. بعد أيامٍ رأى في منامه أن «نور الدين» يصعد إلى الجنة بوجهٍ صبوح، تحفُّه الملائكة، فيجلس تحت شجرة وارفة إلى جوار الأنبياء والصديقين والشهداء. وكانت أوراق الشجرة تسبح بحمد الله. بعدها بأيام لا يعلم عددها استدعوه من جديد للتحقيق، وغسلوا عن جسمه الأدران والقمل الكثير، ثم ألبسوه الزيَّ البرتقالي واقتادوه إلى غرفة تحقيقٍ أبعد من الأولى وأوسع، بعدما وضعوا رأسه في كيس أسود يحجب ناظريه.

رفعوا عن رأسه الكيس فرأى أمامه محقِّقًا حسن الهندام، لا يلبس

زيَّ الجنود، يقول صوته وكُلُّ ما فيه إنه بريطاني. رآه يكلِّم امرأةً تجلس إلى جواره، وهيئة الحال تدل على أنه يشرح لها أمرًا دقيقًا، فوقف ساكنًا لحظةً ثم أدار بصره في الغرفة الفسيحة التي لا لون لحوائطها. كانت يومًا بيضاء. ضربه أحد الجنديين الواقفين خلفه ليكفَّ عن التلفُّت، فنظر المحققُ إلى الجندي الضارب بعينين لائمتين يعلوهما حاجبانِ ينعقدان، وجفنان لا يضطربان، ثم أشار إلى الجنديّيْن بأصابعه فنـزعا القيود الثقال، وبدأ التحقيق:

ـ لماذا جئت إلى أفغانستان؟

ـ لأنني مصوِّر تليفزيوني، وعضو في الفريق الإعلامي.

ـ لماذا حاولت الدخول إلى أفغانستان من جديد، بعد خروجك منها إلى باكستان؟

ـ لأستكمل مهمتي، بتصوير تدفق اللاجئين واحتجازهم في الجانب الأفغاني كأغنامٍ بغير راعٍ.

ـ هذا تعبيرٌ جيد. حسنًا، لو تركناك الآن فهل ستعود إلى قطر أم السودان؟

ـ قطر، لأن زوجتي ومقر عملي هنالك.

ـ وماذا ستقول للناس إذا أخرجناك؟

ـ سأقول ما رأيتُ.

ـ حسنًا. لماذا لا تتعاون معنا إلى حين خروجك.. وبعد خروجك أيضًا؟

ـ كيف؟

نظر المحقِّقُ إلى زميلته الصامتة، وابتسم لشيءٍ أظهرته له على شاشة الكمبيوتر الصغير الذي كانت تفتحه أمامها، وتكتب بانهماكٍ على لوحة مفاتيحه. يسمونه لاب توب. هزَّ المحقق رأسه مرتين راضيًا عما رآه على شاشة الجهاز، ثم عاد إليه ليقول كلامًا كثيرًا عن ظروف الحرب الحالية، وكيف أنهم جاءوا لإقرار السلام. ومثل ذلك من التُّـرهات المعروفة. ثم سأله:

ـ بقاؤك هنا مسألة وقت. فالمخابرات لم تثبت عليك تهمةً حتى الآن. فما رأيك لو تخبرنا بما يحدث حولك في الزنزانة، حتى يأتي الوقت المناسب لإخراجك؟

ـ ليس في الزنزانة إلا البؤس، واسأل عن ذلك أصدقاءك الأمريكيين فهم يعرفونه جيدًا.

ـ أصدقائي، ألا تعتقد أنني أمريكي؟

ـ لا أظن. فإن لهجتك بريطانية خالصة، وتبدو مهذَّبًا.

ـ مجاملة مقبولة. ولكن الواضح أنك استفدت كثيرًا من عملك بالسياحة، وعرفت اللغات واللهجات، أليس كذلك؟

ـ وكيف علمت بعملي القديم، ولم تعلم بأنني بريء؟

ـ لا يوجد شخص بريء. ألا تعتقد ذلك؟

ـ أعتقد في شيءٍ واحدٍ هو أنني مظلوم، ويجب إخراجي من هنا، اليوم قبل الغد.

ـ لو تعاونت معنا فستخرج، ولا تنسَ أننا وضعنا في ظهرك شريحةً سوف تخبرنا عن موضعك في أي مكانٍ بالعالم، ولن تستطيع الهروب بعيدًا عن أعيننا.

ـ أي شريحة؟.. العملية الجراحية، تذكرتُ، لكن ما فعلتموه إجرامٌ.

ـ هل تريد أن ترتاح قليلًا ثم نكمل التحقيق بعد قليل؟

ـ لا راحة هنا، فاستكملِ التحقيق. لكنني أريد بعض الماء.

أشار المحقق إلى الجنود فجاءوا بكوب ماء، وأشار مجددًا فخلعوا قيد القدمين. أراد الوقوف وتحريك أقدامه في الغرفة، لأنها المرة الأولى التي يتحرر فيها منذ وقت طويل، سأل إن كان ذلك ممكنًا فردَّ عليه المحقق بالموافقة. تراجع عنه الجندُ إلى الوراء، وهم يصوِّبون بنادقهم إليه خشية قيامه بأيِّ حركةٍ مفاجئة، فانتصب بقامته وسار نحو زاوية الحجرة، وهناك وقف حينًا يراود نفسه كيلا تنهار وهو يمدُّ ذراعيه ويبسط كفيه إلى الحائط، كأنه يستمد القوَّة من الأحجار. بعد لحظات عاد إلى الكرسي وجلس مثلما كان.

ـ هل تريد قهوة؟

ـ هل هذا ممكن؟

ـ بالتأكيد..

خطر بباله أنهم قد يضعون شيئًا في القهوة التي سيأتون بها، كي يُسرف في الكلام مع المحقق ويدلي بالمراد من المعلومات، لكنه

عاد وطرد عنه هذا الخاطر؛ لأنهم لو أرادوا ذلك، لما توَّرعوا عن حقنه بالمادة، وهو في نهاية الأمر ليس لديه من المعلومات ما يستحق الإخفاء.. جاءته القهوةُ ساخنةً فاحتسى منها رشفاتٍ وهو غير مبالٍ بإخفاء سعادته بالنكهة الطيبة، المنبِّهة، وبالجلاء الذهني المفاجئ.

ـ هل نعود إلى التحقيق؟

ـ تفضل.

ـ لماذا تشعر بالعداء للولايات المتحدة، والغرب عمومًا؟

ـ لم أشعر بذلك قبل المجيء إلى هنا، ووقوعي في قبضة الجيش الأمريكي.

ـ لكنك رفضت منذ سنوات العرض الذي قدمته لك كريستين سلومون.

ـ مَنْ؟ يبدو أن عندك معلومات غير صحيحة، فأنا لا أعرف أحدًا بهذا الاسم.

ـ ألا تتذكر هذه الصورة؟

حمل إليه الجندي، متأففًا، جهاز الكمبيوتر المحمول، فرأى على شاشته صورةً يقف فيها إلى جوار تمثال رمسيس الثاني، فنسي ما حوله وقال بالعربية كأنه يكلِّم نفسه بصوتٍ مسموع، مستأمنًا إلى أن أحدًا لن يفهمه. سبحان الله، هذه صورتي في أسوان، نعم، تذكرت كانت فتاة إنجليزيةً تدعوني لعملٍ غير مفهوم، في مدينة أوربية.. كان المحقِّق يعرف العربية، فقد عاد لسؤاله وقد أدرك ما قيل:

ـ في مدينة مانشستر، لكنك رفضت. وقد كتبت ذلك في تقريرها، هل تذكرت الآن؟

ـ نعم.. لكنني أيامها توجَّست من كلامها.

ـ يعني تتوجَّس من العَرْض الذي قدمناه لك، وترفضه، ثم تأتي بعد سنوات إلى الجحيم الأفغاني، غير متوجِّس من أي شيء!

ـ لقد جئت في عمل علني، ليس فيه ما يعيب أو يبعث على التوجُّس والقلق. كنت أعلم أن في الأمر خطورة، لكنني لم أتخيَّل أن تصل إلى ذلك الحد.

ـ بمناسبة الخطورة، ما رأيك في تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر الماضي؟

ـ هذا عملٌ لا يُرضي الله ولا رسوله، ولا يمكن أن يقبله البشرُ الأسوياء؛ لأن الضحايا أُناسٌ لا يحملون السلاح، ولا ذنب لهم. لكنكم تفعلون معي الآن الشيء الذي تشتكون منه، وتتباكون. تقترفون الجرم ذاته، حين تأخذونني أسيرًا من دون أن أحاربكم.

ـ تقصد أن هذه التفجيرات هي ردُّ فعل، الذين ارتكبوا هذه الجريمة معذورون؟

ـ لا يوجد عذر لقتل الأبرياء، والإسلامُ لا يقبل بذلك.

ـ هل تريد مزيدًا من القهوة؟

ـ إذا كان ممكنًا.

قبل أن تأتي القهوة، صدمه المحقق بسؤال مباشر: هل قابلت أسامة

بن لادن من قبل؟ فردَّ من فوره بالنفي.. سكت المحقق وأشار إلى جارته الصامتة، فأخذت تحرك أصابعها من دون أن ترفع وجهها عن شاشة الجهاز. بعدما شرب قهوته الأخرى، الأخيرة، نظر إليه المحقق مبتسمًا كمن يوشك على إلقاء قولٍ ثقيل، وأرسل إليه بالجهاز، وعلى شاشته صورةٌ قديمة التقطوها يوم اصطحب أباه لتسليم الخراف، أمام المنـزل الذي كان أمامه بحي الرياض بالخرطوم.. قال المحقق:

ـ هل يمكنك الآن الإنكار؟

ـ ما الذي سأنكره؟ هذا الشخص الذي في الصورة مختلفٌ تمامًا عن الشخص الجديد الذي صنعتموه هنا. وتأتي الآن لتسألني عنه! الذي قابلته مرةً يوم التقاط هذه الصورة، كان رجلًا يُطعم الناس احتسابًا، ويشق الطرق لخدمة الناس من دون مقابل. وقد رفضتم أيامها استلامه لأنه غير مطلوبٍ عندكم. فلا تسألني عن رجلٍ يحاربكم اليوم علانيةً، لأنكم أردتم منه ذلك، بل دفعتم به دفعًا ليعاديكم، بعدما كان لكم صديقًا.

ـ مهلًا. دعنا قليلًا من أسامة بن لادن، أريد أن أسألك عن أحمد شاه مسعود.

ـ لم أره قَطُّ.

ـ أعرف. لكنني أسألك عمَّن خطط لاغتياله، أعني من وجهة نظرك الشخصية: مَن قاتله الحقيقي؟

ـ لا أعرف.

ـ لا بد أن أعرف وجهة نظرك، مهما كانت.

ـ أعتقد أن قاتليه هم أصحاب المصلحة في اختفائه من المشهد.

ـ جيد، من هم؟

ـ كثيرون. الأمريكانُ لأنه كان يميل إلى الإيرانيين والفرنسيين. وطالبانُ، لأنه أوقف زحفهم نحو شمال البلاد. وقادةُ الجماعات الأفغانية المسلَّحة، لأنهم يطمحون إلى سُلطةٍ، يعوقهم عنها.. وربما كان هناك آخرون، يتمنون موته.

ـ مثل مَنْ؟

ـ لا أعرف تحديدًا.. قد يكون منهم أسامة بن لادن، صديقكم السابق، فهو اليوم صديق طالبان.

أشار المحقق إلى جارته فأغلقت الجهاز، وتهيَّأ الجند للعودة بالسجين إلى الزنزانة. اقترب منه المحققُ بينما يضعون في أطرافه القيود من جديد، ونظر إليه بعينيه الزرقاوين اللامعتين، مليًّا، ثم قال عبارة لم يفهمها في تلك اللحظة: يبدو أننا تورَّطنا فيك، ولا بد من إبعادك فورًا عن سجن قندهار.

أسعده كلام المحقق، وفهم منه أن الفَرَج صار قريبًا. فقد اعترف له الرجلُ المهذَّبُ بأنهم أخطأوا باعتقاله، ولعله يقصد أنهم تورَّطوا بشرائه من استخبارات باكستان. تُرى، كم دفعوا فيه؟ سأل نفسه عن ذلك وهو في طريق العودة إلى الزنزانة، ثم أزاح السؤال الأفكار كلها عن خاطره، حين توالت عليه أسئلة الأسرى مستخبرةً عما جرى معه خلال التحقيق. وقد أكد معظمهم بعدما سمعوا منه، أن

كلاب الأمريكان أدركوا أخيرًا خطأهم، واعترفوا به، مع أنهم نادرًا ما يعترفون بما ارتكبوه في حق الآخرين. فهم ويرون أنفسهم دومًا في الصواب، مع أنهم في العين الحمئة.

ليلتها، نام قرير العين وبدا له قبل غيابه في دهاليز النوم، أنه لا بد أن يتهيَّأ لاستقبال الفَرَج القريب بعد الأشهر الأربعة العصيبة. فاستدعى إلى خياله سكون مهيرة المسكينة، ونظرتها الحيِيَّة، وحركاتها الهادئة في البيت برفق فَرَاشةٍ وبطءِ سلحفاةٍ وحنوِّ سحابة صيف. يا مهيرة. ما الذي جرى معك؟ أتراها ظلت في الدوحة، أم ذهبتِ إلى منزل الأسرة بالسودان؟ ليتك يا مهيرة استطعتِ الوصول إلى أم درمان؛ لتأمني هناك بين الأهل ويفرحوا بك. ولعلكِ علَّمتِ أمي طريقة إعداد وجبة البُلُوفِّ، وتعلَّمتِ منها فنون الطبخ السوداني. وربما يكتمل الفرحُ وتخبرينني بأنك حُبلى في شهرك الخامس، ولسوف تكونين «أم بلال» كما تمنى فوَّاز.. وأنت يا نورا، كيف حالكِ بعدما صرتِ طليقةً؟ هل عرفت من «أمولة» أنني التقيتُ بها، وهل أهاج ذلك ذكرياتنا في قلبك؟ فوَّاز كان، فيما يبدو، محقًّا حين قال إن الله قد يقدِّر لي الحسنيين. نورا ومهيرة، الدنيا والآخرة.

* * *

بعد يومين أخذوه من سجن «قندهار» مثقَلًا بالقيود، محجوب العينيْن، إلى طائرةٍ حلَّقت لقرابة أربع ساعات، فظَنَّ أنهم يرحِّلونه إلى قطر التي جاءهم منها، أو السودان التي يحمل منها جواز سفره المسلوب منه، أو مصر المشهورة حكومتها بصداقة الأمريكان. لا بأس. أيُّ مكانٍ سيكون أفضل مما كان فيه، ولو ذهبوا به إلى الإمارات

فسوف يرتضي بذلك؛ فلديه تصريحُ الإقامة ما يزال ساريًا، ولسوف يبحث عن عملٍ جديد. ما تاريخ اليوم، وأيُّ يومٍ هو من أيام الأسبوع؟ هبطت الطائرةُ فجلس ينتظر الفرج، لكنهم أخَذوه إلى طائرةٍ أخرى كبيرةٍ، أطالت الطيران لقرابة نصف يوم.. ومثلما حدث من قبل، كانت ساقاه متخشبتين من طول الجلوس، ولأنهم تحاشوا وقوعه من فوق سلم الطائرة فقد كشفوا عنه غطاء عينيه، فرأى بحرًا يمتد إلى آخر المدى. ظن أنه المحيط، وقد صدق ظنه. واعتقد أنهم أخذوه إلى أمريكا لإيداعه بأحد سجونها، لكنه كان مخطئًا في اعتقاده.. فهذه الأرض التي هبط عليها ليست بأمريكا، وإنما هي كوبا، وهو لن يُحبس في السنوات السبع التالية بسجنٍ عاديٍّ، بل سيبقى أسيرًا في معتقلٍ رهيبٍ يديره الجيشُ الأمريكيُّ سرًّا.

اسمه جُوانْتَنامو.

«وأما الأخبار التى بأيدينا الآن، فإنما نتّبع فيها غالب الظن، لا العلم المحقق»

ابن النفيس

بطل هذه الرواية شاب مصري سوداني يتسم بالبراءة والتدين، ويعمل كمرشد سياحي في الأقصر وأسوان. كانت أقصى أحلام هذا الشاب هي الزواج من فتاة نوبية جميلة ليبدأ حياة سعيدة هانئة، ولكن نظام حياته المسالم والممل ينقلب رأسا على عقب بعد مقابلة مع أسامة بن لادن في السودان في أوائل التسعينيات.

تأسرنا الرواية بإيقاعها المتسارع لنتتبع مصير بطلها من الأقصر للخليج لأوزبكستان ثم أفغانستان ومعتقل جوانتانامو. لغة يوسف زيدان الشعرية تجعلنا نعيش تجربة إنسانية فريدة، حيث يختلط الواقع بالخيال وننطلق مع البطل في رحلة لنكتشف خبايا النفس والعالم.



يوسف زيدان، روائي ومفكر وباحث مصري متخصص في التراث العربي المخطوط وعلومه. له العديد من المؤلفات والأبحاث العلمية في الفكر الإسلامي والتصوف وتاريخ الطب العربي. وهو مدير مركز ومتحف المخطوطات في مكتبة الإسكندرية. صدر له من دار الشروق ثلاث روايات: «عزازيل» (٢٠٠٨) والتي فازت بالجائزة العالمية للرواية العربية في ٢٠٠٩، و«ظل الأفعى» (٢٠٠٨)، و«النبطي» (٢٠١٠)، وتتصدر روايته قائمة الكتب الأفضل مبيعًا منذ صدورها وحتى الآن.

6 66007 424115

دار الشروق
www.shorouk.com